جمهورية مصر العربية
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٧٤٧

الأدب والنقد

البحتري
وشعره في الوصف

رسالة الماجستير

٠٠٢٧٢٨ م

١٣٩٤ هـ
١٩٧٤ م

اعداد
عبدالله بن سليمان العقل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين . وبعد :

انه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن أكون أحد المنتسبين الى جامعة الأزهر ، القلعة الشامخة ، والمعقل الحصين ، هذه الجامعة العتيدة التي تشع المعرفة والنور على مر الدهور ، وتنير السبيل أكثر من الف عام من الزمن ، تخرج حملة الشريعة المحمدية ، وتحافظ على اللغة العربية السامية وآدابها الرفيعة العالية . وذلك بفضل رجالها المخلصين العاملين الذين امتلكوا ناصية المعرفة وزمام البيان ، حتى صاروا أصحاب الفضل على الكثيرين ، فالكثرة الكاثرة من المتعلمين في جميع أقطار المعمورة تدين لهم بالاستاذية والعرفان على دوام الأيام والأزمان .

وبعد : أقدم بحثي المتواضع وكم كان بودي لو كان مخطوطاً أخرجه للمكتبة العربية الا أن عدم عثوري على مخطوط مناسب حال دون رغبتي لذا عزمت على بحث شعر الوصف عند البحتري ، بعد أن استشرت أساتذتي الدكاترة الأجلاء .

وسوف أتعرض في هذا البحث : لعصر الشاعر ، وحياته بالتفصيل ، ولشعره وشاعريته . ثم أجول جولة سريعة في الأغراض التي طرقها . وبالتالي أحصر أشعاره في الوصف وأدرسها بالتفصيل والتقسيم حسب الفهرس الذي سأثبته في نهاية هذا البحث . ثم أبين خصائص هذا الوصف ، ومنزلة الشاعر وسبقه الشعراء في بعض المجالات .

أرجو من الله العلي القدير العون والسداد ، والتوفيق والرشاد . .

الدارس/ عبد الله بن سليمان بن راشد العقل

مخطط البحث

الباب الأول :

الفصل الأول : حالة العصر

١ ـ الحياة السياسية فى العصر العباسى ،
٢ ـ الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى ،
٣ ـ الحياة العقلية والأدبية فى العصر العباسى .
الشعر وخصائصه فى العصر العباسى .

الفصل الثانى : حياة البحترى بالتفصيل .

الفصل الثالث : :

١ ـ شعر البحترى ومميزاته .
٢ ـ شاعريته وآراء النقاد والأدباء فيها .
٣ ـ نظرة سريعة فى أغراض الشعر التى طرقها .

الباب الثانى : الوصف فى شعر البحترى .

الفصل الأول : تطور الوصف فى الشعر العربى الى عصر الشاعر .
وصف ايوان كسرى .

الفصل الثانى :

١ ـ وصف القصور العباسية .
٢ ـ وصف الطبيعة .
٣ ـ وصف المدن والأقاليم .
٤ ـ وصف الحيوان .
٥ ـ وصف المعارك والسيف .
٦ ـ وصف الطيف والشب .
٧ ـ وصف المواكب وغيرها .

الفصل الثالث : ١ ـ خصائص شعر الوصف عند البحترى وآراء النقاد فيه .
٢ ـ منزلة البحترى فى شعر الوصف واستاذيته للشعراء فيه .

الخاتمة .

مراجع البحث ومصادره .

الفهارس .

الباب الأول

الفصل الأول : حالة العصر

الحياة السياسية في العصر العباسي

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا فملأ الأرض نورا وعدلا ، وقضى على النعرة الجاهلية التي كانت قائمة قبل الاسلام ، فتوحدت الأمة وتحدد الهدف ، ثم انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى . ومن المعروف أنه لم يوص بالخلافة من بعده لأحد ، بل ترك الأمر شورى بين المسلمين فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة واختاروا أبا بكر خليفة عليهم ، ولكن البعض كان يرى أن علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب أولى بالخلافة ، نظرا لقرابتهما من الرسول وكونهما من آل بيته ، لكنهم آثروا مبايعة أبي بكر حرصا منهم على جمع كلمة المسلمين . وبعد أبي بكر تولى الخلافة عمر بن الخطاب ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد نشأ الخلاف المشهور بين علي ومعاوية ، فامتنع معاوية عن مبايعة علي ، ولكن الخلافة الراشدة ما لبثت أن انتهت بمقتل علي رضي الله عنه ، وقامت الدولة الأموية بعد ذلك التي لم تسر على الطريقة التي سارت عليها الخلافة الراشدة ، فظهر الترف والبذخ والفساد في عهد بعض الخلفاء ، كما وجدت العصبية القبلية واضطهاد العناصر غير العربية وخاصة العنصر الفارسي يضاف الى ذلك الانتفاضات والثورات الداخلية كثورة الكوفة والمدينة ومكة . ومن المعروف أن ابن الزبير استولى على مكة ، ولكن بني هاشم رفضوا مبايعته أمثال عبد الله بن عباس ومحمد بن علي ابن أبي طالب المعروف بابن الحنفية . فاضطهد ابن الزبير بعضهم وحبس البعض الآخر . وفي هذه الأثناء ظهر المختار الثقفي ورأى أن الوقت مناسب للانتفاع من وراء هذه الفتن ، فذهب الى الكوفة داعيا لمحمد بن الحنفية واخراجه من السجن ، وكون جيشا من الشيعة فتمكن من اخراجه لكن عبد الله بن الزبير كلف أخاه مصعبا بالقضاء على المختار فقضى عليه .

وبعد ذلك تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فبايعه ابن الحنفية ولكن الشيعة لم يرضوا عن هذه المبايعة وادعوا أن ابن الحنفية مغلوب على أمره وأن الحق له في الخلافة وبعد مدة توفي محمد فجعل بعض الشيعة ولاءهم لولده أبي هاشم . وكان هناك محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي يسكن الحميمة ، فنزل عنده أبو هاشم لمرضه وعندما أحس بالوفاة أوصى بالخلافة عام ١٠٠ هـ لمحمد بن علي ، وقد كان هذا حازما وبعث الدعاة في الأمصار للدعوة له سرا ، واختار خراسان قاعدة لدعوته لوجود الفرس الذين يكرهون بني أمية ، ومازال سائرا في عمله حتى قرب أجله فعهد بالأمر الى ابنه ابراهيم الامام فسار على طريقة والده ، وقد اختار ابراهيم لدعوته أبا مسلم الخراساني فقدم أبو مسلم الى خراسان عام ١٢٩ هـ فقوي شأنه وكثر أتباعه ، ولكن عامل بني أمية في فارس نصر بن سيار تنبه للأمر ، فأرسل الى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية

يخبره بالأمر ولكن مروان لم يأبه لقوله اول الأمر ، ولكنه اخيرا ارسل من يعتقل ابراهيم الامام الذى اوصى بالخلافة من بعده لأخيه ابى العباس السفاح ، وقد ظل ابراهيم سجينا حتى مات — اخذ ابومسلم يدعو اهل خراسان الى مبايعة السفاح فيبايعوه ثم يبايعه اهل الكوفة ، وبعد ذلك توجه ابومسلم لمحاربة مروان فولى هاربا الى مصر . فتابعته جيوش العباسيين حتى ظفرت به وقتلته . وبمقتل مروان بن محمد عام ١٣٢هـ سقطت الدولة الأموية وقامت على انقاضها دولة بنى العباس التى صارت دولة جديدة فى ريعان الشباب والقوة . ثم تولى المنصور الخلافة بعد العباس واخذت تنتقل من قوى الى اقوى حتى آلت الى الأمين الذى عمل على نقل ولاية العهد من اخيه المأمون الى ابنه موسى ، مما سبب قيام حروب بين الأخوين قتل الأمين فى نهايتها وتولى المأمون الخلافة وفى آخر خلافته شبت ثورات فى بعض انحاء البلاد أثارها كل من انصار الأمين والعلويين كما عاث السرط فى الأرض فسادا ، واستطاع المأمون ان يخمد بعضها . وبعد تولى المعتصم الخلافة قضى على البعض الآخر . ولكن المعتصم كان سببا فى ضعف سلطان الخلافة واضطراب امرها من بعده ، حيث استخدم الأتراك وقربهم واستكثر منهم . فعلا شأنهم وقويت شوكتهم فآذوا الناس واعتدوا عليهم فى بغداد وارتفعت الشكوى ضدهم الى الخليفة فاضطر الى أن أنشأ لهم (سرمن راى) وانتقل مقرهم اليها وقد اخذ الاتراك يجمعون السلطة فى ايديهم ، ولما تولى الواثق بن المعتصم الخلافة ثبتت اقدام الاتراك حيث استخدمهم للقضاء على ثورة الأعراب فى المدينة ، ولكن مالبث ان اصبح الاتراك مصدر خطر يهدد سلطان الخلافة كما ازداد امر الخلافة سوءا وفسادا بسبب الخلافات القائمة بين الاسرة العباسية نفسها ، وعندما وصل المتوكل الى الخلافة احس بتوغل الاتراك وسيطرتهم ، فاراد ان يقلل من نفوذهم وقضى على بعض رؤوسهم كأيتاخ فخافوا على سلطانهم منه خاصة بعد ما اراد ان ينقل الخلافة الى دمشق وجعلها عاصمة الخلافة بدل سامراء وكان المتوكل قد اوصى بالخلافة من بعده الى اولاده الثلاثة المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد ، وكان ميل الخليفة مع المعتز فخاف المنتصر ان ينقل ولاية العهد اليه فتؤول الخلافة بعد المتوكل الى المعتز ، واستغل الاتراك ذلك فالتفوا حول المنتصر وزينوا له قتل ابيه لتخلص له الخلافة من بعده . فتواطأ مع الاتراك واقدم على المشاركة فى قتل ابيه فقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان فى القصر الجعفرى وكان الشاعر البحترى حاضرا هذه الحادثة كما سوف يأتى

تولى المنتصر الخلافة ولكن مدته لم تطل الا ستة اشهر فمات على اختلاف فى اسباب موته وقبل موته عمل على ابعاد اخويه عن الخلافة . وصار الامر بأيدى الاتراك يولون من ارادوا ويعزلون من ارادوا . فولوا المستعين الخلافة وسلبوه كل سلطة وصلاحية وصار الأمر كله لهم تماما . فحاولوا قتل الخليفة . فولى هاربا الى بغداد . وكان المعتز سجينا فأطلقوا صراحه وعينوه خليفة وجعلوا اخاه المؤيد وليا للعهد . فلم يرض المستعين عن هذا التصرف وكادت الحروب ان تشتعل بينه

وبين المعتز ولكنه تنازل عن الخلافة ومطالبته بها بشرط ان تضمن له الحياة . ولكن المعتز قتله وخلع المؤيد عن ولاية العهد ولم يكتف بخلعه بل قتله في السجن . هذا من جهة المعتز والمستعين والمؤيد . أما الجند من جهة اخرى فثاروا على المعتز وطالبوه بالعطاء فلم يجدوا عنده مالا فخلعوه وعاملوه اشنع معاملة فقد دخلوا في حجرته وجروه برجله وتناولوه ضربا واقاموه في الشمس في وقت شديد الحر . فجعل يرفع قدمه ساعة اثر ساعة من شدة الحرارة ، بل تطاول الجند فجعل بعضهم يلطمه على وجهه وأجبروه على خلع نفسه ، ثم ادخلوه في سرداب مجصص واغلقوا الباب عليه فمات .

وبعد المعتز جاء الى الخلافة المهتدي وكان يتصف بصفات الخليفة العادل من تقوى — وعدل وورع فحارب الظلم واخرج المغنين والمغنيات من سامراء ، ولكن مالبث ان ثار عليه طوائف الجند حين اراد حملهم على الطريق المستقيم . فولى هاربا وطلب من الناس ان يعينوه فلم يجبه احد ثم خلع وقتل .

وبعد انتهاء خلافة المهتدي اخرج المعتمد من السجن وبويع بالخلافة ، وعهد الى اخيه الموفق بقيادة الجيوش للقضاء على الخلافات القائمة بين القواد . وكان المعتمد شغوفا باللعب والطرب واللهو ، فاستبد الموفق بالأمر وكان رجلا مصلحا ، وترك اخاه في لعبه ولهوه وقد انتقل المعتمد الى بغداد وجعلها عاصمة الخلافة وترك سامراء . وقد عمل الموفق بجد ونشاط على اعادة الهيبة الى الخلافة ، ولكنه لم يستطع الوقوف امام الولاة الذين اخذوا باقتطاع اجزاء من الدولة والاستقلال بها لما رأوا من سيطرة الأتراك على الخليفة واستبدادهم بالأمور ، فأحمد ابن طولون حاول الاستقلال بمصر والشام ، اما فيما وراء النهر فأسس السامانيون دولتهم كما — عمل الصفارون على الاستيلاء على فارس وغيرها ، اما ثورة الزنج فقد شغلت جانبا كبيرا من عصر المعتمد . ولكن الموفق استطاع ان يقضي على ثورتهم بعد حروب طاحنة كما استطاع ان يكف طغيان الأتراك وبعد ذلك بويع المعتضد بالخلافة فسكنت الفتن وصلحت احوال البلاد وخلف اموالا عظيمة . — اما شاعرنا البحتري فقد توفي في خلافة هذا الخليفة . وبعد المعتضد اتى الى الخلافة ابنه المكتفي وقد اتصف عهده بالحزم . واستطاع ان يكبح من جماح الأتراك والأخذ على ايديهم وبعد وفاة المكتفي ولي الاتراك اخاه المقتدر وكان صغير السن فكثر بطشهم وتسلطهم. من هذا الاستعراض المختصر نرى كيف كانت الفوضى تخيم على الدولة العباسية في عصورها الأخيرة في المشرق اعتداء وقتلا ونفوذ الموالي وخاصة الاتراك الذين دوخوا الدولة العباسية وخلفاءها فأصبحوا اهل الحل والعقد يعزلون الخلفاء ويقتلونهم ويولون الخلافة من يريدون — فتجمعت السلطة في ايديهم واجروا الامور حسب ارادتهم واهوائهم وكثيرا ما اخافوا الناس — في دورهم وتعرضوا لهم واعتدوا عليهم وعلى حرماتهم في بعض الاحيان كما كان من اسباب هذه الفوضى وهذا الاضطراب استقلال كثير من البلاد عن الخلافة العباسية فالدولة الطولونية

والأخشيدية والطاهرية والسامانية والصفارية وغيرهـا ·

كما شهد العصر العباسى الثانى ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة لأضطهاد الشيعة على يد الخلفاء كا لمتوكل وتشريده لهم وقد كان يبغض من يوالونهم ويقربونهم · وهكذا وجد الأضطراب والفوضى والانحلال سبيلهما فى هذا العصر من الدولة على خلاف ماكانت عليه فى عصرها الاول من القوة وسيطرة الخلفاء التامة على سلطان الخلافة ·

ومن المعروف ان خلافة المتوكل تعتبر نقطة تحول من عهد القوة والسيطرة على الامور — الى عهد الضعف والتقهقر ·

أما عصر الدولة الثالث فيبدأ بقيام الدولة البويهية عام ٣٣٥ هـ وينتهى بسقوط بغداد بأيدى السلاجقة عام ٤٤٧هـ فلقد سيطر بنو بويه على الحكم فى بغداد بدل الأتراك ولكنهم لا يقلون عن الاتراك من حيث اضطراب أمور الدولة والتنكيل بالخلفاء والسيطرة عليهم والاستهانة بهم وقد بلغ الامر بالبويهيين ان ضربوا اسماءهم على العملة وخطب لهم على المنابر ، وقد استقلت بعض الدويلات عن الخلافة فى هذا العصر ومالبث ان دالت دولة البويهيين على ايدى السلاجقة الذين دخلوا بغداد ٤٤٧هـ وقد دام حكم السلاجقة ماعدا مصر والشام — حتى اغار هولاكو التترى على بغداد واستولى عليها عام ٦٥٦ هـ وقتل التتار من وجدوا فى بغداد من العباسيين ولكن بعض الخلفاء فر الى مصر واحتموا بالملك المظفر بيبرس ·

هذا عرض موجز عن الحياة السياسية لماكانت عليه الدولة العباسية منذ قيامها حتى القضاء عليها فى المشرق · ولعل هذا العرض المختصر اوضح لنا حالات الاضطراب والقلق والفوضى التى عمت الخلافة منذ بداية العصر الثانى ٢٣٢ هـ مما جعل المؤرخين يذهبون الى ان العصر العباسى اتسم بميزات اهمها :

١ — التنافس والتناحر بين العناصر العرقية على السياسة ·
٢ — وهن الخلافة وضعفها مما ادى الى تجزئها الى امارات مستقلة ·
٣ — الحركات والاضطرابات الداخلية ·
٤ — الغارات على اطرافها من قبل الروم والأفرنج ·

٢ـ الحياة الأجتماعية

أتسعت الفتوحات الأسلامية فى الدولة الأموية ، حيث شملت بلاد فارس وماوراء ها والعراق والشام ومصر وشمال افريقيا وبلاد الأندلس .

وكان من نتيجة هذا التوسع فى الفتوح ان اختلط العرب بالأمم المختلفة فى هذه البلدان وتم اتصالهم بأعظم مدنيتين موجودتين آنذاك وهما مدنيتا الفرس والروم وقد اتى هذا الأتصال أكله وتأثيره معا فى الحياة الأجتماعية فى العصر العباسى ، حيث وجدت حياة اجتماعية فى هذا العصر تخالف العصر الأموى ، ذلك ان العنصر العربى فى العصر الأموى كان يترفع عن مخالطة العنصر العجمى ، نشأ هذا من اعتزاز العرب بجنسهم وعروبتهم وأنهم أصحاب الأمر فى الدولة . فلم يكن للعجم منزلة لاستبداد الأمويين .

ولما جاء العصر العباسى ارتفع شأن الفرس ومنزلتهم لانهم اصحاب الفضل فى تأسيس الدولة الجديدة وانتقلوا الى عاصمة الخلافة وانطلقت السنتهم واصواتهم المكبوتة واخذوا يجهرون بمآثرهم وبأمجادهم وتاريخهم فأحسوا بالحرية بعد ماألم بهم فى دولة بنى أمية من الضيق . ولكن ماكاد العصر العباسى الأول ينتهى حتى اقصاهم الأتراك وقضوا على نفوذهم ونفوذ العرب ايضا واستأثروا بالمناصب الحكومية فى الدولة وسيروها كما يريدون ـ كما تقدم فى الحياة السياسية . وبجانب العناصر الثلاثة العرب والفرس والأتراك يوجد فى بغداد الروم والزنج ، اجتمعت هذه الأجناس المختلفة والتقت وصارت بغداد ملتقى عناصر شتى واجناس متعددة تتنافس على السيادة والرزق ، وتعمل كل مافى وسعها للتقرب الى الخلفاء وكان لهذا التنافس أثره فى الحالة الاجتماعية فى العصر العباسى . هذا من ناحية المجتمع فى الدولة العباسية .

وهذا المجتمع يكون من طبقتين خاصة وعامة ، أما الخاصة فهى الخليفة وحاشيته والأغنياء من الشعب واما العامة فهى ماعدا هؤلاء من تجار وصناع وعمال وفقراء وغيرهم .

أما من ناحية الموارد فلقد تضخمت واردات الدولة تضخما كبيرا لاتساع رقعتها وقد ذهبت كتب التاريخ تحصى هذه الواردات من الأموال النقدية . وذكرت الأعداد الهائلة فذكر ابن خلدون ان الواردات فى عهد المأمون الى بيت المال بلغت اربعمائة مليون درهم كما يذكر قدامة بن جعفر انها ايام المعتصم بلغت ثلاثمائة وثلاثين مليون درهم . كما يقال ان المنصور خلف لأبنه المهدى مايزيد عن ستمائة مليون درهم واربعة عشر مليون دينارا وهذا قليل من كثير سقته كمثال .

وكما كانت الأموال فى ايدى الخلفاء فلقد كانت النساء يمتلكن الاموال الطائلة . ولقد كان من جراء ذلك الترف والبذخ المتناهى فى جميع جوانب الحياة العباسية ، فقد استأثرت الطبقة

الخاصة بالأموال تنفقها على ملذاتها حينا وتدخرها حينا آخر . فمن حيث اللبـــاس فلقد لبسوا ارق وانعم وابهى انواع الحرير والديباج وتفننوا فى ذلك فجعلوا لحياة العمل لباسا ولحياة اللهو لباسا آخر وقد اشتهر الخليفتان الموفق والمكتفى من هذه الناحيـــة وعدعند هما آلاف الملابس حتى عدوا للموفق ستة آلاف ثوب من جنس واحد . وللمكتفى مايبلـــغ قرابة عشرة آلاف . كما اقتنى الناس الجواهر والدرر والياقيت وصاروا يتباهون بذلك . وأمـــا المأكل والمشرب فلقد اكلوا ما لذ وطاب من الوان الطعام واشكاله وشربوا ماشف وذاق مـــن انواع الشراب . وكان من نتائج المال والترف اقتناء الجوارى والغلمان فلقد شاع التســـرى بالجوارى فى هذا العصر ومن المعروف ان خلفاء بنى العباس انفسهم منذ الهادى ابنـــاء سرارى يستثنى من ذلك الأمين فأمه حرة هى زبيدة بنت المنصور . وكانت الاسواق مكتظـــة ببيع الرقيق من اماء وعبيد ، وقد اخذ الخلفاء والاغنياء يتباهون فى امتلاك الجوارى والغلمان ذكـــروا انه كان لهارون الرشيد قرابة الفى جارية ولجعفر المتوكل اربعة آلاف جارية . وذكـــر ابن خلكان ان ام جعفر البرمكى كانت فى ايام عزها تمشى ووراءها اربعمائة وصيفة .

ان هذا يدل على بذخ عظيم وغنى وافر ، ولم تكن الجوارى مقصورة على الخلفاء وحدهـــم بل كانت منازل الخاصة وارباب اليسار لها النصيب الوافر . ومجالس الشراب والغناء كانـــت وافرة فى الحواضر ولا سيما بين الخاصة فى بغداد ، فلم تكن تخلو منها قصور الخلفاء والأغنياء بل اتخذ الخلفاء ندماء دائمين . وسنرى مايجرى بين شاعرنا البحترى وبين المتوكل وغيره مـــن الخلفاء الذين اتصل بهم الشاعر ومن المميزات التى اتسمت بها الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، التأنق فى الفنون وتشييد المنازل ونسج المفروشات . فقد حشدوا فى قصورهـــم ومنازلهم افخر واجود الوان الاثاث وزينوا الحيطان والسقوف بصور ورسوم من الذهب والفضة وقد بذلوا الاموال العظيمة فى بناء وتشييد هذه القصور ، فهناك الخليفة المعتصم الذى انفـــق على بناء سامراء اموالا طائلة كما انفق المتوكل على المبانى والقصور قرابة خمســـة ملايين دينار . كما اعتنى الخلفاء بمواكبهم وتفننوا فى ذلك . هذا الترف والبذخ العظيمان قد سا فى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم حب المادة ، وأحبوا المال حبا شديدا لأنهـــم رأوه السبيل الوحيد الى الترف والملذات وراحوا يسيرون فى كل طريق يؤدى اليه ، فكان من اسباب ذلك انتشار الرشوة انتشارا مخيفا واصبح من بيدهم تصريف الأمور على حظ كبـــير من الثراء كما كانت عاصمة الخلافة مقصد الكثيرين من مختلف الطبقات من شعراء وعلماء وغيرهم فقد جاؤ والمشاركوا ويأخذوا نصيبهم من هذه الثروات . بل نرى اكثرهم يقيم سنوات طويلة تاركا بلده واهله كما لبحترى الذى قضى زهاء اربعين سنة يتنقل بين الخلفاء يمدح ويهجو ويستعطف فصار الشاعر الرسمى للدولـــة .

ولقد سببت هذه الاموال وهذا البذخ والترف شغب الجند وكثيرا مايثورون اذا لم تحقق طلباتهم من قبل الخلفاء والوزراء ·

هكذا انتشر الترف والثروة وتدفقت الاموال من طرق عدة فبغداد لم تكن مركزا للخلافة فقط بل كانت مركزا تجاريا كبيرا · والزراعة كانت ايام العباسيين على درجة عظيمة من الرقي وقد عرف عن العباسيين حفر الأنهار وانشاء الجسور والترع حتى جعلوا مابين دجلة والكوفة سوادا مشتبكا تخترقه انهار الفرات فازدهرت الزراعة واعطت اكلها في هذا العصر وعرفنا حياة الخاصة من المجتمع ومدى الترف والبذخ التي استأثرت به · وبجانب الخاصة وجدت طبقة عامة الشعب التي كانت تكد وتكدح لتحصل قوتها ومايحفظ عليها الحياة · فأخذت تعمل جادة للبحث عن الرزق وكفاف الحال حتى ان بعض العامة وصلت به سوء الحال الى سؤال الناس بل اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ومهنة على الرغم من الأموال — والخيرات التي وجدت في هذا العصر ·

هكذا كانت الحياة الأجتماعية في العصر العباسي كان الترف والنعيم نصيب عدد قليل منهم وهم الخاصة حين كان الفقر والشقاء والبؤس والحاجة الماسة من نصيب العامة التي تشكل العدد الأكبر من المجتمع ·

٣ — الحياة العقلية والأدبية

لقد ازدهرت الحياة العقلية ازدهارا كبيرا في دولة بني عباس، حيث وجدت في البلاد الأسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة والمتقدمة في العلم والثقافة . لأن بعض الخلفاء وجهوا هممهم نحو العلوم والمعارف، وشغفوا بعلوم الأمم الأجنبية ذات المدنية والحضارة، مما دفع العلماء الى التسابق في ميدان الترجمة والتأليف في جميع العلوم . وكان الخليفة ابوجعفر المنصور من الذين اعتنوا بجمع الحديث والفقه وغيرهما . ولم يبخل بالمال في هذا السبيل، بل بذل اموالا جزيلة للعلماء ولم يقتصر هذا الخليفة على العلوم الأسلامية بل كلف العلماء والمترجمين من الفرس وغيرهم ان ينقلوا الى العربية من اليونانية والفارسية فنون الطب والحكمة والسياسة والمنطق وغيرها . وقد بعث الى امبراطور الرومان يسأله عما لديه من كتب الفلاسفة وكلف احد المترجمين بترجمتها، ويعتبر المنصور اول خليفة قرب المنجمين .

أما المأمون فقد اوفد كذلك الى ملوك الروم للحصول على علوم الرومان، ونقلها الى العربية . — وقد اسس مدرسة في مدينة بغداد تعنى بتخريج المترجمين هي دار الحكمة . وكان لهذه الدار الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة فأثمرت في هذا العصر الفنون الأسلامية وزهت الآداب العربية ونقلت العلوم الاجنبية ونضج العقل العربي فوجد سبيلا الى البحث والدراسة ومجالا واسعا للتفكير ولم ينته عصر المأمون والواثق حتى لم يبق علم مما صنف فيه الفرس واليونان والهنود والسريان الا وترجم الى العربية منه، ولقد انقسمت العلوم الى قسمين : علوم اسلامية وعلوم دخيلة والعلوم الأسلامية تشمل علوما شرعية واخرى لسانية فالشرعية كتفسير القرآن الكريم وجمع الحديث الشريف واستنباط احكام الدين والتدليل عليها وهذه العلوم درست في القرن الذي عاش فيه شاعرنا البحتري . واما اللسانية كالنحو والصرف فقد اعتنى بها وظهرت بعد الكتب . كتاب سيبويه في النحو وكتاب الحدود للفراء وقد ثار نوع من الجدل والمناظرة في هذا العصر بين البصريين والكوفيين، واما البلاغة فكانت في اول الطريق ولم تصل الى اقسامها الثلاثة المعروفة البيان، والمعاني، والبديع، ولقد شهد هذا العصر مبدأ تكوينها في كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى ٢٠٦ هـ بعد أن سئل عن معنى قوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وان الشياطين رؤوسها لم تعرف، فأجاب بأن هذا على حد قول امرئ القيس .

ايقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب اغوال .

كما أن الجاحظ تعرض لبعض علوم البلاغة في كتابه (البيان والتبيين) اما بعض الشعراء المحدثين فقد اغرموا بالمحسنات البديعية، الزخارف الصناعية، مما حدا ببعض الأدباء في العصر العباسي الى دراستها واستقصائها والتمثيل لها . فكان كتاب (البديع) لأبن المعتز .

أما جمع الشعر فلقد نالت العناية بجمعه منذ صدر الدولة وألفت الكتب في ذلك، فالمفضليات — للمفضل الضبي وكتاب الحماسة لأبي تمام وكذلك كتاب فحول الشعراء الذي جمع فيه طائفة كبيرة من

من شعراء الجاهلية والأسلام ، وله ايضا كتاب ((الأختيارات من شعر الشعراء)) أما شاعرنا البحترى فله كتاب (الحماسة) وسوف يأتى الحديث عنه فى آثار الشاعر . ولقد شهد عصر البحترى اوائل الكتب التى الفت فى نقد الشعر . كتاب (طبقات الشعراء) لأبن سلام الجمحى وكتاب الشعر والشعراء)) لأبن قتيبة والى جانب دراسة الشعر ونقده فى هذا العصر نجد العلماء يجمعون النثر ويدرسونه ايضا ، فألفت الكتب المحتوية على الخطب والرسائل والمكاتبات يشرحونها ويتولون التعليق عليها ويبرزون الأخبار المتعلقة برجالها وأول من سن هذه الطريقة الجاحظ فى كتبه واحمد بن ابى طاهر طيفور والمبرد ، كما درس التاريخ بجانب الأدب والف فيه فمن تاريخ السير الى تاريخ الانساب والتراجم والفتوح وكان من نتائج ذلك ان وضع ابن جرير الطبرى تاريخه المعروف ، ولقد اثرت ترجمة كتب اليونان . فدرست الجغرافية والفلك وغيرهما .

ولكن التأليف فى هذا العصر اتخذ سمة معينة فلقد كان المؤلفون الذين الفوا فى الأدب لا يبوبون تبويبا منظما منسقا ، كما انهم لم يكونوا يستوفون المواضيع التى يكتبونها فكانوا ينتقلون من غرض الى آخر ، ومن باب الى باب ، ومن فكرة الى فكرة ، ولولم يستكملوا البحث الأول . بل جرى بعض الكتاب على ان يعود بالقارئ الى الموضوع السابق ويعللون سببا لذلك انهم يقصدون الى دفع الملل والسآمة عن القارئ امثال الجاحظ وابن سلام الجمحى . وبجانب هذا الفريق من المؤلفين نجد فريقا آخر وراء في تبويبه كما فعل ابوتمام ، اما البحترى فالناظر فى حماسته يجده غالى مغالاة شديدة فى كثرة الأبواب .

هكذا نشطت الدراسات الأسلامية فى هذا العصر فنجد فى مصر الدراسات الدينية واللغوية وفى الشام دراسة الشعر والآداب واللغة واما العراق مقر الخلافة والخلفاء ومقصد العلماء وغيرهم فاحتلت مكان الصدارة فى العلم والأدب واصبحت اهم مراكز العلم والحضارة وصارت بغداد تجذب اليها العلماء والشعراء والكتاب من جميع البلاد الأسلامية .

وكما ازدهرت العلوم الأسلامية — شرعية ولسانية فى هذا العصر ازدهرت كذلك العلوم الدخيلة التى ترجمت الى العربية وهى تنقسم الى اربعة اقسام : طبيعية وسياسية ورياضية والهية ، فالطبيعية تشمل الطبيعة والكيميا والصيدلة والطب وغيرها . والسياسية كتنظيم الملك وتدبير المال . والرياضية الجبر والحساب والهندسة والفلك وغير ذلك . واما الألهية فتشمل ماوراء الطبيعة .

ولم تكن ترجمة هذه العلوم فى اول الامر كما ينبغى لأن الذين يجيدون العربية والأعجمية قلة ، ولكن لما جاء زمن المأمون اتسعت الترجمة فصحح ماترجم من قبل وغير نهجها وكلف المترجمين بتبويبها وتنظيمها من جديد واحضر كتب الفلسفة من القسطنطينية فترجمت مما كان تأثيره فى العصر العباسى على العلوم وظهر تأثيرها فى العلوم الشرعية كما تأثرت بها الأدب كذلك

ووجد فى هذا العصر من الشعراء من تعمق فى الفلسفة والمنطق ونجد آخرين ثاروا على هؤلاء الذين يريدون ان يخضعوا الشعر لقواعد المنطق .

أما النثابة وخاصة الأنشائية فى هذا العصر فقد بلغت شأوا رفيعا من الأزدهار ولاغرابة فى هذا مادامت الكتابة هى الطريق الى الوزارة فوزراء بعض الخلفاء من نوابغ الكتاب ، اما الطريقة التى سارت عليها الكتابة معظم العصر فهى طريقة عبد الحميد الكاتب من الأعتناء بالمعنى وقلة السجع والبعد عن التكلف والميل الى الايجاز فى أول العصر ، أما الجاحظ فأتت كتاباته حافلة بالتوازن الموسيقى مقسمة العبارات أقساما قريبة من التساوى .

وكان من آثار ترجمة العلوم الى العربية أن نتج طراز ممتاز فى الكتابة العربية ومادامت الكتابة تستعمل لأغراض متعددة بين رسائل ديوانية تتعلق بأدارة الملك وتدبير شئون البلاد وبين رسائل اخوانية فلاغرابة ان تحتل مكانة رفيعة وعظيمة فى هذا العصر . ولكننا نراها عندما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله ضعفت وجهل أصحابها الغرض منها ومالوا الى زخرف القول والأكثار من البديع وأوغلوا فى ذلك حتى سجعت مبانيهم وفسدت معانيهم .

أما الخطابة فى صدر العصر فكان لها مكانة فى النفوس وسلطان على القلوب لأعتماد القوم عليها فى توطيد وتثبيت دعائم الملك واستقبال الوفود والهاب حماس الجنود وكان خلفاء بنى عباس الأولون خطباء كما كان دعاتهم كابن نصور والمهدى والرشيد والمأمون وداود بن على ، وخالد بن صفوان وغيرهم . ولما وطد العباسيون الملك واستوثق الأمر لهم وتولى الأعاجم والموالى قيادة السياسة فى الدولة والجيش ضعفت الخطابة بضعف القدرة عليها وقلة الدواعى اليها ، على أن الخلفاء ما برحوا يخطبون الجماهير ويؤمون الناس الى عهد الخليفة الراضى ولكن بعد سيطرة بنى بويه على الخلافة والخلفاء عهد الخلفاء بالخطابة يالمساجد الى بعض العلماء الأكفاء ثم مالبثت الألسنة ان استعجمت فأخذ العلماء يردون الخطب السابقة واقتصرت على الجمع والعيدين . ولكن الكتابة حلت محل الخطابة فى جميع الأهواء ورد الأعداء والقضاء على الأضطرابات والفتن .

هكذا كانت الحياة الأدبية فى هذا العصر فلقد كان عصر بنى العباس وخاصة الثانى زاخرا بالعلوم والعلماء حيث كثرت العلوم المترجمة كثرة عظيمة لم يسبق لها مثيل وقد أغدق الخلفاء على العاملين اغداقا سخيا وبلاحدود . كما نال الشعراء نصيبهم فى العصر فنرى الشعراز دهروارتقى فى كنف الخلفاء والوزراء بل ان بعضهم شارك فى قرضه ، ولقد وجد من نبغ من الشعراء فى عهد الأستقرار وقبل مقتل المتوكل ولكن الشعر عثر بعد استبداد الأتراك وتسلطهم ولم ينبغ فى فترة الأتراك الا القليل وهذا دليل قطعى على عناية الخلفاء

بالشعر والشعراء فيما سبق أما فى آخر العصر فأن الخلفاء اسقط فى أيديهم وصاروا يبحثون عن الطرق التى تثبت ملكهم وتقضى على أعدائهم .

أما اغراض الشعر فى العصر العباسى فهى الأغراض المعروفة من قبل الا أنه ازدهر فيه وصف مظاهر الحضارة الجديدة ووصف الطبيعة وسوف نلم بهذا الوصف فى الحديث عن الوصف عند البحترى كما لا يغيب عن البال أن بعض الخلفاء عمل على تشجيع المغنين وكان لهم نصيب وافر من جانب الخلفاء العباسيين . مما جعل الغناء يصل الى الغاية ووجود ابراهيم المهدى وابراهيم الموصلى وغيرهما شاهد على ذلك . فلقد شجع خلفاء بنى العباس المغنين - ماعدا المهدى الذى ابعدهم - وأعطوهم عطاء جزيلا واصطفوا منهم الندماء ، ولقد كان تسلط الأتراك واستبدادهم بشئون الخلافة سببا فى انصراف الخلفاء ولعهم فى سماع الغناء .

هذه هى الحياة العقلية بأختصار فى هذا العصر والتى استمدت من ثلاثة روافد كبيرة غنية اليونان والفرس والهند فآتت أكلها فى العصر العباسى الثانى الذى امتزجت فيه الثقافات - وظهرت آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء فكان هذا العصر ازهى وارقى العصور فى حياته العقلية والأدبية .

٧٤٧

الشعر فى العصر العباسى وخصائصه

ماكادت الدولة العباسية تقوم حتى انتقل الشعر من هدوء البادية الى ضوضاء المدينة ، ومن الصحارى المجدبة الى القصور الشامخة فى بغداد متحف بها البساتين والأشجار وانصرف الشعراء عن المواضيع الجاهلية الى معان جديدة مستمدة من روح العصر واتسع خيالهم وادراكهم باتساع العمران الحضارة ، فحدث تغيير واسع فى تفكير الشعراء وعقولهم تمشيا مع مايحيط بهم فجالوا فى الشعر جولة واسعة لم تتوفر اسبابها لسابقيهم فبلغ الشعر فى هذا العصر غاية ومنزلة لم يبلغها الشعر فيما بعده .

ولقد اهتم الخلفاء العباسيون الاولون بالشعر والشعراء وصاروا يعقدون للشعراء مواسم سنوية ومجالس ادبية يستمعون فيها لشعرهم ، ويمنحونهم العطايا والهبات حسب اجادتهم وتفوقهم ، أولموافقة الشعراء لسياسة الخلفاء وشاركهم فى هذا الأمر الوزراء والعمال ، فظل الشعر فى هذا العصر يحتل المنزلة الرفيعة ، كما اتصف بالقوة والجزالة والتقدم الموجود — اربابه والمشجعين عليه ، وأصبحت بغداد قبلة الشعراء يؤمونها من كل حدب وصوب .

وقد تفنن الشعراء فى الأغراض وابدعوا فى المعانى وحافظوا فى جملتهم فى انشاء القصيدة على الأوضاع والتقاليد الموروثة عن العرب فى بنائها على روى واحد ، ووزن واحد وفى ابتدائها فى الغزل والنسيب وذكر الديار والأطلال ، ووصف الناقة والرحلة فى الفلوات وكانوا يقصدون بذلك التمهيد للانتقال الى الغرض المقصور من مدح أوهجاء أوفخر أوتهنئة على أن بعض الشعراء كأبى نواس لم يلتزم ذلك فى شعره خرج عن التقاليد الموروثة فى الشعر العربى وعاب على شعراء الحاضرة المجدين الذين سلكوا مسالك الأعراب فى أشعارهم واستبدل بها الأبتداء بالخمريات والمجونيات ، ووصف القصور والبساتين وقد جاراه فى طريقته بعض الشعراء .

ومن المعروف أن الشعر ظل فى بغداد حتى انفرط عقد الخلافة العباسية ، وتعددت حواضر الدولة وذلك باستقلال الولاة واقتطاعهم أجزاء من جسم الدولة ، فانتقل الشعر الى تلك الحواضر ووجد من يشجعه ويكافئ على اجادته كبنى بويه وآل حمدان فازداد انتشارا

ولما ذهب المعضدون للشعر وقل الراغبون فيه والمشجعون عليه ذهب معهم جمال الشعر وجودته وفقد تأثيره فى النفوس ، وأصبح معانى معادة مكررة ، بل صار مهلهلا لأغراق الشعراء فى المحسنات ، فلقد استبدت بهم الصناعة فكثر التكلف وظهر الأبتذال ولا سيما فى نتاج المتأخرين من أعلام هذا العصر الذين هيأوا عصر انحطاط الشعر . يقول الأستاذ السكندرى ((كان الشعر فى عصر بنى أمية ينبع من المعين الذى تنبع منه أئمة العرب ونحول الفصاحة -أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة الفراتية — فلما قرت دولة العرب والعراق وتوسطت

دار خلافتهم بين العراق والجزيرة صارت بغداد قبلة الشعراء ووجهة الأدباء ومن لم يقصدها وإغا
الأقامة في ظلال الخلفاء والملوك قصدها للنجعة والأمتياح ولم يمض على بغداد قرن واحد من تأسيسها حتى صارت عشا للأدب وميدانا لتسابق جياد القول في كل فن ولا سيما الشعر فسوق كان له عند الخلفاء والقواد والوزراء سوق نافقة حتى عند رؤساء الأعاجم من الديلم والترك وحتى تكلف بعضهم أن يعانيه وينظمه بل ينبغ فيه ، ودام كذلك الى انتهاء الدولة العباسية بعصريها وبهذه العناية العظيمة به وكثرة قائليه ومنتحليه تفنن الناس وأدخلوا عليه فنونا لم تعهد فيه واستعملوه في كل غرض حتى التعبد به وتشكل اسلوبه وتنوعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله غير أن من ميزات الدولة الاسلامية وخصائص اللسان العربي مجاراة كل مستحدث جديد ضرورى مع المحافظة والحنين الى الصبغة الأصلية في الجملة بحيث لا يأتي نسخ الجديد للقديم بالمرة فمن الأمور التي لم تنسخ أصول الوزن والقافية والتمهيد للمدح بالغزل والتشبيب بالنساء والنسيب بذكر الديار ودروسها والأظعان وحدوجها على أن النسيب يمثل هذه الأمور لم يعد ملتزما في مطالع القصائد منذ صدر الدولة العباسية بل كثيرا ماكان يحل محله ذكر القصور ونعيم العيش وصحبة اخوان الطرب وغناء القيان ونحو ذلك أو يستبدل به ذكر الخمر وأوصافها والحث على اصطباحها واغتباقها ... ويظن أن اول من خلع هذا التقليد أبو نواس في كثير من قصائده لا سيما الخمريات تطرفا منه وتهاجنا ثم صار ذلك متبعا كثيرا في شعر من بعده)).

وبعد فسوف نلقي نظرة سريعة على خصائص الشعر العباسي من حيث :

١ــ الفاظه وأساليبه .

٢ــ معانيه وأخيلته .

٣ــ الموضوعات والأغراض التي طرقها شعراؤه وعلى ما استجد من أغراض ثم الأسباب التي جعلته يبلغ هذه المنزلة العالية .

أما من حيث الألفاظ والأساليب:

فلقد كان للشعر العباسي النصيب الوافر في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الدالة على المعنى أوضح دلالة . وفي صوغ العبارات المحكمة والأساليب الرائعة ويتمثل هذا في : هجر الشعراء العباسيين للألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة حتى صار القارئ لأشعارهم لا يحتاج الى المعاجم غالبا . ولا شك أن هذا من اثر الحضارة وسلامة الذوق . وكذلك ادخلوا بعض الألفاظ الأعجمية تطرفا وكانت أساليبهم رقيقة واضحة حسنة السبك وقد ضمنوها ذكر القصور وصحبة الاخوان وغير ذلك مما كان موجودا في بيئتهم . وقد أدخلوا عليها بعض المحسنات البديعية التي وشتها وحسنتها ولم يستكثر الشعراء من المحسنات الا في آخر العصر .

كما استعمل الشعراء كثيرا من الألفاظ المعربة ولعل أكثرها كان من تعريبهم أنفسهم كما استعملوا كثيرا من الفاظ العلوم والفنون .

أما في المعاني والأخيلة : فلقد كان لامتزاج الثقافات واختلاط العناصر تأثير جديد في معاني الشعروأخيلته في هذا العصر وهذا التأثير من حيث تماسك القصيدة وترابط أجزائها وترتيب أفكارها وتسلسلها وأخذ المنطق يتغلغل في الصياغة الفنية . كما أحدثوا معاني جديدة أوحت بها حياة اليسار والترف وانصرفوا عن المعاني البدوية الى معان حضرية صرفة وقد تكاثرت المعاني بتكاثر الفنون وبرزت في شعرهم آثار حرفتهم التي يحترفونها والفن الذي يغلب عليهم . كما استخدموا الأدلة المنطقية . والآراء الفلسفية ، فقد كانت ثقافة الشاعر قبل هذا العصر ضحلة .

أما في هذا العصر فالشاعر صاحب ثقافة علمية واسعة فانخرط الشعراء في زمرة العلماء وتأثر شعرهم بذلك تأثرا كبيرا فصار ميدانا واسعا لأفكارهم العميقة وآرائهم الفلسفية الرائعة فأغترفوا من العلوم والفنون اغترافا غزيرا .

كما شاع الأبداع في الخيال والجمال في التصوير لامتلاء أذهان الشعراء بروائع الحسن ورونق الحضارة فأستمدوا معانيهم من تلك الطبيعة المبتسمة والحياة المرحة اللاعبة فصارت ناحية الأبداع والتصوير أظهر النواحي في شعر العصر العباسي لأنه ورث حضارة فارسية ـ مليئة بآثار الخيالات الواسعة والتصاوير الرائعة كما اتصفت أخيلتهم ومعانيهم بالمبالغة والتهويل وقد يكون سبب ذلك أن أكثرهم من المولدين الذين يرجع نسبهم الى الفرس . ـ ومن المشهود للفرس ولعهم بالمبالغة والتهويل في وصفهم للاشياء . وتصويرهم للحقائق وتحديدهم للمعاني كما كان من اسباب شيوع المبالغة بين طبقات الشعراء تفتح ابواب المعاني واتساع مناحي الفكر .

أما مطالع قصائدهم فقد اتسمت بعدم الأزعاج والفرتوهذا من أثر نضوج ملكة الشعر فيهم ونمو الذوق الأدبي عندهم واكتمال قوة النقد لديهم وخصوبة الأفكار والقرائح . فقد كانوا ـ يمحصون أفكارهم ويرتبون عناصر شعرهم ثم يبرزونها في ثوب جميل جذاب . كما أن انتقالهم من غرض الى غرض لا يدل على الفطرة ولا يبنى على المفاجأة كما كان انتهاؤهم لا يدل على ترقب غير منتظر أوخاتمة غير حسنة . بل حسنت ابتداءاتهم وانتقالاتهم وانتهاءاتهم .

هذا
يقول بعض الأدباء في الحديث عن معاني الشعراء في العصر (يراد بها تلك المعاني التي استقل المحدثون بابتداعها ولم يسبقهم اليها جاهلي ولا اسلامي وتلك لعمر الحق كثيرة كثرة المشاهدات التي أحدثتها الحضارة ، متعددة تعدد العادات التي أوحت بها

المدنية ، مبتكرة بهذا الفكر المثقف الذى قرأ حكمة الهند ، وتأدب بأدب الفرس ، واذا استبد المتقدمون بمتانة التعبير وصحة الأداء وحازوا فضيلة السلامة من قصور الملكة وكان كلامهم حجة فى العربية ومعجما لألفاظها وأساليبها ، فأن للمحدثين مزية المعنى والتحليق فى سماء الخيال واتساع الفكر ، ولقد قال أبوالفتح عثمان بن جنى ((المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ)) .

أما من حيث الموضوعات والأغراض التى طرقوها فمنها القديم الذى سبقوا اليه والجديد الذى استحدثوا . فلقد نظموا فى الأغراض القديمة ولكنهم أكثروا منها وتفننوا فيها بسل صبغوها بصبغة جعلتها تكاد تكون جديدة مبتكرة فنظموا فى المديح والهجاء والرثاء — والوصف والفخر والحماسة والأعتذار والاستعطاف والسياسة وغير ذلك . ، ولكنهم خلعوا عليها من حضارتهم وأذواقهم ماجعلها ذات طابع خاص يميزها فى هذا العصر عنها فى العصور الأخرى .

ففى الوصف مثلا تناولوا كل ماوقع عليه نظرهم من قصور وبساتين ومجالس أنس وشراب — ومن طبيعة خلابة وحضارة شاملة .

وعلاوة على الأغراض القديمة فقد أحدثوا اغراضا جديدة لم يسبقوا اليها ومنها الغزل — بالمذكر والولوع به . وسبب وجوده هو تفكك المجتمع وسريان الفوضى وشيوع الأنحلال الخلقى والاستهتار بالمقدسات وكثرة الترف ، والانصراف الى اللهو والشراب وعدم قداسة الوازع — الدينى فى النفوس ولقد كان الغزل بالمذكر من سيئات هذا العصر فلقد كان وباء عاما ومرضا عضالا وخاصة فى العصر الثانى .

ومن الأغراض الجديدة المجون ووصف الخمر والتفنن فى ذلك والقول فى المصلوبين ، وهجاء المغنين والاتهام بالانحراف الخلقى والذم بالرشوة ونظم القصص والحكايات ، ووصف أنواع الأطعمة ، وضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها وتصوير الطبيعة بما تحويه كما نظموا فى الوعظ والتزهيد فى الدنيا وفى الفلسفة والتصوف والتحكم . كما استخدموا الشعر فى التظرف وافتعال الحقائق ، واختلاق القضايا كما أنفوا الأستمرار على المعانى القديمة فى افتتاح قصائدهم كالوقوف على الديار وبكاء الأطلال وذكر الشياق والغلوات .

ولو بحثنا عن الأسباب التى جعلت الشعر العباسى يرقى ويزدهر ويتحل المكانة العليا لوجدناها تكمن فى :—

١ — تذوق الخلفاء ورجال الدولة للأدب فقد كانوا أصحاب اذواق أدبية سليمة يفرقون بين الغث والسمين . فأصبحت قصورهم مقصد الأدباء والشعراء .

٢ — عقد مجالس الشعر وقد كان الخلفاء يميلون الى هذه المجالس . وظهر ذلك جليا منذ خلافة أبي جعفر المنصور الذي كان يدعو الشعراء الى النزوع الى الجديد وترك القديم كما عقد المهدي كثيرا من المجالس الأدبية وكذلك الرشيد وحتى المعتصم على اميته كما يقال كان يطرب للادب ويعقد مجالس للشعر . أما مجالس المتوكل للشعراء ومكانة شاعرنا البحتري فيها فهي مضرب الأمثال .

٣ — أتابة المحسنين من الشعراء واجزال العطاء لهم فقد كان الخلفاء ورجالات الدولة يهبون الاموال لشعرائهم مما دفع الشعراء الى التسابق في ميدان الشعر .

٤ — رقي الغناء وانتشار مجالسه وللغناء صلة وثيقة برقي الشعر واشتهار الشعراء ، فقد اختار المغنون الأصوات من روائع الأشعار فغنوها فدفعوا بالشعراء الى الأنتاج وتوخي السهولة والرشاقة في أساليبهم ، والجمال والرقة في معانيهم ، وابتكار الجديد واللائق في أغراضهم ، وعندما يغني المغنون شعر شاعر بحضرة خليفة أووزير أوغيرهما يثير في نفس الشاعر المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية ، وأخذ الشعراء يتسابقون في ميادين الشعر رجاء أن يحظى شعرهم بالغناء . وأصبح للغناء فضل عظيم على الشعر وازدهاره .

٥ — أما تأثير البيئة وغناها فهو من أهم الأسباب التي جعلت الشعر يزدهر في هذا العصر فالشعراء أخذوا يستمدون مقومات اشعارهم من الحضارة الواسعة التي وجدت في عصرهم فصار الشاعر يلتقط يمنة ويسرة فيرى مالم يره الشعراء من قبل من الحضارة والعمران والتقدم .

الفصـــــل الثانـــــى

حياة البحـــــترى :-

نسبه ونشأتـــــــــه فى منبـج ـ رحلتهالـى حلب ـ

صلته بأبـى تمام ـ تأثره بـه ، اعترافـه له بالأستاذيـة .

ارتحاله الـى العـراق واتصـالـه بالخلفاء ، ورجـالات الدولة .

سبب خـروجـه من بغداد ـ وفاتـــه .

عقـيدتـه ـ صفـاته وأخـلاقـه ـ آثـاره .

البحترى

نسبه ونشأته

البحترى هو الوليد بن عبيد (١) بن يحيى بن عبيد بن شملال (٢) بن جابر (٣) بن سلمة (٤) ابن مسهر (٥) بن الحارث بن خيثم (٦) بن ابى حارثة بن جدى بن تدول (٧) بن بحتر (٨) ابن عنين (٩) بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة وهوطئ بن أدد بن زيد (١٠) ابن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وكنيته أبوعبادة ويقال ابوالحسن ومن هذا يظهر أن له كنيتين ولكن بعض الروايات ذهبت الى أنه كان يكنى ابا عبادة قبل دخوله العراق ، ولما دخلها اكتنى بأبى الحسن تقربا الى الشيعة النابهين والكتاب من أهل الشيعة ، وانصاره يرون انه اكتنى بأبى الحسن تشبها بمذهب الحضارة ولكنه حين اتصل بالمتوكل وهو يكره الشيعة أشير عليه أن يكتفى بكنيته الاولى وهى أبوعبادة ففعل ويقال انه اقتصر على ابى عبادة لشهرتها . يقول الخطيب فى كتابه تاريخ بغداد ((انه كان يكنى ابا الحسن وابا عبادة فأشير عليه فى ايام المتوكل أن يقتصر على أبى عبادة فأنها اشهر ففعل))

أما الأسم الذى شهر به فى عالم الأدب فهو ((البحترى)) نسبة الى ((بحتر)) جده الثانى عشر . ولد البحترى فى خلافة المأمون عام ٢٠٦هـ وقيل ٢٠٥هـ وقيل ٢٠٤هـ ولكن المشهور انه ولد فى عام ٢٠٦ هـ فى بلدة منبج فى الشام بين حلب والفرات التى بناها كسرى لما غلب على الشام وسماها ((منبسه)) فعربت فقيل ((مَنْج)) ، وقد ذهب بعض الكتاب الى انه ولد فى قرية صغيرة قريبة من منبج هى ((زردفنه)) .

---

(١) فى الأغانى ومعجم الأدباء : عبيد الله

((٢)) فى تاريخ بغداد ((شملان)) بالنون وقد رأى الدكتور صالح الأشتر فى أخبار البحترى للصولى انه خطأ .

((٣)) فى جمهرة أشعار العرب ((ثملان بن خالد))

((٤)) فى معجم البلدان ((مسلمة))

((٥)) فى الجمهرة سمهم))

((٦)) فى معجم الأدباء ((جشم))

((٧)) فى وفيات الأعيان ومعجم الأدباء ((بدول)) والصواب كما أكده المعرى فى عبث الوليد أنها ((تدول)) وفى الجمهرة ((جرول)) وفى بعض المراجع ((نزول))

((٨)) لم يرد ذكره فى الأغانى ومعجم الأدباء وتاريخ بغداد .

((٩)) هكذا ورد فى تاريخ بغداد وفى الاشتقاق ، وورد فى نهاية الأدب ((عنيز)) كما ورد فى بعض المراجع ((عمير)) وبعضها (عنبر) وبعضها ((عنمه))

((١٠)) قد ورد فى بعض المصادر : ابن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

ولكن المشهور انه ولد فى منبج لأنه يذكرها كثيرا فى شعره ، ويحن اليها دائما وكان لنشأة الشاعر فى هذه البلدة اليد الطولى فى شاعريته ، فللبلد الطيب والهواء النقى والماء العذب أكثر من أثر فى عبقرية الشعراء كما يقال .

والبحترى قحطانى الأدب . لأنه ينتسب الى طئ الذى ينتهى نسبه بكهلان من قحطان — وعدنانى من جهة أمه . التى تنتسب الى شيبان وهى قبيلة ينتهى نسبها ببكر بن وائل ابن ربيعة . وقد اشار البحترى الى ذلك فى شعره فيقول مفتخرا بأبوته :

أن قومى قوم الشريف قديما ... وحديثا أبوة وجدودا

ذهبت طئ بسابقة المجـ ... ـد على العالمين بأسا وجودا

فهم قوم تبع خير قوم ... لهم الله بالفخار شهيدا

ويشير الى نسبه من جهة امه اذ يقول :

أعمرو بن شيبان وشيبان نكهابى ... اذا نسبت أمى وعمركم عمرى

هذا من جهة نسب أمه وأبيه ، والقارئ لأخبار الشاعر فى كتب الأدب يرى أن اباه توفى قبل أمه وذلك من الخبر القائل أن أباتمام راسل أم البحترى فى التزويج بها فأجابته موقالت له اجمع الناس للاملاك . فقال : الله أجل أن يذكر بيننا ولكن نتصافح ونتساوح ((١)) .

وقد يكون لموت أبى الشاعر وهو صغير سبب فى نشأته فقيرا حيث اعترف بذلك فى شعره اذ يقول :

وعيرتنى سجال العدم جاهلة ... والنبع عريان مما فى فرعه ثمر

ولكنه لم يترك هذه النشأة تحول بينه وبين نيل الغنى والثراء حتى صار له كتاب وقهارمة فيما بعد ، وامتلك قرية فى منبج وضياعا غيرها . لما كان يتمتع به من عزيمة قوية وهمة عالية حيث ترك بلاده وتحمل المشاق والأسفار يقول :

فأنى وأن ازمع غدوا لطية ... أغلس وان اجمع رواحا اهجر

ومع هذه العزيمة كان طموحا لا يرضى بالواقع ، ولا يقنع بمالديه موكانت حياته دليلا على ذلك . تثقف شاعرنا ثقافته الأولى فى منبج . والغالب انه تثقف وتربى كما كان يتربى ويتثقف نشء المسلمين حينئذ فهم يحفظون القرآن ثم تعلم أحكام الدين و سنة الرسول وحفظ شئ من الشعر والنثر البليغين ثم اذا ترعرع لفتى اختلف الى علماء بلده ، فأخذ عنهم شيئا من علوم اللغة وأخبار الفتوح والمغازى موأيام العرب وأنسابهم . والبحترى لما لبلده البلدة من فضل عليه فهو كثير الحنين اليها . ولذلك ظل بعد انتقاله الى العراق كما سوف يأتى معلق القلب بها . فهى علاوة على جمالها وحسن موقعها مقطن قومه طئ وقد اختلط بهم ونشأ بينهم ولنشأته فيهم الأثر الواضح فى فصاحته ولاغرو مادام اذا مد بصره شرقا رأى الفرات واذا غرب غربا

((١)) وفيات الأعيان ٢: ١٧٦

مربحلب وبجوارها لبنان كما يقول الاسباعي بيوس . وهذه أماكن غنية بالجمال وآياتـــه فقد شب بها وهو المفطور على قوة الخيال المقدر له أن يكون في أول حياته شاعر تلـك الديار وهذا مدد حسي يمد شاعريته على ماكان له من مدد معنوي به يفخر ومنه يأخذ وهو عشائر طيء وأجداده لأبيه ، وكذلك عشائر تغلب أجداده لأمه الضاربة في تلك الاصقاع لها العز والسؤدد لذا نشأ هذا الشاعر نشأة عربية ملهمة في ربوع منبج ، فقد كان موهوبا بطبعه مفطورا على قول الشعر وليس هذا غريبا مادام يختلف الى تلك القبائل يأخذ عنها الفصيح ويرتشف أفاويق البلاغة ومن ثم غلبت على شعره الجزالة والرقة وجمع بين فضيلتي البداوة والحضارة . ولهذه النشأة ايضا مالبث أن جرى الشعر على لسانه لايرجع فيه الا الى طبعه كما يقول : ((كنت في حداثتي أروم الشعر وكنت أرجع فيه الى طبعـي)) .

وقد ورد أنه كان في اول نشأته في منبج يمدح أصحاب البصل والباذنجان . قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ((قال صالح بن الاصبغ التنوخي المنبجي : رأيت البحتري ههنا عندنا — قبل أن يخرج الى العراق يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب وأومأ الى جنبتي المسجـد يمدح أصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه)) وقد ذهب كثير من الأدباء والكتاب الى عدم صحة هذا الخبر وعللوا تعليلات كثيرة منها : انهم يعرف عن السابقين مـن الشعراء والذين هم اقل من البحتري لم يعرف عنهم انهم عملوا مثل هذا العمل فقد حفظ البحتري كثيرا من أشعارهم ، كما أن الاولى بالشاعران يمدح الولاة والامراء وهذا افضـل من مدح اصحاب البصل والباذنجان وارجى منهم في العطية والمنحة . وذهب بعضهم انه لوفعل ذلك لعرض نفسه للسخرية والاستهزاء .

وأرى ان مدحه اصحاب البصل والباذنجان في اول نشأته ليس بغريب ولا مستنكر بل هو ممكن خاصة وأن الشاعر صغير السن يخيم الفقر عليه ثم هو لا يعرف ماذا سيئول اليه من مجـد وتقريب من لدن الخلفاء . كما سيأتي — فلم يلمع نجمه في تلك الأيام ، يضاف الى هذا أنه لم يجد من يوجهه ويأخذ بيده ويوصله الى الولاة والامراء ليمدحهم ويترك اصحاب البصـل والباذنجان . ولذلك سوف ترى انه لما اتصل بأبي تمام ووجهه ودربه على شأنه فصار له المنزلة العالية والحظوة في الدولة العباسية .

رحلته الى حلب والتقاؤه بعلوة :

رحل البحترى الى مدينة حلب أكثر من مرة ، فرحلاته الى هذه المدينة كثيرة وعديدة ولكن تاريخ هذه الرحلات مجهول . ويرجح أكثر الكتاب أن ارتحاله وتردده على حلب كان قبل اتصاله بأبى تمام فى حمص وفى أثناء رحلات الشاعر التقى فى حلب بفتاة فتن بها وهى : علوة بنت زريقة الحلبية ، وكتب الأدب لم تذكر شيئا عن أبيها وقيمته وعن قيمة أسرتها فى الحياة الاجتماعية . ويذكر عبد العزيز سيد الاهل فى عبقرية البحترى أنها كانت مغنية ويعض الكتاب يذكر أنها كانت غسالة أو ابنة غسالة ، ومهما يكن فان شاعرنا أغرم بهذه الفتاة وأكثر من ترديد اسمها على لسانه والتغزل بها ووصفها اذ يقول :

هل دين علوة يستطاع فيقتضى ... أوظلم علوة يستغاث فينصر "١"
بيضاء يعطيك القضيب قوامها ... ويريك عينيها الغزال الأحور
تمشى فتحكم فى القلوب بدلها ... وتميس فى ظل الشباب وتخطر
وتميل من لين الصبا فيقيمها ... قد يؤنث تارة ويذكر

ويقول أيضا :

بيضاء رود الشباب قد غمست ... فى خجل ذائب يعصفرها "٢"
مجدولة هزها الصبا فشجا ... قلبك مسموعها ومنظرها

والبحترى أحب علوة لأنه نعم معها فى حلب بأيام سعيدة هانئة كان يجد اللذة فى ذكراها ، ولذلك فهو يكثر الحنين الى علوة فلا ينسى تلك الايام التى قضاها بالقرب منها حتى وهو بعيد فى أرض العراق يقول :

قل للسحاب اذا حدته الشمأل ... وسرى بليل ركبه المتحمل "٣"
عرج على حلب فهى محلة ... مأنوسة فيها لعلوة منزل

ولقد أصيب شاعرنا بصدمة عنيفة كما جن جنونه عندما تزوجت علوة من رجل بينه وبين الشاعر صداقة ولكن البحترى لم يتمالك على هذا الحدث فهجا الذفافى زوج علوة :

أبلغ ذفافينا رسالة مشتـ ... ـاق أسر الشكوى وأعلنها "٤"
نبئتها زوجت أخا خنث ... أغن رطب البنان ليّنها

الى آخر ما قاله الشاعر فى الذفافى .

وللبحترى أشعار كثيرة يتغزل بها بعلوة ويذكرها ذكرا حسنا سوف يأتى ذكر لبعضها عند الحديث عن أغراض شعره ان شاء الله .

"١" الديوان ٢ : ١٠٧٠ "٢" الديوان ٢ : ١٠٧٤ "٣" الديوان ٣ : ١٥٩٩
"٤" الديوان ٤ : ٢٣٢٥

اتصال البحـــترى بأبـى تمام

ظهر شاعرنا فى الشام حيث كان يوجد الشاعر المشهور أبو تمام ، يحتل المكانة الأولـى فى الشعر بين شعراء عصره . وتردد البلاد بأجمعها صدى شعره ، وكان له اتصال وثيـق بالخلفاء والوزراء فكانت قصور الخلافة مفتوحة الأبواب لأبى تمام ، كما كان اماما فى الشعر يقصده الشعراء بأشعارهم من كل مكان . ومن ثم اتصل به شاعرنا البحترى وكان الاتصال الاول بينهما عند أبى سعيد الثغرى أمير الجزيرة عند ما رحل البحترى بشعره اليه وهناك التقى بأبى تمـام وهذا اول الاتصالات بين الشاعرين حيث يقول البحترى : (أول ما رأيت أبا تمام ، أنـــى دخلت على الأمير ابى سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتـى :

أأفاق صب من هوى فأفيقا أم خان عهدا أم أطاع شفيقا

فسر بها ابوسعيد وقال : احسنت والله يافتى وأجدت . قال : وكان فى مجلسه رجـــل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده ، تكاد تمس ركبته ركبته . فأقبل على ثم قال : يافـــتى أما تستحى منى ، وهذا شعرلى ، تنتحله وتنشده بحضرتـى ؟! فقال له ابوسعيد : احقـا تقول ؟ قال : نعم . وانما علقه منى فسيقنى به اليك ، وزاد فيه . ثم اندفع فأنشد الشـــعر هذه القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى ، وبقيت متحيرا .

فأقبل على أبوسعيد فقال : يافتى قد كان فى قرابتك لنا ، وودك ايانا مايغنيك عن هذا فجعلت أحلف له بكل محرجة من الأيمان ان الشعر لى ما سبقنى اليه احد ولا سمعته منـــه ولا انتحلته . فلم ينفع ذلك شيئا . وأطرق ابوسعيد وقطع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض فقمت منكسر البال ، اجر رجلى فخرجت فما هو الا ان بلغت الباب حتى خرج الغلمان فردونى فأقبل على الرجل ((ابو تمام)) فقال : الشعر لك يابنى والله ماقلته قط ولا سمعته الا منـك و لكننى ظننت انك تهاونت موضعى ، فأقدمت على الأنشاد بحضرتى من غير معرفة كانـــت بيننا تريد بذلك مضاهاتى و مكاثرتى حتى عرفنى الأمير نسبك وموضعك ، ولو دت الا تلد ابدا طائية الا مثلك . وجعل ابوسعيد يضحك . ودعانى ابوتمام وضمنى اليه وعانقنى واقبل يقرظنى ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به))

ويسوق ابوالفرج الاصبهانى رواية اخرى لاتصال الشاعرين مفادها ان اباسعيد الثغرى قال للبحترى عندما طلب منه السماح له بالأنشاد بين يديه : ياغلام تنشدنى بحضرة أبى تمام ! قال البحترى : تأذن ويسمع ، فأنشده القصيدة ((أأفاق صب ٠٠٠٠)) وأبوتمام يسمع ويهتز من فرقه الى قدمه استحسانا لها ، وطلب من ابى سعيد أن يعطى البحترى جائزته ويروى الآمدى فى الموازنة رواية ثالثة وهى : ((قد أخبرنى أنا رجل من اهل الجزيرة ـــ ويكنى أبا الوضاح وكان عالما بشعر ابى تمام والبحترى واخبارهما ان القصيدة التى سمعها

أبوتمام من البحترى عند محمد بن يوسف — وكان اجتماعهما وتعارفهما — القصيدة التى أولها :—

فيم ابتداركما الملام ولومنا أبكيت الا دمنة وربوعا

وإنما بلغ الى قوله :

فى منزل ضنك تخال به القنا بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا

نهض اليه ابوتمام فقبل بين عينيه سرورا به ، وتحفيا بالطائية ثم قال : ابى الله الا ان يكون الشعر يمنيا .

وقد ذهب الدكتور صالح الأشتر الى ان المقبول من هذه الروايات الثلاث الروايتان الأخيرتان وأن الأولى متهافتة .

وعلى كل فالروايات متفقة على ان البحترى بدأ اتصاله بأبى تمام عند ابى سعيد الثغرى فتوطدت الأواصر بينهما الصلة والمحبة حيث يقول البحترى ايضا ((كان اول امرى فى الشعر ونباهتى فيه انى صرت الى ابى تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعرى . وكان الشعراء يعرضون عليه اشعارهم فأقبل على وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال : انت اشعر من انشدنى فكيف حالك ؟ فشكوت اليه خلة . فكتب الى اهل معرة النعمان ، وشهد لى بالحذق فى الشعر ، وشفع لى اليهم ، وقال : امتدحهم . فصرت اليهم بكتابه . فأكرمونى ووظفوا لى اربعة آلاف درهم فكان اول مال اصبته من الشعر .))

ونص كتاب ابى تمام لاهل المعرة هو : ((يصل كتابى مع الوليد ابى عبادة الطائى وهو على بذاذته شاعر فأكرموه))

وقد ذهب بعض الكتاب الى ان اول اتصال بين الشاعرين كان فى حمص اعتمادا على الخبر السابق . ولكن ماتقدم فى النصوص السابقة لهذا النص تدل على ان الاتصال الاول بينهما كان عند الثغرى لأن البحترى لما دخل المجلس لم يكن يعرف ابا تمام حيث يقول : وكان فى مجلسه رجل رفيع المجلس فوق من حضر عنده)) . فلو كان شاعرنا التقى بأبى تمام فى حمص لعرفه عندما رآه عند الثغرى ثم فى نص التقائهما فى حمص مايعضد ذلك وهو اقبال ابى تمام على البحترى وترك سائر الناس . ثم كتابته لاهل المعرة للاكرام فى نفس الوقت يدل على انه عرفه عند الثغرى .

وقد ذهب الدكتور أحمد احمد البدوى فى كتابه حياة البحترى وفنه ان الرواية موضوعة قصد بها واضعوها ان يبينوا كيف راق اباتمام شعر البحترى .

وصية ابى تمام للبحترى :

أشرت فى الكلام السابق كيف التقى البحترى بأبى تمام حيث تأكدت بينهما المحبة وقويت بينهما

الأواصر . واعجب البحترى بأبى تمام وود أن يصير صورته المكرورة كما ان ابا تمام سر البحترى لما وجد عنده من شاعريـــــه شجاجة . فتوسم فيه النجابة كما يقول الدكتور شوقى ضيف . وظل البحترى بعد ذلك على اتصال دائم بأبى تمام الذى لم يبخل عليه بالتوجيه والرعاية ، وشرح ـ ماغمض عليه من الوان القول كما أوصاه وصية عظيمة وها هو يسردها اذ يقول :

(كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت ارجع فيه الى طبعى ولم اكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت اباتمام وانقطعت فيه اليه واتكلت فى تعريفه عليه . فكان اول ماقال لـى ((يا ابا عبادة تخير الأوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة جرت فى الأوقات ان يقصد الانسان لتأليف شئ اوحفظه فى وقت السحر وذلك ان النفس قد نالت حظها من الراحة وقسطها من النوم . وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا واكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق . فأذا اخذت فى مدح سيد ذى ايـــــاد فأشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه . ونضد المعانى ، وحذر المجهول منهـــا واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الزرية ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل شعرك الا وأنت فارغ القلب واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه فأن الشهوة نعم المعين وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فأجتنبه ترشدان شاء الله))

قال البحترى ((فأعملت نفسى فيما قال ، فوقفت على السياسة)) .

لقد كان من نتائج هذه الصلة ان اصبح البحترى تلميذا لابى تمام الذى تعهده بالوصية . والنصيحة حتى تخرج عليه وظل صنيعة لابى تمام يردد صداه ويترسم خطاه وحبيب يرشده ويعضده لأنـــه طائى مثله . حتى قال له يوما ((انت والله يابنى امير الشعراء غدا بعدى)) فصدق الله نبوءتـــه واصبح البحترى بعد وفاة ابى تمام سائرا لشعر طائر الذكر اماما فى الادب والقريض كما يقول الزيات ويقول صالح الأشتر فى مقدمته لاخبار البحترى تأليف الصولى ((كان توجيه أبى تمام لتلميذه البحترى مخلصا ، فقد رعاه واعده اعدادا كاملا ليحل محله ويصبح امير الشعراء من بعده ولا ريب ان البحترى يملك من المزايا ماجعله بعد فترة وجيزة من وفاة ابى تمام يزاحم مناكب فحول الشعراء فى بغداد)) .ـ

أبوتمام يرشح البحترى لأمارة الشعر من بعده :ـ

وهكذا حدب ابوتمام على البحترى وشجعه بكل الوان التشجيع الذى يرجع بعضه الى اعترافه بشاعرية البحترى قال الأصفهانى : حدثنى على بن سليمان الأخفش قال : حدثنى ابو الغوث ابن البحترى قال : حدثنى ابى قال : قال لى ابوتمام : بلغنى ان بنى حميد اعطوك مالا ـ جليلا فيما مدحتهم به ، فأنشدنى شيئا . فأنشدته بعض ماقلته فيهم . فقال لى : كم اعطوك ؟ فقلت كذا وكذا فقال : ظلموك ، والله ماوفوك حقك ولم استكثر ما دفعوه اليك ، والله لبيت منـــها

خير مما اخذت ثم قال : لعمري لقد استكثرت واستكثر لك ، لمامات الناس ، وذهب الكرام وغاضت المكارم فكسدت سوق الادب . انت والله يابني امير الشعراء غدا بعدي ، فقمت وقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت والله لهذا القول اسر الى قلبي واقوى لنفسي مما وصل الى من القوم. وروى صاحب الاغاني حديثا آخر قال: ((حدثني ابن يحيى عن الحسن بن علي الكاتب قال: قال لي البحتري : انشدت ابا تمام يوما شيئا من شعري فتمثل ببيت اوس بن حجر :

اذا مقرم منا ذرا حد نابه تخمط فينا ناب آخر مقرم

ثم قال له نعيت والله الي نفسي ، فقلت : اعيذك بالله من هذا القول فقال : ان عمري لن يطول وقد نشأني طيء مثلك . أما علمت ان خالد بن صفوان رأى شبيب بن شيبة وهو من رهطه يتكلم فقال : يابني لقد نعى الى نفسي احسانك في كلامك لأنا اهل بيت مانشأ فينا خطيب قط الا مات من قبله . فقلت له: بل يبقيك الله ، ويجعلني فداك قال : ومات ابوتمام بعد سنة))

وبعض الأدباء والكتاب يشكون في صحة هذه الروايات ويرون ان لا نصار الشاعرين يدا في اختلاقها ووضعها .

تأثر البحتري بأبي تمام

سبق ان تحدثت عن اتصال شاعرنا بأستاذه ابي تمام وكيف ان اباتمام اعجب به وبشعره بل وجعله اميرا للشعراء من بعده ، ووصاياه ومصاحبته له . فقد جاء البحتري بعد ابي تمام فتتلمذ عليه وسار مقتفيا نصائحه وارشاداته . ولاشك ان لتوجيه البحتري ورعايته واعداده على يد ابي تمام اثرا كبيرا في شاعريته ، ولاعجب ان يتأثر بأستاذه ومدربه وقد سبق لنا قوله: ((كنت في حداثتي اروم الشعر ... ولم اكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوده اقتضابه حتى قصدت اباتمام وانقطعت فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه ..)) والواقع ان البحتري وان اتبع طريقة ابي تمام فعلى قدر من الطبع فهو وان كانت طريقة في الشعر امتدادا لطريقة استاذه الا انها كانت بعيدة عما كان يقع فيه ابوتمام احيانا من تكلف وغلو ، ودليل ذلك راجع الى نشأة البحتري نشأة عربية خالصة في قبيلة طيء ، والى معرفة الشاعر ان منهج العرب الخلص سهولة الاسلوب وتخير اللفظ ووضوح المعنى . ومع هذا فبعض الكتاب يذهب الى ان البحتري كم كان بوده ان يقلد ابا تمام في تكلفه ولكنه لم يستطع ذلك لقلة ثقافته ، بعد انتشار العلوم الجديدة في عصره بينما ان اباتمام اطلع عليها، كما عدوا ذلك عيبا من العيوب التي اخذت على شاعرنا البحتري .

واكثر الكتاب والأدباء يرون ان البحتري حذا حذو أبي تمام وذهب مذهبه فقد جاء في معاهد التنصيص وغيره : ((وكان البحتري يتشبه بأبي تمام في شعره ويحذو حذوه ومذهبه ونحوه نحوه في البدائع التي كان ابوتمام يستعملها ، ويراه صاحبا واماما ويقدمه على نفسه ويقول في الفرق بينه وبينه قول منصف ان جيد ابي تمام خير من جيده ووسطه ورديئه خير من وسط ابي تمام ورديئه)) .

ومن المسلم به ان التقليد او التأثر لايلزم ان يكون تأثرا وتقليدا تامين فهذا من الأمور الصعبة ومع ان شاعرنا عاصر عدة شعراء كابن الرومي وابن المعتز ودعبل الخزاعي وعلي ابن الجهم وغيرهم ومع اتصاله بهم الا انه لم يتأثر بهم كما تأثر بأبي تمام ، فهو يرى انه الاستاذ والرئيس اما الأدلة على تأثره ماجرى بينهما حيث يقول البحتري : ((انشدني ابوتمام لنفسه :

وسابح هطل التعداء هتان ... على الجراء أمين غير خوان
أظمى النصور ولم تظمأ قوائمه ... فخل عينيك في ظمآن ريان
فلو تراه مشيحا والحصى زيم ... بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت ان حافره ... من صخر تدمر أو من وجه عثمان

ثم قال لي : ماهذا الشعر ؟ فقلت لاادري . قال : هذا هو الاستطراد قلت : وما معنى الأستطراد ؟ قال : يرى انه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان)) .

فماكان من ابى عبادة الاأن اظهر مدى تأثره بأستاذه وطبق هذا الدرس شعرا فقال — من قصيدته التى مدح بها محمد بن على القمى وقد نظمها فى وصف الفرس :

وأغر فى الزمن البهيم محجل — قد رحت منه على اغر محجل
كالهيكل المبنى الاانه — فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

الى ان يقول

ماأن يعاف قذى ولو اوردته — يوما خلائق حمدويه الأحول

وكان حمدويه الاحول عدواً لمحمد بن على القمى .

قال الصولى : حدثنى عبدالله بن الحسين وقد اجتمعا بقريقساء . قال : قلت للبحترى : احتذيت فى شعرك هذا ماحتذاه ابوتمام فى قوله :

أيقنت ان لم تثبت ان حافره — من صخر تدمر اومن وجه عثمان

وقد عيب هذا عليك . فقال : ألام على تبعى لأبى تمام إماعلمت بيتا قط حتى أخطر ببالى شعره . . وهذا يدلنا على مدى تأثر شاعرنا بأبى تمام مادام انه عندما يريد ان ينظم حتى ولوبيتا واحدا يستعرض فى ذهنه شعر استاذه ولا يرى ذلك مما يلام عليه والبحترى ساير استاذه حتى فى التأليف علاوة على الشعر فنراه يقلده فى تأليفه كتابه ((الحماسة)) فقدكان يضع اباتمام نصب عينيه كما يقولون — اما فى الشعر فقالوا انه كان يستظهر قصائده — وينقل معانيها الى اشعاره . وقد لاحظ القدماء ذلك وألفوا فيه الكتب وقد احصى ابوالضياء بشر بن تميم سرقات البحترى من معانى ابى تمام ، وقد اتفق اكثر العلماء ان ابا الضياء مغال ومجاوز ومسرف فيما ذهب اليه لأنه يرى ان مجرد الاتفاق فى المعنى اوالا تحاد فى اللفظ سرقة حتى ولوكان المعنى عاما مشتركا وكان اللفظ مباحا سائرا ويرى العلماء ان هذا هوى وتحمل من ابى الضياء ، لان السرق لايكون الافى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر .

صحيح ان البحترى تأثر بأبى تمام واخذ بعض معانيه ولكن ليست بتلك الكثرة التى ادعاها ابوالضياء وكتاب الموازنة وكتاب اخبار ابى تمام حافلة بالأمثلة على ذلك ومنها قول البحترى كما فى الموازنة :

اطلبا ثالثا سواى فأنسى — رابع العيس والدجى والبيد

الذى اخذه من قول ابى تمام :

البيد والعيس والليل التمام معا — ثلاثة ابدا يقرن فى قرن

وقول البحترى :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة — اذا انت لم تدلل عليها بحاسد

الذى اخذه من قول ابى تمام :

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود ·

وقول البحترى:

وسألت من لا يستجيب وكنت فى استخباره كمجيب من لا يسأل

الذى اخذه من قول ابى تمام :

فسواء اجابتى غير داع ودعائى بالفقر غير مجيب ·

وغير هذا كثير مرجعه الى كتابى الموازنة واخبار ابى تمام وغيرهما ولعلنى فى نهاية هذا البحث أنتب عن هذه السرقات ان شاء الله تعالى ·

يقول الباقلانى فى اعجاز القرآن مصورا تتبع البحترى لأبى تمام وتأثره به واخذه منه ((وكما يقولون ان البحترى يغير على ابى تمام اغارة ويأخذ منه صريحا واشارة ويستأنس بالاخذ منه بخلاف ما يستأنس بالاخذ من غيره ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه)) ·

ويقول الدكتور أحمد احمد البدوى ((وهذا الاخذ طبيعى لشاعر مثقف ثقافة واسعة فى الأدب ومطلع اطلاعا كبيرا على ميراث الشعراء السابقين والمعاصرين)) ·

ومع ان شاعرنا تأثر بأستاذه فلم يكثر من الوان البديع الذى ينشأ عنه تعقيد المعانى وغموضها كما فعل ابو تمام ·

والنقاد يعدون هذا عيبا على ابى تمام · وكذلك لم يورد البحترى فى شعره المعانى الدقيقة التى تتطلب غوص الفكرة ولكنه آثر وضوح المعنى كما هو لم يجعل الحكمة من اغراض شعره ولا أن ينحو نحو الفلسفة كما فعل ابو تمام لانه يؤثر السهولة والوضوح ·

أعتراف لأبى تمام بالأستاذية ·

تقدم لنا تأثر البحترى بأبى تمام ورأينا مدى هذا التأثر واتباعه لأبى تمام ، فالبحترى يرى ان ابا تمام هو الاستاذ والرئيس ويعترف بفضله ولا ينكر أنه هو الذى أخذ بيده فى عالم الشعر وفرع له ابواب الخلافة حتى اصبح البحترى شاعر الدولة العباسية عشرات السنين وقد كانت له المنزلة العالية والمكانة الرفيعة واذا اردنا ان نعرف مدى اعترافه لابى تمام بالرئاسة والأستاذية فلنستمع اليه عندما قيل له ان الناس يزعمون انك اشعر من ابى تمام فأجاب قائلا : ((والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر اباتمام ووالله ما أكلت الخبز الا به ولوددت ان الأمر كما قالوا ولكنى والله تابع له آخذ منه لائذ به ، نسيى يركد عند هزائه وأرضى تنخفض عند سمائه))

---

(١) فى بعض المصادر الخبر ·

وقال ابوبكر الصولى فى اخبار البحترى ((وسمعت ابا محمد عبد الله بن الحسن بن سعد القطربلى يقول للبحترى وقد اجتمعنا فى دار عبد الله (١) بالخلد وعنده المبرد ، ذلك فى سنة ست وسبعين ومائتين وقد انشد البحترى شعرا فى معنى قد قال ابوتمام فى مثله (انتفى هذا الشعر من ابى تمام) فقال : كلا والله ذاك الاستاذ الرئيس والله ما أكلت الخبز الا به فقال له المبرد: لله درك يا أبا الحسن فأنك تأبى الا شرفا من جميع جوانبك)) .

ومن هذا نرى كيف يعترف البحترى بأستاذية ابى تمام وفضله وقد عد الكتاب هذا الأعتراف — بالجميل من حسنات البحترى ووفائه . وسوف نلم بهذه الميزة عند التحدث عن صفات وأخلاق شاعرنا .

---

(١) ابن المعتز .

ارتحاله الى العراق واتصاله بالخلفاء ورجالات الدولة :

فى عام ٢٢٦هـ فى آخر خلافة المعتصم فكر البحترى فى الارتحال والسفر الى العراق ، مقر الخلافة والخلفاء وخاصة بغداد وسامراء . حيث كانت زاخرة بألوان الحضارة والتقدم .

وكان البحترى ذا آمال بعيدة ، ويعرف أن هناك صاحبا وصديقا له سوف يحله مكانا مناسبا وهو ابو تمام أستاذه . وقد كان سفر شاعرنا عن طريق الجزيرة ، وفى طريقه وفد على واليها مالك بن طوق كبير بنى تغلب فمدحه ، وكان نجم البحترى قد تألق فى سماء الشعر منذ اتصاله بأبى تمام الذى مهد له طريق الشهرة بحدان مهد له طريق الشعر ، وكان من الطبيعى والحالة هذه ان يتطلع البحترى الى الاتصال بالخلفاء فضلا عن الوزراء والولاة والقواد وكبار رجالات الدولة ، فقصد بغداد واتصل بشعرائها وادبائها والبارزين من الرجال ومنهم ابراهيم ابن وزير المأمون ، والحسن بن سهل وآل حميد الطوسى وخاصة أكبرهم وهو محمد بن حميد المعروف بأبى نهشل الذى نشأت بينه وبين الشاعر صلة وثيقة ومحبة أكيدة ـ وقد أكثر الشاعر من مدحه وفى هذه الصلة له ولاسرته .

أما من الوزراء فقد اتصل بأبن الزيات وزير الواثق ومن المعروف انه كانت هناك صداقة وصلة تربط اباتمام بأبن الزيات وكان البحترى يصحب اباتمام فى العراق وبخاصة فى بغداد فتوطدت الصلة بين شاعرنا وابن الزيات وزير الواثق وكان البحترى يرغب الوصول الى الواثق ولكن الراجح ان آمالهم لم تتحقق لموت الخليفة .

قضى الشاعر فى بغداد سبع سنوات يتردد خلالها على دور الكبراء والعلية من رجال الدولة ويغشى مجالسهم ومجالس الأدباء وهو بصحبة ابى تمام يحتدم الكثيرين ممن التقى بهم وينال اعطياتهم ولكن لم يلبث ابو تمام أن توفى . فبكاه البحترى ورثاه ، ولكن موت ابى تمام افسح المجال للبحترى لاينازعه فى امارة الشعر شاعر ، وبعد ذلك اتصل بعلى بن يحيى ابن المنجم نديم المتوكل فى البلاط السامرائى بعد انتقاله الى سامراء ، وكان ابن المنجم شاعرا راوية كما كان منزله كعبة الأدباء والشعراء فكان يقربهم ويقوم بايصالهم الى الأمراء والخلفاء ويستخرج لهم منهم الصلات والهبات ، وكعادته فقد وعد شاعرنا ان يوصله الى الفتح ابن خاقان وزير الخليفة المتوكل ، ولكن الانتظار طال على الشاعر حتى مل وسئم فأرسل الى على بن المنجم بقصيدة يذكره بوعده ويطلب منه ايصاله الى الفتح منها قوله :

أعلى من يأملك بعد مودة
ضيعتها منى فأنى آيس
أوعدتنى يوم الخميس وقد مضى
من بعد موعدك الخميس الخامس

فتوسط له ابن المنجم ونجح في ايصاله الى الوزير الفتح بن خاقان ، ولما دخل البحتري عليه ألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

مضى الشام بالهجران منهم وبالنوى فهل مقبل بالوصل والقرب قابله ؟

وبعد اتصال شاعرنا بالوزير نال عنده حظوة ومكانة رفيعة وأكثر من مدحه كما أستأثر بعطاياه وأهدى الشاعر الوزير كتابه ((الحماسة)) كما سوف يأتي . على ان صلته بالوزير لم تكن كل امله فالبحتري يريدها وسيلة للوصول الى الخليفة وقد تم له ذلك بفضل الفتح بعد سعي ابن المنجم وصار البحتري شاعر القصر ينشد في كل حفل ومناسبة ويسجل اعمال الخليفة ، ولعل موت استاذه ابي تمام وخلو الجوه وحاجة الملك الى شاعر يوطد اركانه ، وينافح عنه ويرفع من شأنه ، ويدون اعمال الخليفة فضلا على مايتمتع به الشاعر من شاعرية قوية خلاقة ، لعل ذلك كله هو الذي مهد للبحتري الوصول الى الخليفة وبالبث ان صار جليسه وشاعره المقدم ونديمه ، وقد كان شاعرنا ماهرا لبقا استطاع ان يجلب الخليفة اليه وقد بلغ من ملابسته له ان الخليفة يفضي اليه ببعض اسراره ومنها أن المتوكل افضى الى الشاعر بماكان بينه وبين جاريته التي تسمى (قبيحة)(١) وأمره ان يقول فيها شعرا على لسانه . وهكذا نرى الشاعر تقرب الى الخليفة ووزيره واصبح لسانهما الناطق يطري مناقبهما ويصف مايقومان به من اعمال وغيرهـــا .

جاء في اخبار البحتري للصولي : قال : حدثني يحيى بن البحتري قال : قال ابي : أول مامدحت به الفتح بن خاقان :

هب الدار ردت رجع ماأنت قائله وأبدى الجواب الربع عما تسائلـه

فأنشدته اياها في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، بعد ماقمت شهرا لاأصل الى انشاده ، وهـو مع ذلك يجري عليّ ويصلني ثم جلس جلوسا عاما وحضرت وحدي ، فرأيته يهتز عند كل بيـت جيد ، فعلمت انه يعرف الشعر ، وكان ذلك اعجب الى من جميع ماوصلني منه . وكان اول ما اهتز له حين بلغت الى قولـــي :

وقد قلت للمعلى الى المجد طرفـه دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله

والى قولـي :

صفت مثلما تصفو المدام خلالـــه ورقت كما رق النسيم شمائلـــه

فلما فرغت سره ماسمع وامرلي بخمسة آلاف درهم . وقال : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب ، فاعمل شعرا تنشده اياه اذا رجع ، فلما جاء الفطر وركب ورجع أوصلني اليه بعد ايام فدخلت وأنشدتـــه :

أبر على الأنـواء نائلك الغمـر وبنت بفخر مايشاكله فخر

(١) تسمى قبيحة من فرط جمالها وحسنها .

فلما بلغت الى قوله :

بمرت قلوب السامعين بخطبـــة هى الزهر المبثوث واللؤلؤ النثر

فقال المتوكل للفتح : هذا شاعرك ، فجعل يصفنى له ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم أخذتهـا من وقتى وخصصت بالفتح حتى كنت أشفع اليه فى الناس ثم صيرنى من جلساء المتوكل) .

وقد قضى البحترى لدى المتوكل ووزيره قرابة خمس عشرة سنة فصارت أيامه فى تلك الفترة ، أعياداً كما يقال ، ولكن الفرح والسرور لا يدوم ففى مساء أحد الايام تآمر الأتراك والمنتصر ابـــن الخليفة على قتل أبيه المتوكل ، وسبب ذلك ان المنتصر خاف من نقل ولاية العهد الى أخيـــه المعتز بدلاً منه فقتلوا المتوكل ووزيره الفتح ، وكان البحترى حاضرا مشهد قتلهما بنفسه وقيـــل إنه استطاع أن ينجو من القتلة حيث هرب من القصر (الجعفرى) ، وقيل إنه قد نال نصيبه ضربـــة فى ظهره بقيت آثارها طوال حياته حيث ثار لمايرى . فحزن البحترى حزنا شديدا على الخليفـــة ووزيره وقد رثاهما فى قصائد مبكية يقول فى مطلع احداها :

محل على القاطول أخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره

وماكان من البحترى بعد مقتل الرجلين الا أن سافر الى الحج ، ولكنه مالبث أن عاد لأنه لـــم يستطع أن يظل بعيدا عن قصر الخلافة ، وبالرغم من أنه ندد بالمنتصر فى رثاء المتوكل إلا أنه اتصل به وألقى بين يديه قصيدة يمدحه بها ، ويشيد فيها بعدله وجميل عفوه وردّه المظالم لآل علـى . ثم اتصل بعد ذلك بالخليفة المستعين ولكن الصلة لم تكن بينهما وثيقة ، ويستدل بعض الكتاب على ذلك بأن مدحه له مدة السنوات الأربع التى قضاها المستعين بالخلافة لا يتجاوز أربع قصائد وبعد المستعين يتولى الخلافة المعتز فيغمر الفتح الشاعر لأنه يحب المعتز ، وكم كان يرجو أن يتولى الخلافة . فنال الشاعر رفعة ومكانة عند الخليفة . وكذلك اتصل البحترى بالمهتدى وأشاد بورعه وتقاه ، كما اتصل بالمعتمد . كما أشاد بالموفق ولى عهد المعتمد وذكر بلاءه فى حرب صاحـب الزنج ولكنه لم يتصل به بعد توليه الخلافة . وقد اتصل البحترى بالكثيرين على اختلاف طبقاتهـم مثل الفتح بن سليمان بن وهب واسماعيل بن بلبل وأبى سعيد الثغرى وأحمد بن دينار وأحمـد بن طولون ، وابراهيم بن المدبر وغيرهم . وقد حصر كثير من الكتاب الذين اتصل بهم الشاعـــر فوجدوهم قرابة مائة رجل مابين خليفة وأمير ووزير وقائد ، وغيرهم من أصحاب المراتب العاليـة . وبعض الكتاب يذهب الى أنهم أكثر من المائة بكثير . وعلى كل فقد ظل البحترى أكثر من أربعين سنة الشاعر الرسمى للخلافة العباسية يدون أعمال الخلفاء ووزرائهم وولاتهم ومايشيد ونـــه من قصور ومنشآت كما يسجل حروبهـم ومعاركهـــم التى خاضتهـا جيوشهم مع أعدائهم

وهذه الصلة المستمرة والطويلة مع الخلفاء والوزراء والموظفين وكبار القوم في العراق اكسبته اموالا عظيمة ونعماً كثيرة حتى قيل عنه انه كان يسير في موكب من العبيد .

وفي خلافة المعتمد عاد البحتري الى الشام عودته الاخيرة واستقر بمنبج حيث أدركته الوفاة وهو في بيته في الثمانين . يقول ابن خلكان في وفيات الاعيان ((كان البحتري مقيما بالعراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان ، وله الحرمة التامة عندهما قتلا كما هو مشهور في امرهما رجع الى منبج وكان يحتاج للتردد الى الوالي بسبب مصالح أملاكـــــه ...)) .

سبب خروجه من العراق ووفاته

فى عام ٢٧٩هـ وفى آخر ايام الخليفة المعتمد غادر شاعرنا البحترى العراق نهائيا متوجها الى بلدته منبج ومسقط رأسه ليقضى فيها أيامه الأخيرة وعندما خرج من العراق — كان ينوى العودة إليه مرة أخرى ولكنه فى آخر أيام اقامته فى العراق قال أبياتا فى رثاء احد أصدقائه أبى عيسى بن صاعد . انتهزها أعداؤه ورأوها فرصة مواتية فى التشنيع بالشاعر واتهامه بالزندقة وقالوا إنه يذهب مذهب الفرس الذين يدينون بالثنوية ويرون ان هناك اليمين الها للخير والها للشر وكان للعامة كلمة فى العراق فخاف البحترى على نفسه وأمر ابنه أبا الغوث أن يخرج معه حتى تهدأ الأمور ثم يعودا . أما أبياته فمنها :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد ... لها ومتى حدثت نفسك فاصدق

ارى علل الأشياء شتى ولا أرى التـ ... ـجمع الاعلة للتفـــرق —

الى أن يقول :

ولم ار كالدنيا حليلة وامـــق ... محب متى تحسن بعينيه تطلق

تراها عيانا وهى صنعة واحـــد ... فتحسبها صنعى حكيم وأخرق

فهو وصف الدنيا بأن الذى يفكر فيها ويتأملها يراها وان كانت من صنع صانع واحد فأنه يخيل اليه ان مافيها من خلق حكيم وخلق أخرق ، مع انه يعترف أن الدنيا من صنع صانع واحد هو الله سبحانه .

وعندما شاعت هذه الأبيات وشنع عليه أعداؤه خرج الى منبج حيث توفى هناك .

يقول المرزبانى (حدثنى أحمد بن محمد بن زياد قال : سألت أبا الغوث عن السبب فى خروج أبيه عن بغداد فقال لى : كان أبى قد قال فى قصيدته التى رثى فيها أباعيسى بن صاعد — أبياتا وجد بها بعض أعدائه عليه مقالا ، فشنع عليه بأنه تنوى ودارت فى الناس وكانت العامة حينئذ غالبة ببغداد فخافهم على نفسه ، فقال لى : قم بنا يابنى حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، قال : فخرجنا وأقام فلم يعد) .

وقد ذكر أيضا الشريف المرتضى فى أماليه سبب خروج البحترى من العراق فقال ، (وقد قيل إن — السبب فى خروج البحترى عن بغداد فى آخر أيامه كان هذه الابيات لأن بعض اعدائه — شنع عليه بأنه ثنوى من حيث قال :

تراها عيانا وهى صنعة واحـــد ... فتحسبها صنعـــى لطيف وأخرق

وكانت العامة حينئذ غالبة على البلد فخاف على نفسه فقال لابنه أبى الغوث : قم يابنى — حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا فخرج ولم يعد)) .

ويروى الدكتور صالح الأشتر فى مقدمته لأخبار البحترى ان البحترى تكسب من الطولونيين /

ولكن أخبار هذا التكسب لم تنتشر كما أن الديوان لا يتضمن مدحا لهم . وفى آخر أيام البحترى اعتزل فى منبج حيث توفى فيها بمرض السكتة سنة ٢٨٦ هـ على الأرجح وهو ينا هز الثمانين من العمر .ـ

عقيدة الشاعر الدينية و السياسية :ـ

كان الشاعر البحترى قبل اتصاله بالخليفة المتوكل وعلى وجه التحديد فى زمن الخليفة الواثق يعتنق مذهب المعتزلة الذين ينسبون أفعال الانسان اليه ويقولون بالاختيار ، وخلق القرآن ولكنه بعد أن اتصل بالخليفة المتوكل تراجع عن هذا المذهب واعتنق مذهب أهل السنة الذين يؤمنون بالقضاء والقدر فنرى الشاعر يمدح الذين يحيون السنة اذ يقول فى مدح المتوكل

اسلم أمير المؤمنين لسنة أحييتها والناس حيرى ضلل

جاء فى الموشح للمرزبانى (حدثنى ابراهيم بن عبد الله الكجى قال قلت للبحترى : ويحك أتقول فى قصيدتك التى مدحت بها أبا سعيد :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

أصرت قدريا معتزليا ؟ فقال لى : كان هذا دينى فى أيام الواثق ، ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل . فقلت له : يا أبا عبادة هذا دين سوء يدور مع الدول)) .

وقد اتهم البحترى بالزندقة فى آخر أيامه بسامرا العراق كما مر معنا فى سبب خروجه من بغداد . وذلك حين قال أبياته من قصيدة يرثى بها أحد أصدقائه :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ومتى حدثت نفسك فاصدق

الى أن يقول :

ولم أر كالدنيا حليلة وامق محب متى تحسن بعينيه تطلق

تراها عيانا وهى صنعة واحد فتحسبها صنعى حكيم وأخرق

وقد سبق الكلام عن هذا فى موضعه السابق الذكر .

هذا من جهة عقيدته الدينية وأما السياسية فهواه مع بنى العباس يواليهم ويتشيع لهم ويرى أن خلافتهم حق لا ينازعهم فيه منازع ويغالى فى ذلك بحيث يذهب الى ان الذى لا يرى أحقيتهم بالخلافة غير مسلم حتى ولو اقام الشعائر الدينية فخلافتهم وراثية . يقول فى مدح المتوكل

مخالف أمركم لله عاص ومنكر حقكم لاق أثاما

وليس بمسلم من لم يقدم ولا يتكم ولو صلى وصاما

ويقول كذلك :

وأرى الخلافة وهى أعظم رتبة حقا لكم ووراثة ما تنزع

فالبحترى يغمره الفرح والسرور حينما يرى أن العباسيين يسوسون أمر الخلافة

وأن اسقاط الأمويين من مستلزماتها . ويرى أنها حق عاد الى نصابه وليس بغريب أن يذهب الشاعر هذا المذهب فللدولة العباسية كل الفضل عليه حيث نشأ في أحضانها واستقبله رجالاتها مرحبين كالخلفاء وغيرهم كآل حميد ، ومن المعروف لنا اتصال الشاعر بهؤلاء كما سبق .

أما من جهة العلويين فالشاعر وقف منهم موقف الحياد زمن المتوكل لانه يكرههم والدليل على ذلك انه كان يجالس الناصبيين الذين يكرهون علياً وآله ويسبونهم ولكن شاعرنا لم يتورط فلم يعثر على شعر قاله في هذه الفترة ، بل تذهب كتب الأدب الى أن البحتري لعله يحزن لماحل بالعلويين . ولهذا فهو يمدح المنتصر لانه رفع عنهم المظالم ورد اليهم حقوقهم ويتوسل الى الخليفة ان يقربهم بقرابتهم منه كما سوف يأتي في قصيدته في المنتصر ففيها مايدل على أن البحتري يرى أحقية على بالخلافة من بعد الرسول .

والواقع أن عقيدة البحتري دينية أوسياسية نقلية وأن دينه يدور مع الدول كما سبق .

صفاته وأخلاقه :—

ذكر أبو الفرج في الأغاني عن صفات البحتري وأخلاقه قال : (ذكر أن البحتري كان من أوسخ خلق الله ثوبا وأبخلهم على كل شئ وكان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعا . فاذا بلغ بهما الجوع أتياه يبكيان فيريهما اليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقترا ، ويقول كلا أجاع الله أكبادكما ، وأعرى أجلادكما ، وأطال اجهادكما)) .

وروى أبو مسلم محمد بن الاصبهاني الكاتب قال : دخلت على البحتري يوما ، فأحتبسني عنده مودعا بطعام له ، ودعاني اليه ، فامتنعت من أكله وكان عنده شيخ شآمي لا أعرفه فدعاه الى الطعام فتقدم ، وأكل معه اكلا عنيفا ، فغاظه ذلك ، والتفت الي ، فقال لي أتعرف هذا الشيخ ؟ فقلت : لا . قال : هذا الشيخ من بني الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة حمر اللحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أضحى جمعهم بعمان

قال : فجعل الشيخ يشتمه ، ونحن نضحك .

ونحن نرى أن أبا الفرج الاصفهاني يسوق هذين الخبرين اللذين يتضمنان صفتين غير محمودتين يتصف بهما الشاعر هما عدم نظافة ملابسه وبخله .

اما المرزباني في الموشح فيقول : (انه لم ير أقل وفاء منه ، فقد هجا أربعين رئيسا ممن مدحهم ومدح بالقصيدة الواحدة أكثر من ممدوح) .

وذكرت بعض كتبا لا داب ان البحتري مغرور بنفسه وبشعره وانه من ابغض الشعراء انشادا فقد كان عند انشاده يتمايل بخفة ويسرة ، ويتقدم ويتراجع ويقول على الحاضرين يفرض عليهم الأعجاب بشعره ويريد الثناء عليه . حتى أن الخليفة المتوكل غاظه من فعله وطلب من الصيرفي التصدي له وهجاءه .

جاء في تجريد الأغاني وغيره من كتب الأدب الخبر الآتي : (حكى ابو العنبس الصيرفي قال : كنت عند المتوكل والبحتري ينشده :

عن أي ثغر يبتسم وبأي طرف يحتكم

حتى بلغ الى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ ـمتوكل بن المعتصم
المجتدى بن المجتدى والمنعم ابن المنتقم
اسلم لدين محمد فأذا سلمت فقد سلم

وكان البحترى من أبغض الناس انشادا ميتشادق ، ويمشى تارة جانبا وتارة القهقـــرى ويهز رأســه مرة وينكبه أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله . ثم يقبل على المستمعين فيقول : مالكم لاتقولون لى احسنت هــذا والله مالا يحسن أحد أن يقــول مثله ، الى آخر الخبر حيث نجر المتوكل وطلب من الصيمرى أن يهجو البحترى . حتى غضب وجن . وذهبت بعض الكتب الى ان البحترى كان قبيح الوجه اسمر طويل اللحيــة . متقلب الهوى محب للمال حتى انه جمع ثروة طائلة عينا وعقارا . .

اما من حيث كون الشاعر وسخ الثياب فأنى أوافق الدكتور أحمد أحمد البدوى حيث ـــ استبعد ذلك ، لان البحترى يجالس الخلفاء والوزراء وكبار رجالات الدولة وهؤلاء بطبيعــة الحال ينفرون من الوساخة ، كما أن الشاعر نديم المتوكل وجليسه يضاف الى هذا ماعرف عنه انه كان لايسير الا بموكب من العبيد والقهارمة . وهذا ينفى فى الظاهر ان يكون الشاعر وسخ الملابس . وأرى انه ربما كان وسخ الثياب قبل اتصاله بالخلفاء وغيرهم لاسيما ونحن نعرف ان البحترى نشأ فقيرا . أما ان البحترى غير وفى كما ذهب اليه البعض فلا اعتقد صحة ذلك تماما لأسباب منها : ـ وفاؤه لأستاذه أبى تمام ، واعترافه له بالجميل والفضل حين سئل عند ابن المعتز أيهما أشعر هو أو أبو تمام فقال : أبو تمام هو الاستاذ الرئيس ، والله ماأكلت الخبز الا بـــه ولا ينفعنى ان يقضى الناس عليه . فلو كان شاعرنا غير وفى لرأى انه افضل من ابى تمام او على الأقل ينكر جميله خاصة وأن هناك من يفضله على استاذه . ودليل آخر على وفائه ان المتوكل قتل على مرأى منه فرثاه رثاء جميلا وبكاه بكاء مرا ولاشك ان شعره فى رثاء المتوكل يدل على ـ الوفاء الخالص خاصة وانه هجا المنتصر الذى تواطأ مع الاتراك على قتل أبيه وقد عرض نفســه للهلاك بسبب هذا الهجاء .

أما كونه يمدح شخصا ثم يهجوه فهذا العمل ليس غريبا ونحن نعرف ان البحترى يمــدح لالحب حقيقى وانما كان غرضه من المدح العطاء والاستجداء فاذا تأخر الشخص عن اعطائه فانه يهجوه ليتنبه لذلك كما ان هذا الشئ قد عمله بعض الشعراء فما بالنا نلوم البحترى وهذه عادة سار عليها شعراء التكسب كما ان البحترى عاش فى عصر يختلف كل الأختلاف عن غيره من حيث كثرة الأضطرابات والشقاق .

وأما انه يمدح فى القصيدة اكثر من ممدوح واحد فهذه صفة كان من المفروض على شاعــرنا ان يترفع عنها لاسيما وهو الشاعر المطبوع . يقول المرزبانى (ومما قبح فيه أيضا وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أنى وجدته قد نظم نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظــه منهم عليها الى مدح غيرهم ، وامات اسماء من مدحه اولا ، مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيــه) .

ويرى بعض الكتاب أن مافشا فى عصر البحترى من منازعات واضطرابات وفساد له دور كبير فى ذلك فهو يرى أن ممدوحيه بعضهم عدو لبعض، وأغلبهم لا يصلح للخلافة أو المنصب وأن اكثر الخلفاء فى وقته قتل بسيوف الأتراك أو بكيدة يد منها ولى العهد ، ولكن هذا لا ينفى الضعف عن نفس البحترى .

أما من حيث ماقيل أن البحترى قبيح الوجه فهذا ربما لا يكون صحيحا لأننا نعرف أن البحترى قد تعرض لهجاء ابن الرومى فلو كان به قبح لذكره ابن الرومى ولا سيما أن ابن الرومى قادر على إجادة الهجاء . ولكن بعض الكتاب يميل الى أنه نحيف الجسم وأن لحيته ربما كانت طويلة . وقد نوه ابن الرومى عن طول لحيته فى هجائيه له .

وأما أن الشاعر بخيل فواقع شعره ينفى ذلك بل ويدل على أنه كريم جواد اذ يقول :

من شاكرعنى الخليفة فى الذى ... أولاه من طول ومن احسان
حتى لقد أفضلت من افضاله ... ورأيت نهج الجود حيث أرانى
ملأت يداه يدى وشرد جوده ... بخلى فأفقرنى كما أغنانى
وثقت بالخلق الجميل معجلا ... منه فأطيت الذى أعطانى

وغير ذلك كثير وربما يقول قائل ان البحترى يدعى ذلك ادعاءً كاذبا ، والجواب على ذلك أن ابن الرومى لم يهجه بالبخل ، ولو كان البحترى بخيلا لاستغل الهاجى هذه الصفة وعرض بها وأمر آخر هو أن القاضى التنوخى يروى أن المعتز بعد ما استتب له الخلافة دخل عليه البحترى وأنشده اعطاه ستة آلاف دينار ، وقال له : وكأنى بك وقد بادرت فاشتريت غلاما وجارية وفرسا وفرشا فأتلفت المال فلا تفعل . فأن لك فيما تستأنفه من أيامك معينا ومع وزرائنا وأسبابنا اذا علموا موقعك منا غناء عن ذلك .

وأنا أرى أن كلام المعتز للشاعر من أكبر الأدلة على أن الشاعر لا يهمه الاحتفاظ بالمال وأنه يصرفه لشراء مايريد ، وحسبنا أن الشاعر جالس الخليفة المعتز عند المتوكل قبل مقتله وكلاهما يعرف صاحبه .

كما أن هذه الأدلة تنافى ماذهب اليه أبو الفرج الاصفانى فى بخله وتقتيره على أخيه وغلامه ولربما أنهما عاطلان لا عمل لهما ويتصفان بالبطالة وكانا يطلبان مالا يستحقان وأن الشاعر يرى أن عليهما أن يعملا ويكسبا قوتهما فلا يصبحا عالة عليه .

أما مارون عبود فهو من الذين يرون أن شاعرنا بخيل وأن البخل رأس مزاياه ، ويستدل على ذلك حيث يقول فى كتابه الرؤوس: (وهل أسلى على بخل هذا الذى يسمونه شاعر الطيف من تحسره على افلات الطيف منه ؟) . وأنا أرى أن تحسر الشاعر على افلات الطيف ليس دليلا على بخله فهو يعيش مع طيف أحبه فى عالم آخر فيحس باللذة ، والفرحة بلقاء الحبيب ولو لم يكن فى اليقظة فأذا ماانتبه لم يرحله أحدا فيحق له أن يتحسر أشد الحسرة .

واذا كان كذلك فهذا لايدل على بخل وانما يدل على وفائه لأحبته — واما هجاء البحترى للشآمى فقد يكون لشراهته اولسوء تناوله الطعام . ومن صفات البحترى الشجاعة ونحن نعرف اشتراكه فى حروب الثغرى ضد الروم وله بعض الصولات والجولات . اذ يقول :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفى بعقرقس والمشرفية شهدى (١)

والبحترى يؤمن بأن الواجب هو الجهاد والعمل وعدم التوكل ولو تجشم الانسان الصعاب — كما انه متفائل لايرى ان الشدائد تدوم وانما انجلاؤها قريب .

ومن صفاته ايضا افتخاره بآبائه واجداده وبقبيلته والفخر بشعره . فقد كان معجبا به علاوة على اعجابه بنفسه الذى يصل الى حد الغرور فى بعض الأحيان — يقول مفتخرا بشعره :

وأعلم ان السبيل مافاتكم بزور من الأقوام مثلى ولا وفد (٢)

ويقول ايضا :

وأنا الذى اوضحت غير مدافع نهج القوافى وهى رسم دارس

وسوف يأتى الكلام عن شئ من فخر البحترى عند الحديث عن اغراض شعره ان شاء الله كما اتصف الشاعر بأفراطه فى حب المال حبا عظيما والسير اليه ولو كان بعيدا ، وهذا ولاريب من العيوب التى اخذت على البحترى وان كان قد سبقه الى هذا الخلق كثير من الشعراء فقد كان من المفروض عليه عدم التهافت الشديد على المال وان يرتفع بقيمة شعره عن ذلك .

قال ابن خلكان فى وفيات الاعيان انه كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمى مات ابوه وخلفله مقدار مائة الف دينار فأنفقها على الشعراء والزوار فى سبيل الله ، فقصده البحترى من العراق . فلما وصل الى حلب قيل له : انه قد قعد فى بيته لهيون ركبته ، فاغتم البحترى لذلك غما شديدا وبعث المدحة اليه مع بعض مواليه . فلما وصلته ووقف عليها بكى ، ودعا بغلام له وقال له بع دارى . فقال له : اتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس . فقال : لابد من بيعها ، فباعها بثلاثمائة دينار واخذ صرة وربط فيها مائة دينار وانفذها الى البحترى وكتب اليه معها رقعة فيها هذه الأبيات :

لويكون الحباء حسب الذى انـ ـت لدينا به محل وأهل
لحنيت الملجين الدر واليـ ـا قوت حتوا وكان ذاك يقل
والأريب الأديب يسمح بالعـ ـذ راذا قصر الصديق المقل

---

(١) عقرقس : واد فى بلاد الروم .
(٢) الزور : السيد والرئيس

فلما وصلت الرقعة الى البحترى رد الدنانير وكتب اليه :

بأبى أنت والله للبر أهـل ... والمساعى بعد وسعيك قبل
والنوال قليل يكثر ان شا ... ء مرجيك والكثير يقـــل
غيرأننى رددت برك اذكـا ... ن ربا والربا لا يحـــل
واذا ماجزيت شعرا بشعـر ... قضى الحق والدنانير فضـل

فلما عادت الدنانير اليه حل الصرة وضم اليها خمسين دينارا اخرى وحلف أنه لا يردها عليه وسيرها . فلما وصلت الى البحترى أنشأ يقـول :

شكرتك ان الشكر للعبد نعمة ... ومن يشكر المعروف فالله زائده
لكل زمان واحد يقتدى بـــه ... وهذا زمان انت لاشك واحده

وهذا الخبر وان كان يدل على ان البحترى يقطع الفيافى القفار طلبا للمال فالانه يدل — أيضا على مايتصف به البحترى من نفس كريمـــة .

آثـار البحـــترى

ترك الشاعر لنا آثارا ثلاثة هـــى :

١ ــ الديوان : وهو ديوان شعر كبير ضم أشعارا جمة فى أغراض شتى ولكن معظمه فى المديح يتخلله غزل كثير ، ووصف لشتى الأنواع ، والرثاء وغيرها من الاغراض ويسمى ديوانه (سلاسل الذهب) وبعضهم يطلق هذا الاسم على شعره لتناسبه . طبع الديوان عام ١٣٠٠ هـ فى القسطنطينية عن مخطوطة يرجع تاريخها الى عام ٤٢٤هـ وهو مرتب حسب اسماء الأشخاص والأسر الذين قيل فيهم الشعر ثم طبع عام ١٣٢٩هـ فى القاهرة . كما طبع ايضا فى بيروت وقد جمعه قديما ابوبكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥هـ ورتبه على الحروف وكان من قبل غير مرتب ، كما جمعه ايضا على بن حمزة الاصفهانى وقد رتبه على الأنواع والموضوعات اما ابو العلاء المعرى فقد شرحه ونقده وسماه (عبث الوليد) كما أن محمد بن اسحق الزوزنى المتوفى عام ٤٦٣هـ قد قام بشرحه ايضا . وفى عام ١٩٦٣م قام الاستاذ حسن كامل الصيرفى بشرحه وتحقيقه والتعليق عليه .ــ

٢ــ كتاب الحماسة : وقد ألف الشاعر هذا الكتاب وجمعه كما يقال نزولا على رغبة الفتح ابن خاقان وزير الخليفة المتوكل وقد ضمنه اشعار نحو ستمائة شاعر اكثرهم من الجاهليين والمخضرمين وقسمه الى اربعة وسبعين ومائة باب ترجع كلها الى ثلاثة ابواب هى : الأدب والحماسة والرثاء . وقد ذهب الادباء الى ان الأبواب السبعة والعشرين الاولى تدخل تحت الحماسة . والباب الأخير للرثاء . والباقى يدخل تحت باب الأدب . ولكن البحترى ــ فصل الابواب حتى بلغت العدد المذكور . وقيل ان البحترى الف حماسته اقتداء وتأسيا بأستاذه ابى تمام والافقد كان من المفروض ان يسميها كتاب الادب لأنه الغالب عليها . بخلاف ابى تمام فقد سمى كتابه الحماسة لأن الاشعار الحماسية التى حواها هى الغالبة وقد ذهب البعض ان سبب التسمية بالحماسة يكمن فى ان اول باب من ابواب الكتاب هو باب الحماسة فناسب ان تسمى بهذا الأسم . ومهما يكن فحماسة شاعرنا البحترى تمتاز بكثرة الأبواب ــ وكثرة الأشعار التى تتعلق بالأدب والأخلاق فهى الغالبة عليها ــ كما تمتاز بغزارة المعانى وبكثرة عدد الشعراء الذين ذكروا فيها والذين يبلغون ستمائة شاعر وتمتاز ايضا بخلوها مما تنبوعنه الاسماع من الألفاظ البذيئة . ومما يدل على ذلك أن الهجاء والغزل لم يذكرا فيها . يقول بعض الكتاب (وكأن البحترى الفها لشبيبة هذه الأيام) كما تمتاز بحسن الأختيار وسلامة الذوق وبالتقسيم الذى يعطينا صورا مختلفة من الأساليب وطريقة الأداء لمعنى واحد. كما يرى بعض الأدباء أن كثرة التقسيم من المآخذ على البحترى ذلك انه أذهب بهجة عرض القصيدة كاملة وأن حطمة أبى تمام أشتهرت أكثر من حماسة البحترى لخلوها من هذه التقسيمات

الكثيرة فهي تعطينا القصيدة كاملة . وقد طبعها لويس شيخو في بيروت سنة ١٩١٠م ونشرها عن مخطوطة عثر عليها في مكتبة ليدن وقد ذيلها بالفهارس .

٣ـ كتاب معاني الشعر : وهذا الكتاب الذي الفه شاعرنا لم يصل الينا والغالب انه يضم ابياتا من عيون الشعر العربي التي عنى البحتري بشرح غامضها ، وهذا الحكم قياسا على الكتب التي وضعت في معاني الشعر مثل كتاب معاني الشعر للأشناداني .

هذه هي الآثار التي أثرت عن شاعرنا .

الفصـــــل الثـــــالث

١ـ شـــعر البحـــترى ومـــيز اتـــــــه .
٢ـ شـاعريتـه وآراء النقـــاد والأد بـــاء فيهـــا .
٣ـ نظـرة سـريعـة فى الأفـــراض التى طرقهـــا .

الفصل الثالث

شعر البحتري ومميزاته

نشأ البحتري في منبج ، وقال الشعر في تلك البلدة ، ثم ارتحل الى العراق ، وأقام هناك سنوات طويلة كان خلالها شاعر الدولة العباسية الرسمي ، ثم رحل الى منبج ، وأقام بها حتى وافاه الأجل . وبناء على هذا يمكننا ان نقول ان شعره مر بثلاثة اطوار هي :

١ — الطور الاول : وهو طور نشأته الادبية ، وأكثره في منبج على انه تجول في بعض المدن السورية كحمص وحلب ، وفي حمص التقى بأبي تمام كما سبق حيث عرض عليه شعره . ويذهب بعض الكتاب الى أنه لا يوجد بين ايدينا شعر يصور هذه المرحلة ، الا ما علم من انه كان يمدح اصحاب البصل والباذنجان .

أما هو فيخبرنا عن أول شعر قاله اذ يقول : (كنت أتعشق غلاما من اهل منبج يقال له شقران ، واتفق لي سفر فخرجت فيه ، واطالت الغيبة ، ثم عدت وقد التحى . فقلت فيه ، — وكان أول شعر قلته

نبتت لحية شقرا ... ن شقيق النفس بعدي
حلقت كيف اتتـه ... قبل أن ينجز وعـدي

٢ — الطور الثاني : طور العراق . فقد انتقل اليه — كما تقدم — وذاع صيته بفضل لقائه بأبي تمام ، وقد اتصل بالخلفاء والوزراء وكبار المسئولين فمدحهم ونال اعطياتهم ، وقد خلا له الجو لموت أبي تمام . فصار شاعر الخلفاء ، فقربوه ، وفي هذا الطور جادت شاعريته وبلغت الغاية فنظم اشعاره . ثم عاد بعد مقتل المتوكل الى بلدته منبج وفي هذه الفترة — أدى فريضة الحج . ولكنه ما لبث ان رجع الى العراق وعاد الى سالف عهده مع الخلفاء حيث بقي الى آخر حكم المعتمد ، ثم شنع عليه بالثنوية فارتحل الى منبج على امل العودة التي لم تتحقق . —

٣ — الطور الثالث : يبدأ من سنة ٢٧٩ هـ عند ما عاد عودته النهائية الى ارض وطنه حيث اقام حتى أدركته الوفاة . وقد ذكرت بعض كتب الادب انه بعد عودته الى وطنه اتصل بالطولونيين ومدحهم ، ولكن أكثر اشعار هذه الفترة الاخيرة مجهولة . ويعلل الدكتور صالح الأشتر سبب ذلك قائلا : (سبب جهلها لنا اما ان اخبار هذه الفترة لم تصل الى دمشق أو هي لم تصل العراق) ويقول (لعل الصولي — اذا قدرنا علمه بها — لم يكن قادرا على اذاعتها فدمشق آنذاك مزورة عن العراق ، والطولونيون فيها دعاة استقلال وانفصال عن الخلافة المركزية ، وكل تمجيد لخمارويه هو في حقيقته دعم لهذه الميول الانفصالية التي ينكرها العباسيون ويخوضون الحروب من اجلها ، والمعتضد كان قبل الخلافة يقود الجيش العباسي

على خماريه وأبيه ، ويرد الطولونيين عن الشام) يقول الأشتر : (هذا فيما نحسب هو سر بقاء هذه المرحلة الاخيرة من حياة البحتري مجهولة كل الجهل)(١).

هذه هي المراحل الثلاث التي مربها شعر البحتري ، والمرحلة الثانية بلاشك هي التي فاقت المرحلتين الاولى والثالثة من حيث كثرة الشعر وجودته .

وشعر الشاعر اغلبه قاله في المديح . كما سوف يأتي في الحديث عن اغراض شعره . وقد سار في اكثر اشعاره على طريقة الشعراء قبله في افتتاح القصائد بالغزل والنسيب ليتخلص مهما الى الغرض المقصود ، ويظهر هذا في قصائد المدح أكثر من غيرها . وقد كان شعره في اخر العصر العباسي الاول اشبه بالمطلع في القصيدة ، حيث تكاملت له معاني الحسن من قوة الصياغة ، ووضوح الغرض ، وجمال الجرس ، وخفة المنطق ، ونصاعة البيان ، وروعة الموسيقى . تقل فيه الهفوات والكلمات النابية المستكرهة والتراكيب الهزيلة . وقد وصفه بعضهم فقال كان شعره ارق من النسيم واعذب من السلافة للنديم متناقلته الرواة بالأكبار وكتبوه على الحرار بمداد من الثمار ، ليتهادى به المحبون ويرتوي بمائه الظامئون ، وقد خلد خلود الجمال — وبقي بقاء الحياة ، وسار مسير الشمس وذاع ذيوعها وتفتحت العيون عليه كما تتفتح على القمر يشق اطباق السحاب لينتشر نوره على الكون الهادئ الساكن ، فيبعث فيه الهوى والحب والطموح والامل والرغبة والشوق والسعادة والرضا وصفاء النفس ونشوة الفؤاد الخ ٢) .

جاء شعر البحتري فصيحا جزلا سلسا واضح الاسلوب لاغموض فيه ولا تعقيد . فقد اختار الشاعر الالفاظ المستعملة ، وابتعد عن الالفاظ الحوشية المستكرهة ، واستعمل البديع بحكمة وتصرف ، فلم يجر الغموض الى معانيه ، كما ان شعره في اغلبه موجز غير مطول لأن شاعرنا يعرف ان الاطالة من مميزات الخطابة لا الشعر يقول :

والشعر لمح تكفي اشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

ولهذا صار للبحتري طريقة خاصة به في العذوبة والفصاحة مع الجزالة ، امتازبها عن غيره من الشعراء ، وسار عليها من جاء بعده منهم ، وسميت طريقة اهل الشام ، مما جعل نقاد الأدب يشهدون لأصحاب هذه الطريقة بالتبريز لقربهم من مذهب العرب في اشعارهم ، وبعدهم عن العجمة ، فسلمت السنتهم ، ولجمعهم بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة وقد روى ان الصاحب ابن عباد كان يعجب بطريقة الشاميين التي هي طريقة البحتري ، الذي فتن معاصريه بسلاسة شعره ورنته وسهولته .

ومن مميزات شعره انه قريب المأخذ ، وان البحتري ينسج الالفاظ في مواضعها . يقول الآمدي (وليس الشعر عند اهل العلم به الاحسن التأتي ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله

(١) أخبار البحتري (٢) تاريخ الأدب العربي لابراهيم ابراشي

وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه . فأن الكلام لايكتسي البهاء والرونق الااذاكان بهذا الوصف ، وتلك طريقة البحترى(١) .

ويقول ايضا : (ان شعرالبحترى صحيح السبك حسن الديباج ، وليس فيه سفساف ولا ردىء مطرح ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا (١) .

والبحترى لايجهل قيمة شعره العالية ولذا فهو يفتخر به وبأصالته وما اجتمع له من التعقل والتجربة فى فنه الحر الذى خلا من تكلف حدود المنطق فهو لم يسأل عن الشئ مانوعه وماسببه كأهل المنطق (٢) يقول

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلمح بال ... ـمنطق مانوعه وماسببه

وشعر شاعرنا يشتمل على الوان من البديع كا لطباق والجناس ، ولكنه لم يبلغ فيهما مبلغ استاذه ابى تمام الذى غالى فى هذه الصناعة واسرف ، حتى صار كثيرمما اتى به من المعانى لايعرف ولايعلم غرضه فيها الامع الكد والفكر وطول التأمل كما يقول الآمدى (٣) .

ولعل السر فى هذا كما يقول بعض الادباء ان البحترى لم يكن محتاجا الى ان يقوم بدور الرائد المكتشف كما فعل ابوتمام ، فقد كفاه صاحبه ، والشعراء الذين سبقوه امثال مسلم ابن الوليد اوعاصروه امثال ديك الجن هذا العناء ، فلم يبق امامه الا التزيين والتحسين عن والتجويد وازالة الخشونة التى نجدها عند ابى تمام وهى التى سماها ابن رشيق (حزونة) ويرى بعض الكتاب ان شعره ينقصه التنميق العقلى والتأنق اللفظى ، وذلك لقلة ثقافته وممن ذهب هذا المذهب الدكتور شوقى ضيف فهو يرى ان البحترى يختلف عن أبى تمام من حيث صناعة الشعر وفهمه ، فقد جعله العلماء فى صف بشار وابى نواس . بينما يقف ابوتمام فى صف مسلم واضرابه ، فبلغ مذهب التصنيع عند ابى تمام غاية من التنميق العقلى والتأنق اللفظى بخلاف البحترى ولعل عدم ثقافة البحترى بالثقافات الفلسفية وغيرها لنشأته فى بيئة عربية سليمة بين قبائل طئ هو السبب فى ذلك يضاف الى ذلك كما يقول الدكتور شوقى — فهمه ان الشعر طبع وموهبة فهو على انه اتصل بأبى تمام لم يستطع ان يجاريه فى صناعته ، لان اباتمام نشأ فى المدن فهو حضرى تثقف بثقافة واسعة . اما شاعرنا فهو بدوى لايستطيع ان ينتقل دفعة واحدة من القديم الى الجديد (٤) . على ان ابن رشيق اعتبره من المصنعين — امثال مسلم وابى تمام حيث يقول عنه وعن ابى تمام : (وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى للاشياء من بعد ، ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة .

وأما البحترى فكان املح صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام ويسلك منه دماثة وسهولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ ولايظهر عليه كلفة ولا مشقة).

---

(١) الموازنة للآمدى ، (٢) بروكلمان (٣) الموازنة (٤) الفن ومذاهبه فى الشعر

والدارس لشعر الشاعرين يرى ان هناك فرقا بينهما من حيث الصنعة فمع ان البحترى تلميذ ابى تمام لم يصل الى تعقيد استاذه ، وانما نجد عنده الوانا من الجمال الحضرى الذى أخذه من ابى تمام وغيره من الشعراء كالجناس والطباق يقول :

منى وصل ومنك هجر وفى ذل وفيك كبر

البحترى شاعر فصيح جميل الشعر قال عنه ابن الاثير (أراد ان يشعر فشعر) فهناك الموسيقى الرنانة والمشاكلة بين الالفاظ والمعانى والتوافق الصوتى بين الحروف والحركات — والكلمات وشعره خال من التعقيد ، وقد اتفق العلماء على ان هذا ناشئ لنشأته فى طئ بين قومه الذين كان ينقلب بينهم و يأخذ الفصاحة عنهم فلم تطغ عليه فلسفة ، ولم يغلب عليه عمق نظر اوشك عقل اوذ بذبة تفكير ، لان سذاجة الأعراب وصراحة فطرتهم وسلامة نواياهم ووضوح أهدافهم وبساطة عيشهم وعدم التعقيد فى حياتهم من شأنه الايجعل منهم غموضا أوزيفا فى تصوير ، اوتفاهة فى منطق (١) ولعل من اعظم الميزات ان شعر البحترى يسمى سلاسل الذهب لتناسبه . وهذا يدل على ان شعره يمتاز بصفات قل ان توجد عند أغلب الشعراء فهو كما قيل : موسيقى عليم بالنغم ، عنده لون من الوان التكرار يحمده له النقاد هو التكرار — النغمى ، الذى يعلن قدرته على ابراغة التنغيم والترنم والاستمتاع بموسيقى التفعيلات واظهار الانسجام بينهما وبين لفظ البيت وكلماته المؤلفة ، ويرى بعض النقاد والأدباء أن أجود شعره المديح وبعضهم يرى ان وصفه للقصور هو الأجود .

اما مذهبه فى الشعر فعلاوة على انه سار على طريقة القدماء من الشعراء بافتتاح قصائده بالغزل وغيره فقد ترسم طريقة ابى تمام ، ومضى على اثره ، ولكنه استمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة . فأعاد للشعر بهجته وروعته وطلاوته ، حيث صارت له طريقة خاصة فى الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة ، امتاز بها عن غيره من الشعراء واصبح اماما لمن جاء بعده منهم يقول الآمدى : (البحترى اعرابى الشعر مطبوع على مذهب الاوائل ومافارق عمود الشعر (٢) . ويقول الثعالبى : (ان شعره بتابة مقعدة القوافى (٣)) . وفى الموضوع التالى — سنتناول شاعريته لنرى الى اى مدى حلق فى عالم الشعر ، وكيف حكم عليه النقاد والأدباء

---

(١) الأدب العربى / الفاخورى
(٢) الموازنة
(٣) يتيمة الدهر .

شاعريتـــه وآراء النقـاد والأدباء فيها

ولد البحترى شاعرا موهوبا ونشأ فى بيئة مساعدة على الشاعرية من حيث جمالها الحسى ومن حيث امتدادها بالقبائل العربية وأهمها طئ التى ينتمى اليها الشاعر كما كان لنشأته فى منبج وباديتها يد طولى على شاعريته وتصفية خياله فألف مالأهل البداوة من حس مرهف وتصور صادق . وقد تتلمذ على أبى تمام الذى وجهه وأعانه على نظم الشعر وسهل له وجوه اقتضابه وعمل على اشتهاره بين الناس حتى جعل النقاد يقفون مشدوهين أمام هذه العبقرية الشعرية التى جعلته يحتل منزلة رفيعة فى عالم الشعر معاجعل اباتمام يشهد له بأمارة الشعر حيث قال : (أنت والله يابنى أمير الشعراء غدا بعدى) والبحترى جدير بهذه الامارة ان صح ماقاله الآمدى فى الموازنة من أن البحترى أسقط فى أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخبرهم وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء دونهم . وقال بعض الأدباء (لم يأت بعد أبى نواس — من هو أشعر من البحترى ولا بعد البحترى من هو أطبع على قول الشعر ولا أبدع منه فى الخيال الشعرى) — والبحترى شاعر مطبوع ذهب فى أكثر اشعاره مذهب القدماء الذين جدوا فى المعانى وحافظوا فى الألفاظ والأساليب ، وعبقرية البحترى فى شعره تأتى من فطرته الموسيقية فقد استطاع ان يأتى بأعذب الألحان مما حدا ببعض الكتاب أن يقول إنه موسيقار الشعر العربى وصداحه الذى يشجى سامعيه بلغة وجدانية منقطعة النظير (١) وهذه الموهبة الشعرية عند البحترى تأتى من حيث دقة اختياره للكلمات وتأليفها فعباراتها خالية من النبو والشذوذ بل تشتمل على التناسق والتوافق وفيها كما يقول بعض الكتاب روح البحترى الذى عاش حياة كلها رغد وهناءة وسكب ذلك فى شعره فغدا أكثره مفرحا مشرقا كالشمس الطالعة فى يوم صحو جميل فمافات البحترى من الفلسفة والدقة فى استخدام وسائل البديع الحضارية عوضه بهذه الفطرة الموسيقية الرائعة التى تؤهله أن يكون صاحب سبك وصياغة فى لغتنا العربية والقدماء يقولون (أراد أن يشعر فغنى) . كما قيل ديباجة بحترية ، ولعل هذه الموهبة الشعرية كامنة فى البحترى منذ الصغر يقول شوقى ضيف (وفى اخباره — مايدل على ان ملكته الادبية تفتحت فى سن مبكرة) واذا عرفنا ان شاعرنا ظل الشاعر الرسمى للدولة العباسية عشرات السنين جزمنا انه لم ينل هذا المنصب الالقوة شاعريته وبراعتها وبفضل شاعريته الفذة فشعره يعتبر ديوانا لاعمال بنى العباس وماشيدوا من قصور وما قاموا — به من حروب ، واذا كان شعراء القرن الثالث الهجرى يتصفون بالجودة فالبحترى اشعرهم . كما يدل على شاعرية شاعرنا ماورد فى وفيات الأعيان (قال ميمون بن هارون رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذرى المؤرخ وحاله متماسكة فسألته فقال : كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال : لست أقبل الا من قال مثل قول البحترى

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر

فـي المتوكل :

فلوأن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لمشى اليك المنبر

يقول ابن خلكان معلقاً على هذا بقوله (هذا الشعر هوالسحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع فلله دره ما اسلس قياده واعذب الفاظه واحسن سبكه ، والطف مقاصده فليس فيه من الحشو شئ بل جميعه نخب). وشاعرية شاعرنا لم تقف عند هذا الحد .

فالقاضي الجرجاني يقول في وساطته تحت عنوان السهل الممتنع من شعر البحتري ((ومتى اردت ان تعرف ذلك عيانا وتستثبته مواجهة فتعرف فرق مابين المصنوع والمطبوع وفضل مابين السمح المنقاد والعصي المستكره فاعمد الى شعر البحتري)) .

ويقول معلقا على بعض اشعاره (انظر هل تجد معنى مبتذلا ولفظا مشتهرا مستعملا ، وهل ترى صنعة وابداعا اوتدقيقا أواغرابا ثم تأمل كيف تجد نفسك عند انشاده وتفقد مايتداخلك من الارتياح ويستخفك من الطرب اذا سمعته)) .

لاشك ان هذه شهادات من النقاد القدماء ومن الأدباء المحدثين على ان البحتري رزق شاعرية قوية لها منزلتها العالية التي يتطامن دونها كثير من الشعراء المعاصرين له وغيرهم ولهذا نرى بعضهم يفضله حتى على استاذه ابي تمام. قال عبد الله بن الحسن: سألت المبرد عن أبي تمام والبحتري أيهما اشعر ؟ فقال : لأبي تمام استخراجات لطيفة ومعان ظريفة ـ وشعر البحتري احسن استواء من شعره لأن البحتري يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن الطاعن (١) . والرقة والسلاسة واللطف وعدم الاخلال بالمنهج الفصيح في تعقيد الكلام من صفات شعر شاعرنا يقول صاحب المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها ((والبحتري شاعر اللطف والرقة غير مدافع ... وان صح أن يوصف عنترة بأنه رقيق أصحاب المعلقات فالبحتري رقيق الشعراء المحدثين جميعهم وأطبعهم واسلسهم من غير خروج عن مذهب المتانة في السبك واتباع المنهج الفصيح في تعقيد الكلام و لكلامه رنين قل أن تجد نظيره عند غيره من الشعراء ، نعم رنان تنساب معه الالفاظ انسيابا فأذا عنت الصورة الجميلة أو الخاطر الشعري الرائع وافانا ذلك كالبرق الخاطف حتى تكاد تسأل نفسك أصدق هذا أم انا مسحور ؟ ولن نجد شاعرا يفتن كما يفتن البحتري في استقلال الثلاثيات من الكلمات واستعمال المصادر المنونة وألفات المد ، وحروف الأشباع كل ذلك في سلاسة وخفة ورشاقة وما أبدع ماقال عنه ابن الأثير إنه أراد أن يشعر فغنى)) .

هكذا فتن البحتري معاصريه وقارئي شعره برنته وسهولته وسلاسته ، وأعتقد ان شعره لم يسم بسلاسل الذهب الا لما يتصف به من شاعرية خلاقة جعلته في الطبقة العليا. ولعل مما يؤيد هذا

(١) نزهة الأبصار جزء (٥)

أبو العلاء المعرى عندما سئل عن الثلاثة ابى تمام والبحترى والمتنبى ايهم اشعر حكم بأن اباتمام والمتنبى حكيمان وانما الذى يتصف بالشاعرية هو البحترى وهذا يدل دلالة اكيدة ان بعده عن التعقيد والتعمق فى الفلسفة جعل شعره فصيحا كأنه سيل ينحدر الى الاسماع لهذا حكم عليه بأنه الشاعر الحقيقى . قال بعضهم (ولنشأته البدوية ابتعد فى شعره عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم فكان شعره كله بديع المعنى حسن الديباجة صقيل اللفظ سلس الأسلوب كأنه سيل ينحدر الى الاسماع .. ولسهولة شعره ورقته كان اكثر الاصوات التى يتغنى بها فى زمنه من شعره) وابن رشيق يرى ان البحترى يصنع الابتداء سهلا ويأتى به عفوا وكان كلما تمادى قوى كلامه (١) اما ابن الاثير فيقول (ان مكانه من الشعراء لايجهل وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة لينا مسها خشنا سنانها . وهو على الحقيقة قينة الشعراء فى الأطراب وعنقاؤهم فى الأغراب) .. ان هذه الشاعرية المغنية هى التى جعلت النقاد يحكمون بأنه لم يأت بعد ابى نواس من هو اشعر من شاعرنا . فلقد اتى البحترى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه الى الافهام كما يقول ابن الاثير فى المثل السائر . وشاعرية البحترى ومنزلته بين الشعراء معروفة لكل اديب وناقد فلقد اتى بقصائد فريدة قل ان يأتى بها اكثر الشعراء فاعتبرت من عيون الشعر العربى وهذا الصولى كاتب اخبار البحترى يقول: (سمعت عبدالله بن المعتز يقول لولم يكن للبحترى الاقصيدته السينية فى وصف ايوان كسرى فليس للعرب سينية مثلها ، وقصيدته فى البركة ميلوا الى الدار من ليلى نحييها . واعتذاراته فى قصائده الى الفتح التى ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها وقصيدته فى دينار بن عبدالله التى وصف فيها مالم يصفه أحد قبله اولها : ألم ترتغليس الربيع المبكر . ووصف حرب المراكب فى البحر لكان اشعر الناس فى زمانه فكيف اذا اضيف الى هذا صفاء مدحه ورقة تشبيهه) ..

لاشك ان هذه القصائد وغيرها كثير ، تنم عن شاعرية البحترى التى اعترف بها كل منصف والتى بسببها استطاع الشاعر ان يتسنم قمة الابداع فى حسن التعبير عن معانيه بوضوح وجمال فبدت وكأنها كما يقول ابن الاثير نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى)) اما الآمدى فى الموازنة فله احكام كثيرة على هذا الشاعر وشاعريته . يقول : (البحترى اعرابى الشعر مطبوع على مذهب الاوائل مفارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشى الكلام) كما يقول عند المفاضلة بينه وبين ابى تمام: (فأن كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ فالبحترى أشعر).

---

(١) العمدة ١/ ٢٠٤

أن من يرجع الى ديوان شاعرنا فيدرسه يجد فيه هذه الصفات والميزات التى ذكرها النقاد وذلك لما فى شعره من الدماثة والسهولة وصوغ الالفاظ وطلاوة السبك ورشاقة الوصف وقلة الأغراب يقول ابوالفرج عنه : (شاعر فصيح حسن المذهب نقى الكلام مطبوع كان مشايخنا رحمهم الله يختمون به الشعراء) حقا لقد خلق البحترى شاعرا بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى فقد رزق نفسا شفافة كما يقولون فطرت على الاحساس المرهف الدقيق ، وامتاز بخيال صاف صقلته البادية وأكسبته جلاء ثم صبغته الحاضرة بألوانها واصباغها الزاهية وتوفرت على ذوق سليم سلامته سليقية فأدرك اسرار الموسيقى الفنية ادراكا طبيعيا يميز الاصوات الناشزة من الاصوات المتناغمة من غير عناء كما رزق التأليف بين الاصوات ، وان كان الشعر بنفوذ النظر ودقة الملاحظة وصدق الحس . وتنبه الفكرة والعاطفة وروعة البيان فالبحترى هو الشاعر حقا (١) البحترى كما يقول حنا الفاخورى يمثل الشاعر الجاهلى الفطرى فى عهد الثقافة العربية فهو يأبى الأن يطلق نفسه على سجيتها لاينحرف بها عن مجراها الطبيعى للتقيد بسنن اوقوانين ولايكلفها التعمق لافى التفكير المنطقى الذى اتخذه بعض معاصريه مذهبا للشعر ولافى تعقيدات البديع الذى جعل منه آخرون علما ذا اصول وانما يرى ان الشعر لمح للاشياء خاطف والاشارة عنها ببيان بليغ . والحضارة التى عاشها الشاعر لابد ان تترك اثرا فى البحترى الان ذلك الاثر قد عالجه فى عينه دون عقله كما يقال — فكان كل مااخذه الشاعر من عصره ميله الى الزخرف وشغفه ببهاء الالوان الزاهية ، ولاتصاف البحترى بهذه الشاعرية النادرة تبوأ مكانة رفيعة بين شعراء العربية لأن مذهبه الشعرى والنهج الذى اتبعه فى نظم قريضه مذهب سديد واذا كان الشعر هو لسان العاطفة والمعبر عن الوجدان والمستخدم للخيال فى تصوير مايجيش فى النفس من انفعالات واحساسات فليس بغريب ان يعتبر من المطبوعين على مذهب الاوائل ولم يفارق عمود الشعر . يضاف الى ذلك انه يعتبر استاذاً للشعراء فى تجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام وغريب الاستعارات (٢) .

ويكفينا دليل على شاعريته ماقاله الأمدى فى موازنته (أن أبا عبادة أسقط فى أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخبرهم وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء دونهم) . ولو بحثنا عن أسباب هذه الشاعرية الفذة التى اتصف بها شاعرنا لوجدنا ها تمكن فى أمور كثيرة اتفق عليها الكتاب منها : —

(١) انحداره من اصل عربى خالص فأعمامه واخواله من العرب الخلص .

(٢) شبابه وترعرعه فى بيئة شاعرية طبعته بين بدائع الطبيعة ومشاهدها الخلابة كما جمع فى نشأته بين مزايا البداوة والحضارة وخالط البدو الضاربين على مشارف منبج واعراب طى ،

---

(١) تاريخ الادب العربى حنا الفاخورى
(٢) المرجع السابق .

الضاربين على ضفاف الفرات فأخذ وتلقن العربية من معينها الصافى .

(٣) يضاف الى هذا انه تلميذ ابى تمام فقد استفاد منه ودرج على منواله فى الاساليب الواضحة والمعانى التى لم يسبق اليها وابتعد عن أساليبه المعقدة الغامضة والملتوية .

(٤) ابتعاده عن الفلسفة وعدم سيره على مذهب اهل الحضر فبعد شعره عن الفلسفة والتعقيد وخلا منهما فجاء حسن الديباجة مصقول اللفظ سلس الأسلوب .

(٥) انفساح المجالات له واتساعها بعد وفاة أبى تمام وعدم وجود منافس له قرابة خمسين عاما .

(٦) وجوده سوقا نافقة لشعره كمجالس الخلفاء والامراء والوزراء الذين يكرمونه ويجزلون له العطايا والهبات .

(٧) انه رزق سلامة الطبع وصفاء النفس ودقة الحس والموهبة الفطرية التى نالت اعجاب معاصريه ومن اتى بعدهم مما جعلهم يقرون له بالمكانة اللائقة والمنزلة العالية بين شعراء العربية ولقد صدق من قال : (لأبى تمام والبحترى من المحاسن مالوقيس بأكثر شعر الاوائل ماوجد فيه مثله).

أغـراض شعـــــــــره

نظـرة سريعة فى الأغراض التى طـرقهـا

لقد تطرقنا فيما سبق الى شاعرية البحترى وعرفنا براعته وجودة شعره ، فلقد ضم الديوان بين دفتيه اشعارا كثيرة وانتاجا ضخما يدل على شاعرية قوية ثجتاجة وخيال واسع وشاعرنا من الشعراء الذين قالوا الشعر فى جميع الاغراض تقريبا ، وبرزوا فى اكثرها ، وليس هذا بغريب على شاعر كأبى عبادة ، فلقد جرى على النسق الذى جرى عليه اسلافه فقال الشعر فى المدح والوصف والفخر والغزل والاستعطاف والعتاب والهجاء والاعتذار والرثاء وغيرها ، ولاغرابـــة ان يطرق البحترى كل هذه الاغراض وقد عاش فى عصر توفرت له فيه دواعى الانشاد - فالعصـر عصر العمران والحضارة والتقدم العلمى ، والشاعر شاعر الخلفاء المقرب - عاش فى ظلال القصور يغدق عليه العطاء بدون حساب ومنة ، فوجد جواً مناسباً فانبثقت شاعريته وجادت بالشعر الجزل السلس الفصيح . تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها المرأة فى شعر البحترى (كان البحترى ابن عصره فى شعره فشعره من مزايا العصر المصقولة فيه دور وقصور وجنات ، وفى شعره اخبار واحداث وفى شعره سياسة ، فهو يؤيد حينا ويمدح ، ويعارض حينا ويقدح ، مدح كثيرا وهجا . وقام بمهمة الشاعر فى عصره ، والبحترى ابن عصره فى اسلوبه فقصيده مرقيق الحواشى اخضر الالفاظ وكأنه معرض لحضارة عصره بقصورها وخلاها وريا نهما والبركة المشهورة. شعره ابن عصره عصر تنقل الشعراء من ممدوح الى ممدوح ، ومن بلد الى بلد ، فقصيده ايضـا وصاف رحلات ، وسجل امكنة وبلدان ، شاعر طرق كل فنون الشعر المعروفة فى عصره) -

نعم لقد جال شاعرنا فى كل غرض وبرز فى الكثير على الشعراء وان كان البعض يرى انـه لم يكثر فى قليل من هذه الاغراض كالهجاء كما سوف يأتى -

وسنمر مرورا سريعا بهذه الاغراض لنفرغ الى الغرض المقصود من هذا البحث وهو الوصف -

١ — المـــدح

وهو من الأغراض التى خدمها الشعراء ، فجالوا وصالوا فيها ، وقد يندر ان يترك هذا الغرض شاعر ولكن الشعراء يختلفون قوة وضعفا . فالمدح وسيلة الرزق عند بعضهم حيث اخذوا يتكسبون بأشعارهم بل قد عرف كثير من شعراء التكسب سموا عبيد المال ، كما ان الخلفاء — واصحاب المناصب العالية اتخذوا لهم شعراء خاصين يمدحونهم ويسجلون اعمالهم نظير ما يدفعونه للشعراء. وشاعرنا البحترى من الشعراء الذين طرقوا هذا الباب واكثروا فيه بل ان — المدح من حيث الكثرة يحتل المرتبة الاولى من شعره وديوانه شاهد بذلك ناطق به ، والمدح

وجد عند البحترى من اول نشأته حين بدأ يقرض الشعر حيث ذهبت كتب الأدب الى انه كان يمدح اصحاب البصل والباذنجان ، وبعد سفره الى العراق وجد مكانا خصبا للمديح ، فاتصل اول امره بالوزراء والقواد وعلية القوم ثم ارتفع الى الخلفاء فصار شاعرهم طوال سنوات طويلة ومن — المعروف انه اتصل بستة اوسبعة خلفاء وما يقارب المائة رجل على اختلاف مناصبهم . فمدح هؤلاء وربح اموالا طائلة جعلته يسير فى هذا الطريق وقد كان لبقا فى مدحهم فقد كان يمدح كل من يتصل به بصفاته الخاصة التى تميزه عن غيره كما انه لا يطنب فى مدح الخلفاء خاصة — لمعرفته انهم يسأمون ويملون من طول القصائد . والخليفة المتوكل من ممدوحى الشاعر حيث — مدحه بقصائد كثيرة منها قصيدته الرائية المشهورة والتى مطلعها ..

أخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر ... وألام فى كمد عليك واعذر

ويقول منها :

الله مكن للخليفة جعفـــــر ... ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلـــه ... والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم امير المؤمنين ولا تـــزل ... تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقـــى ... فيها المقل على الغنى والمكثر
بالبر صمت وأنت افضل صائـــم ... وبسنة الهادى الرضية تفطـــر

الى آخر هذه القصيدة التى تعتبر من القصائد الرائعة ..

ولقد حظى المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان بالشطر الاكبر من مدائح الشاعر . فالبحتري يمدح الفتح : —

بلونا غرائب من قد نـــرى ... فما ان وجدنا لفتـــح ضريبـــا
هو المرء ابدت له الحـــادثا ... تعزما وشيكا ورأيا صليبـــا
تنقل فى خلقـــى سؤدد ... سماحا مرجى وبأسا مهيبـــا
فكا لسيف ان جئته صارخـــا ... وكا لبحر ان جئته مستثيبـــا

فتى كرم الله اخـلاقـه وألبسه الحمد بردا قشيبـا

كما مدح البحترى المنتصر وكان الخليفة مغضبا على الشاعر قبل وصوله الى العرش ولكـن البحترى استطاع ان يتحايل عليه ويرضيه واتخذ سبيلا الى ذلك ماكان للمنتصر من رد المظالم العلويين وغير ذلك . ومدح ايضا المستعين عندما قتل تامش الوزير وشجاعا الكاتب وهما تركيان كانا يظلمان الناس فمدحه واعتبره مخلص الدولة من الأضطرابات والفتن . كما مدح المعتز ابن المتوكل لتقواه وصلاحه وهجره الملاهى والملذات وآخر من مدحهم الشاعر من الخلفـاء العباسيين هو المعتمد الذى تولى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة . ولكن البحترى بعد موت المعتمد سافر الى منبج وعاش ثلاث سنوات لم يعرف انه مدح احدا الا ما تقدم من اتصالـه بالطولونيين وهذه الفترة التى التقى فيها الشاعر بالخلفاء مدح اثناءها خلقا كثيرا كآل حميد الطوسى وآل وهب وبلغ ممدوحوه عددا كبيرا لا مجال للتحدث عن قصائده فيهم فى هذا المقام

٢ — الهـجـاء

ويقابل المدح الهجاء ، فلقد طرق شاعرنا الهجاء ، فذهب الاصبهانى الى ان هجاءه قليل يقول : (وله تصرف فى ضروب الشعر سوى الهجاء فان بضاعته فيه نزرة وجيده فيه قليل) كما يذهب ايضا الى ان اكثر هجائه ساقط ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ، ولا يعرف له هجاء جيد الا قصيدتين احداهما فى ابن ابى رقاش والثانية فى يعقوب بن الفرج .

اما المرزبانى فى المرشح فينسب سوء العهد وخبث الطريقة فى الهجاء الى البحترى — يقول : (وكثير من اهل الادب ينكر خبث لسان على بن العباس الرومى ويضربون عن اضافة البحترى اليه والحاقه به مع احسان ابن الرومى فى اساءته وقصور البحترى عن مداه فيه "وانه لم يبلغ فى دقة معانيه وجودة الفاظه وبدائع اختراعاته ماعنى الهجاء خاصة) .

ويقول ايضا ابوالفرج الاصبهانى فى ايراد خبر ينقله عن الاخفش عن ابى الغوث ابن الشاعر ان اباه لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال له : اجمع كل شئ قلته فى الهجاء ففعل فأمره — بأحراقه ثم قال له : يابنى هذا شئ قلته فى وقت فشفيت منه غيظى وكافأت به قبيحا فعل بى وقد انقضى اربى فى ذلك وان بقى روى ، وللناس اعقاب يورثونهم العداوة والمودة فأخشى ان يعود عليك من هذا شئ فى نفسك او معاشك لا فائدة لك فيه . قال : فعلمت انه نصحـنى واشفق على فأحرقته وقد ذكر بعضهم انه هجا نحوا من اربعين ممن مدحهم ومن بينهـم خليفتان واذا صح هذا فشاعرنا هجـاء ، ولكنه لا يصل فى الهجاء الى درجة ابن الرومى ودعبل الخزاعى . ومن مميزات البحترى فى هجائه انه كان يجمع فى القصيدة الواحدة بين — هجاء شخص ومدح آخر كما ورد فى قصيدته النونية التى مدح بها أباعيسى بن صاعـد

وهجا بها ابن البريدى أيضا والتى مطلعهـــا :

ماجو " خبت " وان نأت ظعنـــه تاركنا أو تشوقنا دمنـــــه

كما كان يتقلب مع الشخص الواحد بين الهجاء والمدح كأشعاره فى آل ثوابة . ويـــرى بعض الكتاب أن القارئ لشعر البحترى فى الهجاء يلمس فيه ظاهرتين قويتين : احداهما : قصـــر نفسه فيه حيث أن اكثر أهاجيه مقطوعات قصيرة وأن المعانى التى تحتوى عليها قليلـــة . والثانية : صراحة هجائه فهو يدعو من يهجوه كلبا حينا ، وحمارا حينا آخر ، ومن المعروف أن الهجاء الجيد هو الذى يسمو عن هذه المعانى الى التهكم والسخرية والاستهزاء ، ولنستمع اليه يهجو عبد الرحيم بن أبى قماش وقد كان يتصابى ويتودد النساء على كبر ســـنه وقبح خلقـــــه :

أنت من قد علمت ضـــارب الميـــ ـــئة والقد ظاهـــر الجلاف ،
والسن قد بينت فنـــــاءك فـــى شـــدق على ما ضفيك منخسف
وجه لعين القسيمين يقطعـــــه أنف طويـــل محـــدد الطـــرف
ورنـــة تحت غنـــــــة قذرت من هالك المرء ذامـــر الألـــف
كأن فى فيه لقمـــــــة علقت لسانه فالتوى عـــلى جلـــف
تناصبـــر النوك والركاكـــة فـــى مخبل الانحنـــــــاء والحذف
وأعرضت ظلمة الخضاب عـــــلى عثنون تيس باللسوم منعقـــف
محـــرك رأســـه توهمـــــــه قد قـــام من عباسة على شـــرف
ســـماجة فى العيون فاحشـــــة خلفت فى جلفمـــا أبا خـــلف
تروم وصل المهـــا وأنت كـــذا هذا لعمرى ضرب من الخـــرف

ولا يخفى مافى هـــذه الأبيـــات من السخرية والاستهزاء المقذعين .

والبحترى يبغض مهاجاة الشعراء ، فهو يبتعد عن ذلك بقدر مايستطيع لخوفـــه . وهو يرى أن السبب فى ذلك أنه لايريد أن يخلد لأســـرته عارا يصمها به مـــدى الدهر ، ويعترف بذلك صـــراحة اذ يقول :

وأجبن عن تعريض عرضى لجاهـــل وان كنت فى الإقدام أطعن فى الصـــف
وانى لئيم إن تركت لأســـرتـــى أوابـــد تبقى فى القراطيس والصحف

ويرى أيضا أن السبب فى محاولته الابتعاد عن الهجاء لأنه لايريد أن يشتهر به ولا يجعله صناعة له ، ولعله وجد أن الشعراء الذين اشتهروا بالهجاء فى عصره كدعبل وابن الرومى عاشوا بعيدين عن نيل السعادة والحظوة أما هو فقد ظفر فى شعره بالسعادة والمال فماله يعرض نفسه لحيـــاة ملؤهـــا الرغبة فى ايجـــاع الناس . كما يقول الدكتور البدوى .

فيقول البحترى

ولست منبرياً بالجهل أجعله　　صناعة ماوجدت الحلم يكفينى

ويقول ابن رشيق فى العمدة : (هجاابن الرومى البحترى — وابن الرومى من علمت — فأهدى اليه البحترى تخت متاع وكيس دراهم فكتب اليه ببيتين ليريه أن الهدية ليست تقية ولكن رأفة عليه وأنه لم يحمله على مافعل الا الفقر والحسد المفرط) .

والقارئ لاخبار الشاعر يلمح انه لايستطيع الصمود امام من يهجوه ، بل يأخذه الخوف والذعر فلا يستطيع المقاومة والمقارعة ولعل مما يدل على ذلك القصة التى حصلت مع الصيمرى فى مجلس المتوكل حيث ان البحترى كان يتشادق ويتزاور عند انشاده ويهز رأسه وغير ذلك — فسئم المتوكل منه وطلب من الصيمرى ان يهجوه وعندما هجاه ماكان منه الا ان لاذ بالفرار من المجلس حتى ان الصيمرى صار يجرى خلفه . ومن شدة غضبه وخوفه فقد أراد أن يذهب الى الشام . هذه القصة تدل على ان البحترى لوكان يجيد الهجاء لما ترك الصيمرى يهزأ به ويهجوه بحضرة المتوكل فلقد كان من المفروض على البحترى ان يكيل له الصاع صاعين خاصة وان الصيمرى تعرض لأم البحترى وأخته واتهمهما باتهامات شائنة ، فأين شاعرنا الذى لايريد ان يصم اسرته بعار فى الحياة ؟ .

يقول الصيمرى

يابن المباحة فى الورى　　أمن العفاف ام التهم

اذ رحل اختك للعجم　　وفراشامك فى الظلم

وبعض الكتاب ينكر هذه القصة ويعتبرها مدسوسة .

وعلى كل فباع البحترى قصير فى الهجاء ، امامن حيث كثرته فقصة احراق هجائه توحى بأن هجاءه كثير والا لماكان يؤبه له وكذلك كثرة من هجاهم .

٣ — الفخر

كان لنسب البحترى الخالص العروبة أثر كبير فى فخره فهو يفتخر بأبوته وبقبيلته طئ كما يفخر بنسبه من جهة امه ، ولكنه كثيرا مايتعصب لأبوته كما افتخر بنفسه وبشعره وله بضاعة جيدة فى الفخر ، على ان اكثر شعره فى الفخر كان فى مكارم قومه وعشيرته يرفع من مكانتهم ويبرز صفاتهم ويعدد مناقبهم ويذكر شرف اليمن وعزها مقابلا ذلك بخشونة عرب الشمال وسوء حالهم ، على ان كثيرا من قصائد الشاعر فى المدح لاتخلو من الفخر . وقد ذهب أكثر الأدباء الى ان اظهر قصائده فى الفخر اثنتان . مطلع الاولى :

أحبب الىّ بطيف سعدى الآتى　　وطروقه فى أعجب الأوقات

أني اهتديت لمحرمين تصوبوا لسفوح مكة من ربى عرفات

وفي هذه القصيدة يفاخر بما وصل اليه من رفعة وما احتل من مكانة ومجد وقد قالها بعد ان تجاوز الاربعين ويقول محقق الديوان حسن كامل الصيرفي انه نظمها اثناء حجه عام ٢٤٧هـ بعد مصرع المتوكل .

والقصيدة الثانى مطلعها :

انما الغى ان تكون رشيدا فانقصا من ملامة اوفزيدا

خلياه وجدة اللهو مادا م رداء الشباب غضا جديدا

وقد ذهب محقق الديوان ان الشاعر نظمها سنة ٢٢٠هـ . وقد تضمنت هذه القصيدة تمجيد طيئ وهذا التمجيد يدور حول اربع صفات هي البأس وما يتبعه من شجاعة ونجدة ، وكذلك الكرم ورجاحة العقول ، وكثرة العدد ، وهذه الصفات الأربع هي الصفات التي يفتخر بها العربي منذ اقدم العصور . فالبحتري في القصيدة يرى ان طيئ سبقت الى المجد والشرف ويفتخر بأفعال هذه القبيلة ويبالغ حتى يرى ان حلوم قومه امسكت الارض من ان تميد بالناس ولم يقتصر على ذلك بل جعل اهل الحجاز عبيداً لقومه واما قومه فهم قوم الشريف وقد قارعوا العمالين من الأمم السابقة وهذا مما يدل على قوتهم وبأسهم في الحروب وانهم من قوتهم صاروا حجارة اوحديدا . يقول :

ذهبت طيئ بسابقة المجـ ـد على العالمين بأسا وجودا

معشر أمسكت حلومهم الأر ض وكادت من عزمهم أن تميدا

نزلوا كاهل الحجاز فأنحى لهم ساكنوه طرا عبيدا

منزلا قارعوا عليه العمالي ق وعادا من عزها وثمودا

ان قومي قوم الشريف قديما وحديثا ابوة وجدودا

يحسن الذكر عنهم والأحادي ث اذا حدث الحديث الحديدا

فهم قوم تبع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا

نحن ابناء يعرب أعرب النا س لسانا وانضر الناس عودا

وكأن الأله قال لنا في الحر ب كونوا حجارة اوحديدا

كما أن البحتري يفتخر كثيرا بوطنه الاول (الشام) وان كان وطنه الثاني (العراق) أثر فيه من تلك الناحية حتى كاد ينسيه ايساه .

٤ — الغـــزل

لقد نظم شاعرنا فى هذا الغرض ، واتصف غزله بالجودة واللطف والرقـة والحلاوة التى تجعله محببا الى نفوس السامعين ولقد اجاد البحترى فى هذا الغرض وساعده على ذلك ما اتصف بـــه من صفاء الفظرة الذى سهل الفاظه وجعل اساليبه سلسة ، ثم نشأته نشأة بدويـــة ساعدته على ذلك . لقد احب البحترى علوة بنت زريقة الحلبية فكانت شغله الشاغل وحديثه المستمـــر وحبه الاول وكما يقال (الشعراء صناديق مغلقة مفاتيحها عند النساء) فتعلق قلب البحترى — بها وهو فى ميعة شبابه فتغزل بها ويمتاز غزله هذا بالصدق والشعور الحقيقى ففيه حرارة — وعاطفة متوثبة مؤثـرة غاية فى الرقـة ، وفيه جمال ساحر فى الوصف . فوقف جزءاً من شعـره يتغزل بهذه الخادة الفاتنة حتى بعد ان فارقها الى العراق ولقد صور كثيرا من عـــواطـف الحب فى غزله . يقول :

كم ليلة بت فيك أسهـرهـا	ولوعـة من هواك اضمرهـــا
وحرقـة والدمـوع تطفئهـا	ثم يعود الجوى فيسعـرهـا
يا علـوعل الزمان يعقبنـا	ايام وصل نظل نشـكرهـــا
بيضاء رود الشباب قد غمست	فى خجل دائب يعصفـرهـا
مجدولة هزهـا الصبا فشجا	قلبك مسموعهـا ومنظرهـــا

ويقـول :

بيضاء يعطيك القضيب قوامها	ويريك عينيها الغزال الأحور
تمشى فتحكم فى القلوب بدلها	وتميس فى ظل الشباب وتخطر

ويقول ايضـــا :

ذات حسن لو استزادت من الـ	ـحسن اليه لما أصابت مزيدا
فهى الشمس بهجة والقضيب الغـ	ـض لينا والريم طرفا وجيـــــدا

يقول بعضهم فى غزل البحترى (أما الغزل فهو ذلك الغرض الذى رق فيه حتى ذاب وفنى فيه حتى اشرف على الفناء فاجاد فيـه حتى صار أوحد زمانه لأن علوة بنت زريقة الحلبية تفتح لها قلبه وطرب لها فؤاده وتعلق بها خاطره وسعدت بها نفسه . وصار وقفا عليها خاطـــره فلا يقوله تقليدا ولا ينظمه للتسلية انما يستجيب لوجدانه ويلبى احاسيسه ومشاعره) .

وقد جاء البحترى فى غزله بأوصاف كثيرة لما يتعرض المحب من صد وهجران وفراق وألم النـوى والرحيل والمشيب الذى ينفر الغوانى ويبعد هن وقد ضمن غزله كيف يتغانى المحب فى حبيبـه وكيف ان الحبيب فى نظر من يحبه اجمل مخلوق يراه ، وكيف يتذلل المحب لحبيبه ويستعطفـــه

ويستهويه وصبره على مايلاقيه من عذل ولوم الى غير ذلك من عواطف واحساسات.ومن المعروف ان اكثرهذه المعانى سبقه اليها الشعراء ولكن الذى اشتهر به شاعرنا هو ذكر طيف الحبيب حتى ضرب به المثل بين الأدباء والنقاد وسمى شاعر الطيف كما سيأتـــى .

ومن المعروف ان الغزل بالمذكر من الأغراض التى استجدت فى هذا العصر ، ولقد جرى شاعرنا على هذه العادة القبيحة الشائعة بين الشعراء ولكنه لم يكثر منه كما أن غزله بالمذكـر لم يصل الى حد من الفحش كما عرف عند بعض الشعراء ، وقد ذكر ابوالفرج فى الأغـانـــى ان للبحترى غلاما اسمه نسيم جعله بابا من ابواب الحيل على الناس، فأذا حصل فى ملك بعض اهل المروءات شبب به وتشوقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، وكان هذا دأبه حتى مات نسيم وكفى الناس شره ، وجاء فى تجريد الاغانى ان البحترى كتب الى محمد بن على بن القاسم يستهديه نبيذا فبعث اليه بنبيذ مع غلام أمرد فجشمه البحترى فغضب الغلام غضبا شديدا علم منـــه البحترى انه سيخبر مولاه بماجرى فكتب اليه :

ابا جعفر كان تجشيمنا	غلامك احدى الهنات الدنية
بعثت الينا بشمس المدام	تضئ لنا مع شمس البريـــــة
فليت الهدية كان الرسو	ل وليت الرسول الينا الهديـة

فبعث اليه محمد بن على بالغلام هـدية :

ومما عيب على البحترى انه لايحسن التخلص من الغزل والنسيب الذى يفتتح به قصائده . يقول ابن الأثير المثل السائر : (انه لم يوفق فى التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبـــه اقتضابا ولقد حفظت شعره فلم اجد له من ذلك شيئا مرضيا الا اليسير) .

ويقول الباقلانى فى اعجاز القرآن (الاترى ان كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند — التنقل من معنى الى غيره ، والخروج من باب الى سواه ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقـــوا على تقصير البحترى — مع جودة نظمه وحسن وصفه — فى الخروج من النسيب الى المديح) .

٥ — الرثـــاء

نظم البحترى شعرا جيدا فى هذا الغرض اجاد فيه اجادة فائقة . فلقد رثى جماعة من كبار رجالات الدولة العباسية كالمتوكل ووزيره الفتح علاوة على رثائه لقومه وغلامه وأودع هذه القصائد عاطفة حزينة وسكب الدموع على المرثى وقد ذهب بعض العلماء الى أن أجود غرض قال فيه البحترى بعد المدح هو الرثـاء . وشاعرنا نفسه أجابنا عن السبب اذ يقول : إن من تمام الوفاء أن تفضل المراثى المدائح وعلى كل فأن شاعرنا شاعر مجيد عند مايصور عواطفه الحزينة ومن اقوى قصائده فى الرثاء ماقاله باكيا الخليفة المتوكل فقد بكى عليه بكاء مرا تظهر فيه عاطفته الصادقة تجاه هذا الخليفة والاعتراف بفضله . فقد قرب الشاعر كما نعرف واتخذه منادما لـه بل وشاعرا رسميا كما ان البحترى شهد مقتل المتوكل ووزيره الفتح فرثاهما أبقى رثاء على مـا كان يتعرض له بذلك من عقاب يقول من قصيدة فى رثائهما :

محل على القاطول اخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشا تغاديه

الـى ان يقـول :

صريح تقاضاه السيوف حشاشـــة ... يجود بها والموت حمر اظافـره

حرام على الراح بعدك اوارى ... دما بدم يجرى على الاثر مائره

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر ... هرقتم وجنح الليل سود دياجره

وقد وصف ابو العباس ثعلب هذه المرثية بقوله (مالقيت هاشمية احسن مثلها ، وقد صرح بها تصريح من اذهلته المصائب عن تخوف العواقـــب) .

والبحترى لم يخرج فى رثائه عن الطريقة المألوفة ، كما انه اتخذه شعرا رسميا فى بعض المراقف وجرى فيه على تعظيم الفاجعة بتعداد مناقب المرثى فى اسلوب فخم جليل ، ومن بين الذين حظوا بمراثيه بنو حميد حيث بلغت قصائد رثائهم غاية الروعة الفنية . والبحترى — عند مايرثى يذرف الدموع على الميت ويسجل ما امتازبه من خلال انسانية رفيعة فيجمع فى الرثاء بين البكاء والتسجيل كما يقول الدكتور البدوى .

والبحترى مع جودة رثائه لم يصل الـى درجـة ابـى تمـام ، فقد يسـف احيانـا — الـى درجـة الغثاثـة والاسفاف . كقصيدته التى قالها يعزى ابا نهشـل محمد بن حميـد الطوسى فى فقد ابنتـه كما يقول المقـدسـى .

٦ ـ العتاب والأعتذار

لقد اشتهر البحترى فى الادب العربى بحلاوة العتاب فله فيه اليد الطولى ، وقد ابدى فيه من الحذق والمهارة الشىء الكثير ، ولذلك لقبه ابن رشيق بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة ، فهو يرى ان البحترى احسن الناس طريقة فى العتاب ، وقد ذهب بعض الكتاب المحدثين الى ان عتابه يتصف بنعومة حريرية ورقة ولطف يجعله مقبولا لدى النفوس، وقد وصف البحترى نفسه عتابه فقال :

عتاب بأطراف القوافى كأنه ... طعان بأطراف القنا المتكسر
فأجلوبه وجه الاخاء واجتلى ... حياء كصبغ الأرجوان المعصفر

فهو يقول ان عتابه كا لطعن بأطراف القنا المتكسر يؤلم ويميت .

ومن شعره فى معاتبة الخليفة المتوكل قوله :

هل يجلبن الىّ عطفك موقف ... ثبت لديك اقول فيه وتسمع
مازال لى من حسن رأيك موئل ... آوى اليه من الخطوب وفزع
فعلام انكرت الصديق وأقبلت ... نحوى ركاب الكاشحين تطلع
وأقام يطمع فى تهضم جانبى ... من لم يكن من قبل فيه يطمع
الا يكن ذنب فعد لك واسع ... أوكان لى ذنب فعفوك اوسع

والبحترى يحتل منزلة عاليه فى العصر العباسى خاصة عند الخلفاء وهذه المنزلة جعلته هدفا للحسد من قبل المنافسين له . فقد كانوا يدسون له ويشون به عند من يتصل بهم وكثيرا مايحدث هذا القطيعة بين الشاعر وبين من يقربه ، فيلجأ الى الشعر لأزالتها وايضاح الأمر على حقيقته .

واذا كان البحترى اتخذ المدح فى اكثر الاحيان للتكسب فقد اتخذ بعض معاتباته لهذا السبب ايضا لينبه ممدوحيه الى تأخرهم فى العطاء اوتقصيرهم فيه وقد اخرج هذا العتاب مخرج السياسة التى تقرن فيها الرقة واللطف الى المؤاخذة . والنعومة وخفة الروح الى التأنيب والتهديد . ولذ كان عتابه واعتذاره للوزير الفتح لا يقل روعة وكثرة عما كان للنابغة فى النعمان ابن المنذر . يقول البحترى يعاتب الفتح ويستعطفه :

اكذب ظنى بأن قد سخطت ... وماكنت اعهد ظنى كذوبا
ولولم تكن ساخطا لم اكن ... اذم الزمان واشكو الخطوبا
ولوكنت اعرف ذنبا لما ... كان خافى لجنى الشك فى ان اتوبا
سأصبر حتى ألاقى رضا ... كما بعيدا وما قريبا

أراقب رأيك حتى يصـــح وانظر عقلك حتى يثـــوبا

يقول عبد الله بن المعتز : (واعتذاراته فى قصائده الى الفتح بن خاقان ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلـــها) .

٧ — الحكمـة

عندما سئل المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن شاعرنا البحترى قال : (أنا وأبوتمام حكيمان والشاعر البحترى) . والنقاد والادباء بدورهم يوافقون أبا الطيب فى قوله هذا . فالبحترى لم يشتهر بالحكمة كما اشتهر بأغراض الشعر الاخرى . ومع هذا فشعره لم يخل من الحكمة يقتبسها من مشاهداته فى الحياة ، ومايمر به من احداث اومن معانى ماسمعه أورواه او حفظه ، فهو لم يأت فى حكمه بأبداع ولم يكلف نفسه معالجة الفلسفة . والغوص على المعانى بل اقتصر على المعانى القريبة الشائعة فأكثر حكمه التى قالها قد سبقه اليها الأقدمون .

ومن حكمه قوله من قصيدة يمدح بها صاعد بن مخلد حيث افتتحها بالنسيب وثنى بالحكمة .ـ

متى تسترد فضلا من العمر تغترف بسجليك من شهد الخطوب وصابهـا
تشذ بنا الدنيا بأحفل سعيهـــا وغول الأفاعى بلة من لعابـــها
يسر بعمران الديار مضللـــل وعمرانها مستأنف من خـــرابـها
ولم ارتض الدنيـا اوان مجيئـهـا فكيف ارتضائيها اوان ذهابهـا

ومن حكمه قوله فى فضل الفتى

ابا جعفر ليس فضـــل الفـتى اذا راح فى فـرط اعـجابـــه
ولا فـى فراهـة بـرذونـــه ولافـــى نظافـــة اثـوابـــه

ومن حكمـــه :

واعلم بأن الغيث ليس بنـافـــع للنـاس مالـم يأت فـى ابانـه

ويقـــول :

واعذر حسودك فيما قد خصصت به ان العلا حسن فى مثلها الحسد

وبعد فهذه جولة سريعة فى بعض الأغراض التى طرقها البحترى ، وانى معترف بأننى اشرت اليها اشارات خاطفة وماذلك الا لأن الوصف هو الغرض المقصود من هذا البحـــث ولطوله فلاشك انه يحتاج الى وقفة طويلة . ارجو من الله العلى القدير ان يعينى لألقى بعض الأضواء على هذا الجانب من شعر هذا الشاعر الذى اشتهر بهذا الغرض والذى اصبح فى بعض جوانبه استاذا لمن جاء بعده من شعراء الوصـــف .

الباب الثاني

الوصف في شعر البحتري

الفصل الأول:

١ ـ تطور الوصف في الشعر العربي الى عصر الشاعر.

٢ ـ وصف ايوان كسرى بالمدائن.

الباب الثاني :
الوصف في شعر البحتري
الفصل الأول

تمهيد : الوصف وتطوره في الشعر العربي الى عصر الشاعر :

الوصف : تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية . وقد فسر العرب الوصف بأنه الكشف والاظهار ، فاذا قالوا وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نم عليه ، ولم يستره فهو في عرفهم ذكر الشئ بما فيه من الأحوال والهيئات وقد نظر النقاد الى ما قيل في الطبيعة فرأوا أن الشعر يكشف عنها ويرسم حالها ويصور هيئتها فسموا هذا بشعر الطبيعة حينا ، وبشعر الوصف حينا آخر . والطبيعة ميدان خيال الشاعر ومثار تأملاته ومهوى تصوراته ، فمنذ قيام العبقرية في الدنيا سعى الفنان الى الطبيعة في اعجاب وحب فرأى جمالها وانتشى بمحاسنها ، واتخذها مثلا يحتذيه ، ويصوره بالألوان والصور ، ورسم هذه الطبيعة بخياله وفنه ، فلقد وصف الشعراء كل ما وقعت عليه أعينهم من شتى ألوان البيئة التي عاشوا فيها ، ومظاهر الحياة التي ألفوها في بيئتهم ، فرافق الوصف الانسان منذ اطلالته على الدنيا . ولكن الوصف في الشعر يختلف باختلاف العصور التي عاش فيها الشعراء .

ففي العصر الجاهلي لم يكن أمام أنظار الشعراء الا البيئة المحدودة الضيقة فوصفوها بمادتها المحدودة ، ووصفوا الصحراء الواسعة المترامية الأطراف والحيوانات كالناقة والفرس ، والحمار الوحشي والذئاب ومظاهر الطبيعة من برق ورياح ومطر . كما وصفوا الاطلال والليل والنجوم وغير ذلك .

ولما كان من دعائم الوصف الاستقرار والتأمل ، فلقد كثرت الاضطرابات في عصر بني أمية ووجدت الأحزاب مما جعل الشعر ينزع نحو المنزع السياسي فضعفت الحالات الوجدانية في وصفهم لانصرافه الى النهج الالتزامي القائم على عقيدة أو سياسة ، والقائم على الحجج والبراهين لا على التصوير الخالص ، وأثر كبير في خمود الشعر الوصفي في العصر هو شيوع النقائض بين شعراء الأحزاب ، فبدلا من أن ينعكس على شعر الامويين واقع حضارتهم ، انعكس ماضي تاريخهم بما فيه من ألوان جاهلية ، فمع أن العصر الأموي عصر الفتوح والغنى والامتزاج بين القبائل والشعوب والأديان ، فان الامويين لم يتمثلوا الحضارة ويكتسبوا فضائلها بل اقتبسوها وتمتعوا بنعيمها الخارجي دون أن تؤثر تأثيرا جذريا عميقا في تطوير طبائع نفوسهم ، حيث كانوا أقرب الى الجاهليين في أوصافهم ولكن مظاهر التجديد التي تحتت حجارتها في عصر بني أمية ارتفع بناؤها في العصر العباسي ، حيث انصرف الشعراء عن القديم الى أحضان الحضارة الفارسية الجديدة فأجاد الشعراء العباسيون في فن الوصف اجادة بالغة ، لأن منابعه الحسية والمعنوية لم تكن محدودة كما كانت من قبل ، فقد تجلت في العصر العباسي مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة والعمران ، والحياة الجديدة ، فمن قصور شماء الى رياض فناء ومن ألحان المغنيات الى سجع البلابل والحمام ، ومن ثياب تفضي اليها النجوم بالأسرار الى نوافير تأرها في السماء ومن موكب الأزهار في بواكير الربيع الى مواكب الخلفاء في المواسم والأعياد . وهذه المواسم والأعياد كانت من قبل هذا

العصر تعودون احتفاء بها واستعداد لها ، ولكنها أصبحت موضع الاحتفال والاجلال في هذا العصر ، وأصبح الخلفاء يعدون لها العدة ، ويحتفلون بها احتفالات رسمية ، فينظمون المواكب والمسيرات التي تطوف في العواصم والأمصار ، فتقلم الزينات وتقرع الطبول ، وتصهل الخيول . أما دور الشعراء في هذه المناسبات فهو دور المصورين في عصرنا الحاضر ، يسجلون ويصورون هذه المظاهر ، ولعل أقرب مثال على هذا وصف شاعرنا البحتري لموكب المتوكل حين خرج الى المسجد للصلاة في أحد أعياد الفطر كما سوف يأتي .

واذا كان هذا العصر يختلف عن العصرين السالفين لما بلغته الدولة العباسية من تقدم وحضارة ، فلقد كان لشعرائه الأسبقية في وصف مالم يصفه من سبقهم من الشعراء ، حيث انفرد شعراء هذا العصر بالبكاء على الممالك الزائلة ، ووصف المعارك الحربية البحرية . كما سنرى عند شاعرنا .

وقد درج الأدباء والنقاد على تقسيم الوصف الى أقسام منها : الحسي والخيالي . فالحسي : هو الذي يتناول المحسوسات فيصورها بصور رائعة فالشاعر يأخذ المرئيات التي أمامه فيرسمها كما يراها ويشاهدها ، فهم الشاعر اكتشاف التشابه التي تشخص بين مشهدين مختلفين ، وهذا النوع من الوصف هو المرحلة الأولى من مراحل الوصف ، وهو محاولة التجسيد الظاهرة كما تبدو للحواس . وهذا مثل وصف المدن والقصور والحيوانات وغيرها ، وقد أجاد العرب في هذا النوع من الوصف .

وأما الوصف الخيالي فهو النظر الى ماوراء المحسوسات والشاعر الذي يتصف بسعة الخيال لايقف عند ما يراه بل يتعداه الى ايجاد أشياء يفتحها خياله أمامه بحيث يجعل المرئيات أساسا لغير المرئيات ، ويولد من المحسوسات صورا مجردة يرسمها للناس تأملات وذكريات . وهذا النوع من الوصف لم يهتم به الشعراء القدماء ، ولم يتركوا لنا من آثارهم فيه الا النزر اليسير . وسنرى هذا النوع في وصف البحتري لايوان كسرى .

ومن هذا العرض الموجز نرى كيف كان الوصف في العصر الجاهلي والأموي والعباسي ، فمن بيت الشعر في الجاهلي الى القصور الشامخة في العباسي ، ومن الناقة الى السفينة التي تخر عباب البحر ، ومن الصحراء المجدبة الى الرياض الغناء والأزهار بورودها ورياحينها وأشكالها المتعددة ، الى غير ذلك مما طرقه العباسيون ولم يطرقه من قبلهم . وان كنت لم أتعرض في هذه العجالة للوصف في العصر الاسلامي فما ذلك الا لأن الشعر في هذا العصر له خصائصه التي تختلف عن غيره من العصور . وشاعرنا البحتري طرق في أوصافه نوعي الوصف حسي وخيالي وان كان الى الحسي أميل ، فلقد عرف بأوصافه البارعة ، وافتتانه في هذا الغرض ، لذا اعتبر زعيم شعراء الوصف في العصر العباسي وان نازعه في ذلك ابن الرومي على خلاف في المنزع كما يقال . كما اعتبر استاذا لمن أتى بعده من الشعراء في هذا الفن فقد

سحرته الطبيعة بجمالها والحضارة الجديدة بألوانها وأشكالها ، فوصف الحدائق الغناء والمروج الخضراء والسحب الماطرة والأزهار الناظرة ، والربيع الباسم وما أبدعته يد الانسان من قصور ودور وبرك ، فأبدع في وصفه ، ولم يقف عند المظاهر الحضرية بل صور البادية بذئابها وآسادها ، كما رسم وصفا لكثير من الحيوانات ، وأتى بما لم يسبق اليه فبكى الممالك الزائلة الدارسة ، ولا غرابة أن يجيد شاعرنا في هذا الغرض مادام الوصف أوسع الفنون الأدبية ، بل مادام كثير من الأغراض يدخل تحت هذا الباب كما قال ابن رشيق: "ان الشعر الا أقله راجع الى باب الوصف " .

وبعد فلنرافق شاعرنا في شعره الوصفي ، لنرى أنواعه ، والمدى الذي بلغه في هذا الغرض . ولنبدأ في وصفه لايوان كسرى .

وصف ايوان كسرى بالمدائن

قال البحترى "١)

١- صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس (٢)
٢- وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ـر التماسا لتعسى ونكسى
٣- بلغ من صبابة العيش عندى طففتها الأيام تطفيف بخس (٣)
٤- وبعيد مابين وارد رفه علل شربه ووارد خمس (٤)
٥- وكأن الزمان أصبح محمو لا هواه مع الأخس الأخس
٦- واشترائى العراق خطة فبن بعد بيعى الشآم بيعة وكس
٧- لا ترزنى مزاولا لاختبارى عند هذه البلوى فتنكر مسى (٥)
٨- وقديما عهدتنى ذا هنات آبيات على الدنيات شمس (٦)
٩- ولقد رابنى نبو ابن عمى بعد لين من جانبيه وأنس (٧)
١٠- واذا ماجفيت كنت جديرا أن أرى فيرمصبح حيث أمسى
١١- حضرت رحلى الهموم فوجهـ ـت الى أبيض المدائن عنسى
١٢- أتسلى عن الحظوظ وآسى لعل من آل ساسان درس
١٣- أذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى
١٤- وهم خافضون فى ظل عال مشرف يحسر العيون ويخسى
١٥- مغلق بابه على جبل القبـ ـق الى دارتى خلاط ومكس (٨)

"١" الديوان ٢/ ١١٥٢
"٢" الجبس: الجبان واللئيم والفاسق.
"٣" البلغ: جمع بلغة وهو مايتبلغ به من العيش.
"٤" وارد رفه: الوارد: الذى يرد الماء متى شاء. والرفه من العيش: الطيب اللين. العلل: ورود الماء ثانية. الخمس من أظماء الابل، وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الماء فى الرابع لتشرب فى الخامس.
"٥" لا ترزنى: رازه: جربه. مزاولا: محاولا.
"٦" الهنات: جمع هناة أى داهية والمراد صعبة ذات شماس ومراس. آبيات: ممتنعات شمس: عنيدة لا تذل.
"٧" ابن عمى: يقصد به عيدون بن مخلد (الراهب) وقيل: الخليفة المتوكل.
"٨" القبق: جبل يسمى الآن جبال القوقاز. خلاط ومكس: مدينتان.

١٦- حلل لم تكن كأطلال سعدى ... في قفار من اليباس طمس
١٧- ومساع لولا المحاباة منى ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس
١٨- نقل الدهر عهدهن عن الجد ... ة حتى فدون أنضاء لبس
١٩- فكأن الجرماز من عدم الأنـ ... ـس واخلاقه بنية رمس (١)
٢٠- لو تراه علمت أن الليالي ... جعلت فيه مأتما بعد عرس
٢١- وهو ينبيك عن عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس (٢)
٢٢- فاذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ارتعت بين روم وفرس
٢٣- والمنايا مواثل وأنو شر ... وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (٣)
٢٤- في اخضرار من اللباس على أصـ ... ـفر يختال في صبيغة ورس
٢٥- وعراك الرجال بين يديه ... في خفوت منهم وافماض جرس (٤)
٢٦- من مشيح يهوى بعامل رمح ... ومليح من السنان بترس (٥)
٢٧- تصف العين أنهم جد أحيا ... ء لهم بينهم اشارة خرس
٢٨- يقتلى فيهم ارتيابي حتى ... تتقراهم يداى بلمس (٦)
٢٩- قد سقانى ولم يصر أبو الغو ... ث على العسكرين شربة خلس (٧)
٣٠- من مدام تقولها وهى نجم ... أضوأ الليل أو مجاجة شمس (٨)
٣١- وتراها اذا أجدت سرورا ... وارتياحا للشارب المتحسى (٩)
٣٢- أفرغت في الزجاج من كل قلب ... فهى محبوبة الى كل نفس
٣٣- وتوهمت أن كسرى أبرويـ ... ـز معاطى والبلهبذ أنسى (١٠)
٣٤- حلم مطبق على الشك عينى ... أم أمان فسيرن ظنى وحدسى (١١)

"١" الجرماز: بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما. اخلاقه: بلاه.
"٢" لا يشاب: لا يخلط. اللبس: الاختلاط والاشكال وعدم الوضوح.
"٣" مواثل: قائمات. يزجى: يسوق. الدرفس: راية الفرس.
"٤" الخفوت: السكوت. الجرس: الصوت أو خفيه.
"٥" المشيح: المقبل بحذر وجد. عامل الرمح: صدره. الطليح: المعاذر خوفا. السنان: نصل الرمح.
"٦" يقتلى: يتعاظم. تتقراهم: تتبعهم.
"٧" لم يضرد: لم يقلل. أبو الغوث: ابن البحترى واسمه "يحيى". خلس: اختلاس.
"٨" مجاجة الشمس: شعاعها.
"٩" أجدت: أحدثت وجددت. المتحسى: المتجرع جرعة بعد جرعة.
"١٠" كسرى أبرويز: حفيد كسرى انو شروان. معاطى: يعاطيه الشراب يعنى يشاربه. البلهبذ: من كبار المغنين عند الفرس.
"١١" الحدس: التوهم.

٣٥ـ وكأن الايوان من عجب الصـ ـنعة جوب في جنب أرعن جلس (١)
٣٦ـ يتظنى من الكآبة أن يبـ ـدو لعيني مصبح أو ممسي
٣٧ـ مزعجا بالفراق من أنس الف عز أو مرهقا بتطليق عرس
٣٨ـ عكست حظه الليالي وبات الـ ـمشتري فيه وهو كوكب نحس
٣٩ـ فهو يبدي تجلدا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي (٢)
٤٠ـ لم يعبه أن بز من بسط الديـ ـباج واستل من ستور الدمقس
٤١ـ مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقدس (٣)
٤٢ـ لابسات من البياض فما تبـ ـصر منها الا فلائل برس (٤)
٤٣ـ ليس يدري أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لا نس
٤٤ـ غير أني أراه يشهد أن لـ ـيك بانيه في الملوك بنكس (٥)
٤٥ـ فكأني أرى المراتب والقو م اذا ما بلغت آخر حسي
٤٦ـ وكأن الفود ضاحين حسري من وقوف خلف الزحام وخنس (٦)
٤٧ـ وكأن القيان وسط المقاصيـ ـر يرجعن بين حو ولعس (٧)
٤٨ـ وكأن اللقاء أول من أمـ ـس ووشك الفراق أول أمس
٤٩ـ وكأن الذي يريد اتباعا طامع في لحوقهم صبح خمس
٥٠ـ عمرت للسرور دهرا فصارت للتعزي رباعهم والتأسي
٥١ـ فلها أن أعينها بدموع موقفات على الصبابة حبس
٥٢ـ ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
٥٣ـ غير نعمى لأهلها عند أهلي فرسوا من زكائها خير فرس
٥٤ـ أيدوا ملكا وشدوا قواه بكماة تحت السنور حمس (٨)
٥٥ـ وأعانوا على كتائب أريا ط بطعن على النحور ودعس (٩)
٥٦ـ وأراني من بعد أكلف بالأشـ ـراف طرا من كل سنخ وإس (١٠)

"١" الجوب: الخرق. الارعن: الجبل ذو الرعن، وهو أنف يتقدم الجبل. الجلس: الجبل العالي.
"٢" الكلكل: الصدر. مرسي: ثابت.
"٣" مشمخر: طويل عال. رضوى: جبل بالمدينة المنورة. قدس: جبل بنجد.
"٤" فلائل: جمع فلالة: وهي الشعر المجتمع. البرس: القطن.
"٥" النكس: المقصر عن غاية النجدة والكرم، أو الرجل الضعيف.
"٦" ضاحين: [illegible]. خنس: متأخرين.
"٧" يرجعن: يرددن الصوت بالغناء. حو: جمع حواء وهي السمرة. الشفه. لعس: جمع لعساء وهي الجارية التي بها لعس وهو سواد مستحسن في الشفة.
"٨" السنور: كل سلاح من حديد. حمس: شجعان. "٩" أرياط: القائد الحبشي الذي غزا اليمن. الدعس: الدوس والطعن. "١٠" السنخ: الأصل والمنبت. والاس: أصل كل شيء.

ايوان كسرى :

ذكر ياقوت الحموى ايوان كسرى فى مادة "الأبيض" وقال عنه انه : " قصر الأكاسرة بالمدائن ، كان من عجائب الدنيا ، ولم يزل قائما الى أيام المكتفى فى حدود سنة " ٢٩٠ هـ فانه نقض وبنى بشرفاته أساس التاج الذى بدار الخلافة " . كما ذكره فى مادة "الايوان وقال : " ايوان كسرى الذى بالمدائن ، مدائن كسرى ، زعموا أنه تعاون على بنائه عدة ملوك" . كما ذكر ياقوت أنه رآه وقد بقى منه طاق الايوان حسب . وهو مبنى بآجر طول كل آجرة قرابة ذراع فى عرض أقل من شبر . ويعرف فى هذا الوقت باسم "طاق كسرى" كما تسمى الناحية الموجود بها " ناحية سلمان باك" باسم سلمان الفارسى الصحابى المشهور . وهى على مسافة ثلاثين كيلو متر من مدينة بغداد جنوبا . وكان هذا الايوان مضرب الأمثال عند العرب .

سمع شاعرنا البحترى بهذا الايوان وماله من شهرة فى ذلك الوقت فذهب اليه بصحبة ابنه أبى الغوث ، وطاف بأركانه ، واستلم أحجاره ، ووصف قصور الفرس الدارسة وتاريخهم وعظمتهم . وقد اختلف فى تاريخ نظم هذه القصيدة ، فذهب بعض المحققين الى أن البحترى نظمها بعد مقتل المتوكل مباشرة ، ومن المعروف أن المتوكل قتل عام ٢٤٧ هـ . ويرى محقق الديوان حسن كامل الصيرفى أن هذه القصيدة نظمت عام ٢٧٠ هـ ويدلل على ذلك بأن البحترى لم يتوجه الى ايوان كسرى عقب مقتل المتوكل بل توجه الى الحجاز للحج ، وعاد من حجه ليمدح الخليفة المنتصر .

مناسبة القصيدة وسبب نظمها :

لم يذكر الرواة سببا واضحا لنظم هذه القصيدة ولكن الشاعر ضمن قصيدته علتين لذلك :

الأولى : فى أول القصيدة وهى هربه وفراره من الهموم والاحزان ، لاستبداله العراق بالشام ، ولنبو ابن عمه وجفاه اياه مما جعله يلجأ الى بقايا الايوان يتناسى الهموم ، ونلاحظ هذه العلة فى الأبيات الأربعة الأول .

والثانية : يذكرها فى نهاية القصيدة حيث بكى الايوان وليست الدار داره ولا الجنس جنسه ، وما ذلك الا لأن لأهله نعمى عند أهله حين أيدوا أهل بلاده عندما أغار الأحباش على اليمن حيث انتصر كسرى لهما فهو يرثى دولة الفرس ، ومجدها الزائل ، وهذا فى أبياته الستة الأخيرة

وبعض الرواة والنقاد يرى أن السبب الحقيقى لتشاؤم البحترى وسفره انما يكمن فى مقتل الخليفة المتوكل ، ووزيره الفتح بن خاقان ، وهذا بعيد لأننا لانجد أى تلميح الى ذلك فى القصيدة .

تقسيم أبيات القصيدة :

هذه القصيدة تتكون من ستة وخمسين بيتا . عشرة فى ذكر حال الشاعر وشكواه . وستة فى السبب التاريخى لوقوفه على هذا الايوان . وستة فى ذكر عظمة الفرس . وستة فى ذكر أحوال خاصة . والباقى فى وصف الايوان .

عرض القصيدة

مقدمتها : قصد الشاعر ايوان كسرى يرافقه ابنه أبو الغوث ، فوصفه متحسرا على أيام الفرس ، وكأنه يأسى لما صارت اليه الأمور ، حين أمسك الأتراك بزمام الحكم وأبعدوا الخلفاء ونكلوا بهم . وقد قدم لوصفه هذا الايوان بمقدمة بدأها بالتبرم والشكوى وتصوير حاله أمام حوادث الزمن وقد راحت تضربه بعنف لتزعزعه ولكنه تماسك و تجلد على كثير من الألم والمرارة ، وذم الدهر الذى انقلبت عنده المقاييس فارتفع فيه اللئيم ، وانخفض الكريم . وصور حالة الضيم والفقر التى انتابته وماحركته الأيام فيه من صبابة ، وماحقه من فبن حين باع الشام واشترى العراق . وكيف رابه نبو ابن عمه ، وجفوته اياه بعد أن كان لين الجانب . فيفزع شاعرنا الى طلول الايوان ينسى فى أكنافها حزنه ويثه ويستودعها أساه وشجاه اذ يقول :

صنت نفسى عما يدنس نفسى ... وترفعت عن جدا كل جبس
وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ... ـر التماسا لتته لتعسى ونكسى
بلغ من صبابة العيش عندى ... طففتها الأيام تطفيف بخس
وبعيد مابين وارد رفه ... ـه علل شربه ووارد خمس
واشترائى العراق خطة فبن ... بعد بيعى الشآم بيعة وكس
ولقد رابنى نبو ابن عمى ... بعد لين من جانبيه وأنس

وصف الايوان :

وبعد هذه المقدمة ينتقل الشاعر الى وصف الايوان فيرى أن الهموم لما حضرت رحله توجه الى أبيض المدائن ممتطيا ظهر ناقته القوية ، ليتسلى وينسى ماحل به ، ففي عرس مصيبته على مصائب قل ساسان ما يخفف عنه وطأة الحزن ، فهو يعرف كيف آلت حالهم بعد مجد وعنفوان . ويقف أمام هذا المكان الدارس الذي يحزن من يراه حين يتذكر بناته وساكنيه وينظر الى ارتفاعه فيراه لارتفاعه يضعف العيون اذا نظرت اليه تتبين ارتفاعه وعلوه ، وهو لاتساعه وكثرة مافيه من جوار وخدم وحاشية كأنه مقفل على جبال وبلاد اشتهرت بتعداد أممها وأجناسها :

حضرت رحلي الهموم فوجهـ ـت الى أبيض المدائن عنسي
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
أذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وهم حافظون في ظل عال مشرف يحسر العيون ويخسى
مغلق بابه على جبل القبـ ـق الى دارتي خلاط ومكس

ثم يعرّج الشاعر بسكان القفار من الأعراب الذين يسكنون البسابس الخالية المقفرة ، ويذكر أن بناة هذا القصر اتصفوا بالكرم وأنه رغم نبعته العربية مفتون ومغرم بحضارة الفرس وهو مع هذا لايريد اثارة الأحقاد حيث ما يلمح الى الفوارق القائمة بين العرب والفرس ، ولكنه يظهر أثر الايوان في نفسه :

حلل لم تكن كأطلال سعدى في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحاباة مني لم تطقها مساعاة عنس وعبس

ويتابع شاعرنا وصف القصر وما فيه وماحوله ، فيذكر "الجرماز" وهو بناء كان عند أبيض المدائن ثم تهدم وزال أثره ، فيرسمه وكأنه بات من عدم الأنس ومن البلى بنية رمس ، وأن الناظر اليه يراه خالياً من الناس ، متصدع البنيان وأن الليالي لصروفها وأحداثها قد صيرته مأتما قائما بعد أن كان سكن الملوك ، وبعد أن كان يحيا فرحة أعراس دائمة . ويرى البحتري أن ما بقي من آثار الجرماز حقيق بأن يدلنا على عجائب القوم ، وماكانوا عليه من قوة ومجد :

فكأن الجرماز من عـــدم الأنـــ ـس واخـلاقـه بنيـة رمـــس
لو تـراه علمـت أن الليـــالـى جعـلت فيـه مأتـما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجـائب قـــوم لا يشـاب البيان فيهـم بلبس

معركـة أنطاكيـة :

ينتقل الشاعر الى وصـف مافى الايوان من النقوش والرسومات ، فاذا بنـا أمام صـورة أنطاكيـة ، فيذكر البحترى أنه شاهد فى الايوان صـورة كسرى وهو يحاصـر أنطاكيـة وأن الانسان لو نظر الى هذه الصـورة لارتاع من حملة الفرس على الروم ، والذى يشاهـد هذه الصـورة يحسـب أنه فى ميـدان قتـال ، وقل أن يخطر ببالـه أنه أمام صـورة على حائـط . ويصور الشاعر المنـايا بأعلام ترفرف فوق هـذا الجمع الحاشـد الهـائل بينمـا انو شروان يسوق الصـفوف تحت لوائه الكبـير ، وقد لبس ثـوبا أخضر واعتلى صـهوة جـواده الأصـفر ، وهو يدفـع بجنـده بين تلك الصفوف المتراصـة . ولـم يفت الشـاعر أن يصـف ما يرتـدى الجنـود من أشـكال وأنواع الثيـاب ، ومن تصـوير حالتهـم وما هم عليه من صـمت وأصـوات خافتـة ، منهم من يهاجم بالرمح ومنهـم من يقـى صـدره بالترس ، فهو يراهم جد أحيـاء ، وان لم يسمع لهم صـوت وعراك ، لأن فى وضعهم ما يـدل على اكتفائهم بالاشارة كالخرس لا ينطقون ، ولكنه لا يلبث أن يعـود الى نفسه فيتذكر أنه أمام صورة مرسـومة على حائـط ، ثم يغلب على حسـه فيرتاب فيما يشاهـده ، فيمـد يـده ليتحسس هذه الصـورة للتأكد من حقيقتها أم هى ضـرب من الخيـــال :

فاذا مارأيت صـورة أنطـــا كيـة ارتعت بين روم وفـــرس
والمنايا مواثـل وانو شـــر وان يزجـى الصـفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على أصـ ـفر يختال فى صبيغـة ورس
وعراك الرجال بين يديـــه فى خفوت منهـم وافماض جـرس
من مشيح يهوى بعامل رمـــح ومليح من السـنان بـــترس
تصف العين أنهـم جـد أحيـا ء لهم بينهم اشـارة خـرس
يختلى فيهم ارتيابى حـــتى تتقراهم يـداى بلمـــس

يرى بعض النقـاد أن هذه الأبيـات فى وصـف صـورة معركة أنطاكية من أدق ماقيـل فى الوصـف لأنهـا تؤلف مقطعـة نموذجيـة فى الوصـف .

شـــربة خمـــر :

وينتقل الشاعر من وصف تلك المعركة الى الحديث عن تلك الكأس التى ناولهـا اياه ابنه أبو الغوث فاصطبح بها فى الايوان ، وهو ينظر الى العسكريين ، وقد شبه الخمر بالنجم أو مجاجة الشمس . وعندما دارت الخمرة برأس البحترى توهم أن كسرى نديمه ، والبلهبذ أنيسه ، لكنه مالبث أن ثاب الى رشده وأخذ يفكر هل هو فى حلم أم هى أمان فيرن حدسه وظنه :

قد سقانى ولم يصر أبو الغو ث على العسكريين شربة خلس
من مدام تقولها وهى نجم أضوأ الليل أو مجاجة شمس
وتوهمت أن كسرى أبرويـ ـز معاطىّ والبلهبذ أنسى
حلم مطبق على الشك عينى أم أمان فيرن ظنى وحدسى

عـود الى وصف الايوان :

ويعود البحترى للحديث عن الايوان بعد أن وصف لنا تلك المعركة وبعد أن تناول تلك الكأس المضيئة كالنجم أو مجاجة الشمس ، فيصور الايوان وثباته على الدهر حتى لكأنما قُدَّ أو نُحِتَ فى جبل عال عظيم :

وكأن الايوان من عجب الصنـ ـعة جوب فى جنب أرعن جلس

ونرى الشاعر يصور الايوان شخصا حيا تمزقه الكآبة وكأنما هو أليف فاب عنه أنس أليفه ، فالتاع لمفارقته وفيابه ، أو زوج محزون لفراق عروسه فانعكست أيامه ولياليه ، بل لقد انعكست ليالى هذا الايوان فغربت عنه كواكب السعد وأطلت عليه كواكب النحس المقيم ، ولكنه ظل شامخا قائما يبدى التجلد وقد أناخ الدهر عليه بكلكله فرأى الذل بعد العز حين استلت منه ستور الدهس ، وبسط الديباج فهو كالغانية الحسناء التى لم يزدها العرى الا بهاء وجمالا :

يتظنى من الكآبة أن بيـ ـدو لعينى مصبح أو ممسى
مزعجا بالفراق من أنس الـ ـف عز أو مرهقا بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات الـ ـمشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلدا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبه أن بز من بسط الديـ ـباج واستل من ستور الدهس

ويتراءى القصر للشاعر فى ابان مجده السابق ، فيراه مرتفعا عالى البناء تعلوه الشرفات كأنها رؤوس جبال المدينة والقدس يكسوها البياض وكأنها فلائل من القطن مجتمعا بعضها الى بعض ، وينال هذا المنظر اعجاب البحترى لأنه لا يدرى أو من صنع الانس للجن أم من صنع الجنس للانس :

مشمخر تعلو له شرفات ... رفعت فى رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـ ... ـصر منها الافلائل بقرس
ليس يدرى أصنع انس لجن ... سكنوه أم صنع جن لانس

ويواصل شاعرنا وصفه للايوان ، فينطلق به خياله الى عالم غير منظور فاذا الرسوم الهامدة فى التراب تنفض التراب عنها فتتحرك وتنبعث ، وتضج حولها الحياة ، وينقله خياله الى ماضى هذا الايوان التليد فمجالس اللهو تعقد من جديد ، واذا بالوفود مزدحمة بالأبواب متلهفة للمثول أمام صاحب التاج والجوارى من كل صنف تفيض بهن الغرف والقاصير ، وكأنما فارقه ساكنوه أمس أو أول أمس كان اللقاء والفراق :

فكأنى أرى المراتب والقو ... م اذا ما بلغت آخر حسى
وكأن الوفود ضاحين حسرى ... من وقوف خلف الزحام وخنس
وكأن القيان وسط المقاصير ... يرجعن بين حو ولعس
وكأن اللقاء أول من أمـ ... ـس ووشك الفراق أول أمس

ثم يفصح شاعرنا بعد هذا عما ألم بهذه الديار من سرور دائم وفرح مستمر ولكن الدهر ما لبث أن انقلب ، فأصبحت منازلهم وديارهم كأن لم تكن ، ويرى أن من واجبه أن يعينها بسفح الدموع عليها :

عمرت للسرور دهرا فصارت ... للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع ... موقفات على الصبابة حبس

ختام القصيدة :

ويختم أبو عبادة قصيدته بذكر السبب الثانى الذى دفعه الى البكاء على مملكة الفرس وتاريخهم ، وهو مع هذا ليس منهم ، فالدار ليست داره ، والجنس ليس بجنسه ، وانما اعترافا بالفضل لأصحابه الذين أيدوا ملكهم وأعانوهم على

الأحباش الذين فزوا اليمن حين انتصر كسرى لها ، وساعد على اخراج الأحباش منها ، ثم ماكان من عون فى قيام الدولة العباسية وتشييدها ، ومارافقها من ازدهار الحضارة العربية ، وأخيرا فالبحترى من الرجال الذين يحبون الماجدين ويقدرونهم بصرف النظر عن جنسهم وأصلهم :

ذاك عندى وليست الدار دارى ... باقتراب منها ولا الجنس جنسى
فيرنعمى لأهلها عند أهلى ... فرسوا من زكائها خير فرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه ... بحماة تحت السنور حمس
وأعانوا على كتائب أريا ... ط يطعن على النحور ودعس
وأرانى من بعد أكلف بالأشـ ... ـراف طرا من كل سنخ و إس

نظرة فى القصيدة

رأينا كيف صور البحترى حاله أمام حوادث الدهر وكوارثه ، وما حل به من ندم وجفوة ولهذا خرج مستطيا ناقته موجها شطر المدائن للتعزى بها وللطواف فى أرجاء مابقى من آثار الفرس ، فوصف الايوان ، ثم وصف أحد الأبنية التى كان يضمها وهو "الجرماز" ، وعرفنا على أنه متهدم يبعث الوحشة لأنه يشبه المقبرة ، ولكونه يعيش فى مأتم حزين بعد فرح وسرور ، والبحترى عندما يصور الجرماز لايكتفى بنقل الظاهرة التى أمام عينيه ، بل يحاول أن يستقرئ المعنى الذى يختبئ وراءها ، فالجرماز لم يعد كما كان ، بل تغيرت أحواله وأصبح رمزا أومعنى ، فرآه متهدما فأدرك معناه وفشيه بالشعور الانسانى فتراءى له أن ثمة مأتما فير مشاهد ، ينوح من بين تلك الأعمدة ويصور لنا مشهدا شاخصا على جدران الجرماز ذلك هو مشهد معركة أنطاكية الذى هو جزء من الجرماز ، كما أن الجرماز كذلك جزء من قصر المدائن ، وهنا نلحظ الربط والتسلسل فى هذا الوصف . وقد نقل لنا الشاعر مشهد المعركة فذكر المتقاتلين وكيفية عراكهم ، ودور انوشروان فى المعركة ، وفى وصف هذه المعركة تظهر الواقعية عند البحترى بخلاف وصف الجرماز ، فقد كان وصفه له خياليا ، ولكنه أتى لنا بوصف حى يموج بالحياة والحركة ، ونلاحظ قوله " يزجى ، يهوى ، . ومشيح ومليح " .

وهذا وصف رائع بارع جعل الشاعر يضيع بين الواقع والخيال حيث توهم نفسه أنه أمام معركة معتدمة حامية ، لوطيس لاينقصها غير الجلبة والأصوات ، ولكن الواقع

يمد يده الى الشاعر فيجذبه بقسوة عندما يمد الشاعر يده فيلمس ماأمامه فيجده جمادا .

وأمر آخر نراه فى وصف الشاعر للايوان حيث يجعله انسانا أزعجه الفراق والمضض . ويرى بعض الكتاب أن لفظة (يتظنى) تدل على أن البحترى لم يكن يعرف الحلولية التامة والاتحاد بين ذاته وذات الأشياء ، والا لتجاوز عن هذه اللفظة وتجاوز عن التخمين والحدس ونفذ الى رؤية القصر انسانا متهدما مخذولا ، ولكن الشاعر لايكتفى بجعل الايوان انسانا بل ينيط به من البطولة ما يجعله مثالا أعلى للصبر والتحمل :

فهو يبدى تجلدا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى

ويترك البحترى المبالغة ويعود الى الواقع ، فيتحدث عن ارتفاع الايوان وعلوه ويحدد الأمكنة كقدس ورضوى . ولكن الشاعر مادام أتى الى هذا المكان ليخفف من آلامه وأحزانه فعليه أن يغيب بعض الوقت عن عالم الحس فى عالم الخيال ، وها هو مرة أخرى يحلق فى عالم الخيال والتصوير عندما يتذكر عز الايوان يوم كان صاحبه كسرى ملء عين الدهر فيرى فى خياله مجالس اللهو والطرب ، ويلتفت الى السقاة والندماء ، ويفتح أذنيه لسماع ضجيج الوفود المتزاحمة ، ويتابع بناظريه الجوارى يتراكضن فى القاصير ويتمايلن على الأراجيح وهن يردددن الألحان العذبة ، ويهيم الشاعر فى عالم الخيال حتى لو سيرى نفسه موجودة مزهوة بين هؤلاء ، ولكن ما تلبث دنيا الحس والواقع أن تشده اليها ، فلا يرى أمامه الا أنقاضا وخرابا ، أكل عليها الزمان وشرب ولم يبق منها الا الرسوم البالية الخرساء ، فلا يملك الا الدموع يذرفها .

ومن هذا العرض السريع نرى أن هذه القصيدة تشكل وحدة مترابطة العناصر متصلة الأجزاء فلقد وفق البحترى فى وصف اعجابه بالايوان وبعثه من جديد ورسم شعوره وهو أمام أطلاله الدارسة . كما أدهش الشاعر معاصريه بهذا الوصف الخيالى الرائع الذى لم يعهدوه من قبل ، وهو البكاء على الممالك الزائلة لأن عواطف الشعراء كانت عواطف فردية . فكان الشاعر يبكى وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للاطلال فلم يهتم العرب ببكاء الممالك والتفجع لما يحل بالشعوب على أنهم لم يغفلوا عن ذكر ما طوى الدهر من حضارتهم كما تغنوا بماكان لأسلافهم من مدنية وان خلطوا ذلك ، بالتحسر على مادرس من معالم اللهو والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب

كالأسود بن يعفر النهشلي ومتمم بن نويرة ، ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد اليها الرحال كوقفة البحتري عند رسوم الايوان ، فأتى بما لم يأت به غيره من الشعراء ، مما جعل النقاد يشهدون ويشيدون بعبقريته التي قامت على قوة الخيال ، ودقة التصوير ، وبراعة الوصف في أكثر قصائده .

ان هذه القصيدة في جملتها ترشد الى خصائص شعر البحتري ، وتدل على مكانته من البلاغة ومنزلته بين شعراء عصره . ويكفيه فخرا أن تكون هذه السينية من نتاجه الخالد حيث لم يكن للعرب سينية مثلها كما يقول ابن المعتز . وهي فريدة في شعرنا العربي حيث سبق فيها الشاعر الى وزن جديد ، جعله استاذا لمن جاء بعده من الشعراء .

ولو بحثنا وأعدنا النظر ثانية في هذه التحفة الرائعة لرأينا الشاعر بعد مقدمته للقصيدة وتحدثه عن الايوان وبناته يمهد تمهيدا مباشرا لوصف ما في الايوان من صور ونقوش وتهاويل وذلك عندما يقول :

وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان منهم بلبس

وأما قوله :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس

فهذا غاية الغايات في بكاء المغاني — كما يقول الدكتور زكي مبارك — يتحكم فيها البلى وتبطش بها أيدي العفاة . ونرى الدقة والخيال في قوله :

نقل الدهر عهده هن عن الجدة حتى فدون أنضاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأنس واخلاقه بنية رمس

ولنتأمل كيف صارت الحلل أنضاء لبس ، والجرماز بنية رمس .

وأما قوله :

أذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسى

فعلاوة على جودة هذا البيت نرى المجاز العقلي في الاسناد ، وما يشتمل عليه من البديع ونرى الحكمة البالغة (ولقد تذكر الخطوب وتنسى) فكم اجتمع من المحسنات التي تضمنها هذا البيت ؟

ولا ننسى ما يشتمل عليه قوله (واشترائي العراق ، بيعي الشآم) من الاستعارة التصريحية الأصلية .

وكذلك المجاز العقلى فى اسناد جعل الى الليالى ، فى قوله :

لو تراه علمت أن الليالـــى جعلت فيه مأتما بعد عـــرس

وكذلك فى قوله (عكست حظه الليالى) ، وأيضا فى قوله :

فهو يبدى تجلدا وعليـــه كلكل من كلاكل الدهـــر مرسى

وفى قوله (غير أنى أراه يشهد) استعارة تصريحية تبعية لأن يشهد بمعـــنى (يدل) .

وفى وصف معركة أنطاكية يوقفنا الشاعر أمام اللوحة التى أحييت فجسمت ، وكأنها فيلم سينمائى يعرض علينا . وكفينا دلالة على هذا أنه جعل المنايا أشخاصا على أهبـــة الاستعداد للانقضاض والاختطاف (والمنايا مواثل) .

ومن الخيال الرائع الذى هام به شاعرنا وصفه الخمر بمجاجة الشمس وشعاعهـــا كما أنه من الروعة بمكان الشمول والتعميم فى حديثه عن الخمر أيضا فهى محبوبة الى كل نفس كما يقول .

ومن الرائع الجميل أنه صور الايوان كائنا حيا . وأنه بعد ما استلت منه ستور الدمقس والحرير فدا كالغادة الحسناء بعد ما نزع عنها البؤس ما كانت ترتدى من ثياب وحلى فصارت متجردة لا يزيدها تجردها الا جمالا وحسنا .

أما ألفاظ هذه القصيدة فقد وضعت فى مواضعها المناسبة . وهناك ضمير الشـــأن فى قوله (وهو كوكب نحس) فان لفظة (وهو) لها قيمة عظيمة فى تقرير المعنى وتأكيـــده على أن هناك ألفاظا موحية . وهناك البديع من طباق وجناس بكثرة كاثرة .

أما موسيقى القصيدة فهى معبرة رنانة موجعة ، وقافية صوتية الروى ، مما جعل القصيدة غنائية وجدانية . فالشاعر يختار قافية السين وهى قافية حزينة ، ولم يلن حاشيـــــة هذه القافيـــة بحرف علة قبلها حتى لا تكون مسفة ، بل انه يعرض بضاعة شعره وقدرتـــه الصوفية حين يكثر استعمال كلمات القافية فى البيت الواحد "تعسى ، نكسى ، عنسى ، عبس" . بل هو أيضا قد بنى التكوين الموسيقى للقصيدة على الحروف الصفرية كالســـين والصاد والزاى ، وجعلها محورا تدور عليه معظم تعابيرها . كما يلاحظ فى القصـــيدة المزج بين القديم والجديد حيث تختلط مظاهر البداوة بمظاهر الحضارة الجديدة ، فمن ذكر الأطلال والبسابس والناقة والرحل الى ذكر القصور والشرفات والدمقس والديباج والحـــرير .

ولعلى فيما قدمت أكون قد وفقت بعض التوفيق . ولولا ماينتظر من نتاج هذا الشاعر لأفردتها بدراسة مطولة ..

الفصـــــل الثـــــانى

١ــ وصـف القصـور العباســـــــــــــية ٠

٢ــ ،، الطبيعـــــــــــــــــــة ٠

٣ــ ،، المدن والأقاليم " العراق والشام " ٠

٤ــ ،، الحيوانـــــــات ٠

٥ــ ،، المعـــــارك والســـــــيف ٠

٦ــ ،، الطيـــــف والشـــــــيب ٠

٧ــ ،، المواكب وغيرهـــــــــــا ٠

١ — وصف القصور العباسية

وصف (الجعفري) قصر المتوكل :

عاصر شاعرنا خليفتين أولعا بتشييد القصور وعمرانها ، هما : الخليفة المتوكل وابنه المعتز ، فكان طبيعيا أن يتغنى البحترى شاعر الخلافة بجمالها وفخامتها ، وأن يثنى على البانى ويهنئه على انجازاته . والجعفرى قصر بناه المتوكل قرب سامراء حيث استحدث مدينة " المتوكلية " وانتقل اليها . وأقطع حاشيته وقواده الأراضى ، فصارت أكبر من سامراء . كما شق اليها نهرا من دجلة . وقد بنى الجعفرى عام ٢٤٥ هـ ، وقتل فيه عام ٢٤٧ هـ . وكان قد افتتن فى زخرفته ، وشيده فوق ربوة عالية تجرى تحته دجله ، وجلب اليه وسائل الحضارة ، كما أحاطت به حديقة فسيحة تلاعب الريح أشجارها .

يقول فى وصف هذا القصر من قصيدة مدح بها المتوكل : " ١ "

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن ... ليتم الا بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار اقامة ... فى خير مبدى للأنام ومحضر (٢)
فى رأس مشرفة حصاها لؤلؤ ... وترابها مسك يشاب بعنبر
مخضرة والغيث ليس بساكب ... وضيئة والليل ليس بمقمر
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت ... ظلل الغمام الصيب المستغزر (٣)
فرفعت بنيانا كأن منارة ... أعلام رضوى أوشواهق خيبر
أزرى على هم الملوك وفض من ... بنيان كسرى فى الزمان وقيصر
عال على لحظ العيون كأنما ... ينظرن منه الى بياض المشتري
ملأت جوانبه الفضاء وعانقت ... شرفاته قطع السحاب المعطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه ... من لجة فمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثنى ... أعطافه فى سائح متفجر

" ١ " الديوان ٢/ ١٠٤٠
" ٢ " المبدى : مكان البدو . المحضر : مكان الحضر . الأرض المشرفة : المرتفعة .
" ٣ " ظهرت لمخترق الشمال : بدت مارة بشمال دجلة . الظلل : جمع ظلة وهى السحابة . الصيب : المسكوب المنصب . المستغزر : الغزير .

معنى الأبيات :

الباعث للشاعر على نظم هذه الأبيات في وصف هذا القصر هو مدح الخليفة وتسجيل هذا العمل والحدث العمراني . فما كاد الجعفري يتم عمرانه حتى التفت اليه البحتري فرآه كناطحات السحاب في عصرنا الحاضر ، وهذا الارتفاع والحسن تما له بوجود الخليفة فهو بناء شاهق الارتفاع ، تملأجنباته الفضاء وتعانق شرفاته قطع السحاب ، يخيل للناظر اليه أن نوره المنبعث من سامق شرفاته يختلط بانبعاث نور كوكب المشتري ، وهو لعظمته وفخامته وعلوه تقف هم الملوك دونه فلا يستطيعون ايجاد مثيل له، لاسيما وأن بنيان الفرس والروم لم يعد شيئا يذكر بالنسبة له .

أما حديقة هذا القصر فتشغل بال الشاعر وتستحوذ على تفكيره بمظاهر النعمة ومونق العيش ، فيرى حصا القصر بما فيها هذه الحديقة كأنه اللؤلؤ المنثور ، ويرى ترابها مسكا يمزج بعنبر ، وهي متألقة يشع النور من جنباتها وتعمها الخضرة فلا تستقطر فيث السماء ما دامت دجلة تسير من تحت هذا القصر الواسع الفناء .

نظرة في الأبيات :

هذا القصر المشمخر أثار اعجاب شاعرنا عندما نظر اليه ، لأنه رأى مالم يألفه من قبل ، سواء من حيث الضخامة والارتفاع ، أو من حيث الخضرة والضوء ومن المعروف أن الاخضرار لا ينتشر الا اذا سقط الغيث ، والضوء لا يبدو الا اذا أسفر القمر . ان هذا الواقع واقع الصحراء ، ولقد عجب البحتري أشد العجب أن يرى خضرة دون مطر ، وضوءا بلا قمر ، لأنه يشاهد واقعا جديدا أدهشه .

ويذهب بعض الكتاب الى أن البحتري في ذلك الوقت لم يزل بدويا .

أما أوصاف القصر الأخرى فلا تتضاءل دهشة ورفعة ومبالغة وغلوا حين جعل القصر يدرك المشتري ويرد لحظ العيون وجعل التراب مسكا ، والحصا لؤلؤا .

وقد زين البحتري اسلوبه بالبيان والبديع والمعاني الرائعة التي بينت فخامة هذا القصر ، فالفضاء لم يعد فيه مكان لأن جوانب القصر ملأته ، كما أن الشرفات والسحاب تحولت الى أشخاص يعانق بعضهم بعضا ، أما أشجاره في تثنيها فكأنها الغادات الحسان . وترى الطباق بين (مبدى ومحضر) والجناس بين (تم ويتم) . ولا يخفى ما للتشبيه من أثر في جمال الأبيات فالبنيان المرتفع كالجمال والحصا كاللؤلؤ والتراب مسك . .

وبعد وفاة المتوكل وقتله في هذا القصر ، نظر البحتري الى الجعفري فوجد حاله لم تكن على ماهي عليه ، بل تغيرت فقال في وصفها : (١)

تغير حسن الجعفري وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره وقصابره
اذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج ناظره
ولم أنس وحش القصر اذ ربع سربه ... واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل وهتكت ... على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تكن فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره

الى آخر ماقال البحتري في وصف ماوصلت اليه حال هذا القصر عندما فارقه صاحبه وما دمت أتحدث عن الجعفري ووصفه فانني أرى اكمالا لهذا الوصف أن أستعجل الحديث عن بركة للربط بينهما ولاستكمال الصورة ، وان كان وصفها داخلا في وصف الطبيعة .

قال البحتري في وصف بركة المتوكل : (٢)

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات اذا لاحت مغانيها (٣)
بحسبها أنها في فضل رتبتها ... تعد واحدة والبحر ثانيها
مابال دجلة كالغيرى تنافسها ... في الحسن طورا وأطورا تباهيها
كأن جن سليمان الذين ولوا ... ابداعها فأدقوا في معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرض ... قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها (٤)
تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها (٥)
فرونق الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيانا يباكيها (٦)
اذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد مابين قاصيها ودانيها

"١" الديوان ٢/ ١٠٤٦ - ١٠٤٧
"٢" الديوان ٤/ ٢٤١٦
"٣" المغاني : جمع مغنى وهو المنزل .
"٤" بلقيس : ملكة سبأ . عن عرض : عن قرة . الصرح : بلاط يتخذ من قوارير أو القصر .
"٥" حبك الماء : الجعد المتكسر ، ويقصد به التكسر الذي يبدو على الماء اذا مرته الريح . الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع .
"٦" الريق : أن يصيبك من المطر شيء يسير . وريق الغيث : أوله وأفضله .

يعمن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنقض في جو خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها ... اذا انحططن وبهو في أعاليها
صور الى صورة الدلفين يؤنسها ... منه انزواء بعينيه يوازيها (١)
تغنى بساتينها القصوى بريتها ... عن السحائب منحلا عزاليها (٢)
محفوفة بريا س لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

عرض الأبيات:

هذه هي بركة القصر الجعفري الذي مر معنا ، وهي تقع على مسافة زهاء ستة كيلوات من الامتار شرق مدينة سامرا الحالية كما يقول الدكتور أحمد سوسة ، ويقول كذلك: "وكانت البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري ضمن حديقة واسعة ، كما كان أمامها قصر فخم" .

لقد بدأ البحتري الحديث عن البركة مبديا اعجابه البالغ بها ، وأن رؤيتها تسر العيون ولا سيما اذا برزت الآنسات حولها ، وأنها واحدة في الدنيا يليها البحر في العظمة فهو يحتل المكانة الثانية بعدها ، حتى أن دجلة لتغار منها لحسنها ، وتحاول أن تباهيها فتأكل الغيرة قلبها ، لجميل مرآها ، وأين هي منها في ميدان التسابق وهي تنطق بالرائع المعجز حتى كأنها صنعت بأيدي مردة الجن فافتنوا في تحسينها وأدقوا في معانيها ، حتى أن بلقيس لو مرت بها عرضا لظنتها الصرح الممرد من القوارير، لملاسة سطحها ، وصفاء مائها وصقل حركها :

يا من رأى البركة الحسناء ورأيتها ... والآنسات اذا الاحت مغانيها
بحسبها أنها في فضل رتبتها ... تعد واحدة والبحر ثانيها
مابال دجلة كالغيرى تنافسها ... في الحسن طورا وأطورا تباهيها
كأن جن سليمان الذين ولوا ... ابداعها فأدقوا في معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرض ... قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها

ويستمر شاعرنا في وصفه ، فيرينا كيف تتدفق المياه عليها من جهات مختلفة متعددة كأنها الخيل في حلبة السباق تتدافع اليها سراعا . ثم تطمئن فتسيل في المجاري سبائك فضة مذابة ، لا تلبث أن يتماسك حبيبها من مداعبة النسيم ، فيشكل

"١" صور : جمع أصور وهو المائل . الدلفين : دابة بحرية يعتقدون أنها تنجي الغريق . الانزواء: الانحراف . يوازيها : يجاريها ويواجهها ويقاربها . وأراد صورة الدلفين المنقوشة على جدران البركة .
"٢" تغنى : تكتفي . العزالي : جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة .

درعا متعاقد السرد . ويواصل الشاعر بين البركة ومظاهر الطبيعة الأخرى فاذا مرت الريح بها تجعد وجهها ، وبدا على سطحها طرائق قدد ، بينما ظلت حواشى البركة مصقولة كالمرآة تضاحكها الشمس اذا أشرقت ، وأوائل الغيث تبكى فتبكى معها وأما نجوم الليل وقمر السماء فحسبها التأرجح والتراقص على رحيق وجهها تأرجحا وتراقصا يجعل منها سماء تباهى أخرى :

تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيانا يباكيها
اذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وينتقل البحترى بعد ذلك الى وصف سمكها فيراه يغوص فيها ويغيب ، فالبركة جنة السمك المحصور فيها ، والذى لا يبلغ مداها لسعتها ، فاذا هبط أسفلها وجد صحنا رحيبا ، واذا ارتفع رأى بها شاسعا يمرح فيه سرورا ، وكأنه فى عومه وغوصه مجنح الطير الذى فضاؤه تلك الأبهاء المحلاة بالنقوش ، والمجللة بالأشكال ، لاسيما صورة الدلفين الذى تأنس بمنظره ، ناهيك عن رياضها وأشجارها وأزهارها التى تحف بها حتى أنها لتحكى فى تعدد ألوانها ومناظرها ريش الطاووس :

لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنفض فى جو خوافيها
لهن صحن رحيب فى أسافلها ... اذا انحططن وبهو فى أعاليها
صور الى صورة الدلفين يؤنسها ... منه انزواء بعينيه يوازيها
تغنى باتينها القصوى بريتها ... عن السحاب منحلا عزاليها
محفوفة بريا س لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

نظرة فى الابيات سريعة :

هكذا أجاد البحترى فى تصوير اعجابه بالبركة ، وتصوير الماء المنهمر فيها وفى رسم ما يبدو على سطحها من تجعدات ، بينما الحواشى مصقولة ، وصور الشاعر النجوم اللامعة فى أرجائها ليلا . فنرى قدرته على اختيار الألفاظ الملونة .

والبديع فسير المتكلف ، كالطباق بين قاصيها ودانيها ، يضاحكها و يباكيها ، أسافلها وأعاليها ، كما نلاحظ قدرة البحترى على تصوير الحركة فى قوله :

تنصب فيها وفود الماء معجلة ... ...

ولقد أجاد وشخص ببراعة حيث جعل دجلة انسانا تحرقه الضيرة ، يضاف الى هذا ما فى هذه الابيات من تشبيهات فريدة بليغة تدل على خيال واسع ، كتشبيه وفود الماء بالخيل ، أو بالفضة السائلة البيضاء ، وتشبيه ما يعلو وجه ماء البركة من تكسر بالدروع ، وكذلك تشبيه السمك فى هذه البركة بالطيور المجنحة ، وتشبيه الزهور المتعددة الألوان بريش الطواويس الى غير ذلك من أوجه بلاغية .

واختم الحديث عن وصف البركة بقول بعض الكتاب : " البركة عروس قصائد البحترى فى وصف الطبيعة ، وان هذه القصيدة لفوط رقتها وفيض موسيقاها ، وعامر عذوبة ألفاظها واشراق اسلوبها ، ونقاء قوافيها ، مع ما انتظم عقدها من صور بهيجة ، قد أصبحت سمة لمدرسة البحترى فى الشعر عامة ، وفى الطبيعة خاصة "(١)

" ١ " رحلة الشعر من الأموية الى العباسية للدكتور / مصطفى الشكعة .

وقال البحترى يصف "الكامل" قصر المعتز من قصيدة يمدحه بها: (١)

لما كملت رويسة وعزيمة ... أعملت رأيك فى ابتناء الكامل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المنزلة هائل
رفعت لمنخرق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل (٢)
وكأن حيطان الزجاج بجوه ... لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى ... تأليفه بالمنظر المتقابل (٣)
حبك الغمام وصفن بين منمر ... ومسير ومقارب ومشاكل (٤)
لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نورا يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق ... ملتهب العالى أنيق السافل
فكأنما نشرت على بستانه ... سيراء وشى اليمنة المتواصل (٥)
أفنته دجلة اذ تلاحق فيضها ... عن فيض منسجم السحاب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطفت ... أشجاره من حيل وحوامل (٦)
مشى العذارى الغيد رحن هشية ... من بين حالية اليدين وعاطل (٧)

"١" الديوان ٣ / ١٦٤٨

"٢" منخرق الرياح: مهبها. السموك: جمع سمك وهو السقف أو من أعلى البيت الى أسفله.

"٣" التفويف: ما يبدو فى الرخام من خطوط بيض تشبيها بالثياب، يقال برد مفوف أى ذو خطوط بيض، ويقصد هنا الزخرفة والتوشية.

"٤" المنمر: أن يكون فى السحابة بقعة بيضاء، وبقعة أخرى على أى لون كان. المسير: المخطط. المقارب: الوسط ما بين المنمر والمسير. مشاكل: مشابه.

"٥" السيراء: برود مخططة، او برود يخالطها حرير الذهب الخالص. اليمنة: برد يمنى.

"٦" الحيل: النخلة التى لا تحمل ثمارا، يقال لها حائل والجمع حُوْل وحُوَّل وحيال، وحوائل. وكذلك كل انثى لا تحمل، وليس فى جموعها (حُيَّل).

"٧" الحالية: التى تلبس. وعاطل: التى لا تلبس.

الكامل قصر بناه الخليفة المعتز بن المتوكل ، وصفه الشاعر فى قصيدته التى مدح بهـا المعتز ومطلعها :

لو كان يعتب عاجز فى واصـل أو يستقاد لمغرم من ذاهل

ذكر الصولى فى أخبار البحترى قال : "حدثنى أبو الغوث قال : حدثنى أبى قـال : لما بنى المعتز القاصل دخلت عليه فأنشدته "لوكان يعتب ... " حتى أتيت على آخرها فقال لى : ياوليد مأنشدتنى قط الا أطربتنى . ولارأيتك الا سررت للملك ببقائك ، فقبلت الأرض ، وقلت عبدكم الذى أعتقتمـوه ، وسائلكم الذى أفنيتموه " .

عرض القصيدة :

بدأ الشاعر قصيدته بمدح الخليفة المعتز ثم انتهى الى وصف قصره الكامـل فالبحترى يستوقفنا عند هذا البناء الشامخ ، مصورا الحمام وقد ذعر من منظره حين ترنم فوقه ، وحين رأى الهاوية السحيقة التى تشرف عليها ، فيخشى الانزلاق والسقوط ، ورسم لنا صورة عن جدرانه الزجاجية المتموجة تموج مياه البحار تحتضنهـا السواحل ، كما أن تفويف الرخام وتزييناته اذا نظر اليها ظن أنها سحاب متراكم رصفت فى ألوان متعددة ، ثم سقوفه الذهبية الساطعة تنير الطريق للسائر فى الظلام يقول :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المنزلة هائـل
وكأن حيطان الزجاج بجـوه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابـل
حبك الغمام رصفن بين منمـر ومسير وهـارب ومشـاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه نورا يضىء على الظلام الحافل

ثم يعرج الشاعر على حديقة هذا القصر الفواحة بالزهور والورود والرياحين ، فهى ظلالات من الحرير المتعدد الألوان فى قطع البرود اليمنية الزاهية الجميلة ، دبت فيها الحركة فتأودت زهورا وورودا واستغنت عن دموع السحاب بفيض دجلة ، فتنفست فيها الصبا تنفس المطمئن المرتاح البال ، وتمايلت فيها الأشجار بين مثمرة وغير مثمرة تمايل الغيد المتبخترات فى ردهات القصر بعضهن قد اكتست بحليهـا ، والبعض الآخر نزعـت هـذه الحلى اكتفاء بما حبتهـا الطبيعة من جمال :

وكأنما نشرت على بستانـه سيراء وشى اليمنة المتواصل
أفنتـه دجلة اذ تلاحق فيضها عن صوب منسجم الرباب الهاطـل

وتنفست فيه الصبا فتعطفت أشجاره من حيل وحوامل
مشى العذارى الخيد رحن عشية من بين حالية اليدين وعاطل

نظرة في الأبيات :

لقد صور الشاعر لنا علو هذا القصر الهائل ، وتوسل بالحمام لاظهار هذا العلو. والبحترى يعتمد على خياله الحسى فى المقارنة بين المشاهد ، فهو خيال يقرب الأشياء بعضها الى بعض ، انه خيال ناقل مصور يبدو فى تشبيه الانعكاس على الزجاج باللجج المتوجة ، وفى تشبيه ألوان الزهور ببردة يمنية مزركشة . كما تظهر الحضارة فى أبياته ، فالحيطان زجاج والسقوف مذهبة ، وتبدو براعة البحترى فى المزاوجة بين الألفاظ والمعانى مما يجعلنا نتمثل الصورة من خلال اللفظة ، فاستعمال أحرف المد فى القافية يساعد على ابراز فكرة الارتفاع ، وتتابع أحرف الجيم فى قوله: " حيطان الزجاج ، بجوه ، لجج ، يمجن " يبرز تموج مياه على جنوب السواحل وكأننا نبصر هذا التموج ونسمعه ، أما التشخيص فظاهر فى جعله الصبا انسانا يتنفس ، وفى جعله الأشجار تتعطف وتتمايل مختالة كعذارى جميلات القدود فى نزهة وقت الأصيل بعضهن اكتسين بحليهن والبعض الآخر عاطلات ، كما نشاهد الطباق بين قوله : "العالى والسافل . حيل و حوامل . حالية وعاطل " وغير ذلك.

قصرا المعشوق والمشوق :

مدح البحترى الخليفة المعتمد على الله فى قصيدة مطلعها :

أريتك الآن ألمع البروق أم شعل مرفضة عن حريق

وفى آخر هذه القصيدة وصف البحترى قصرى المعتمد " المعشوق والمشوق " وعن المعشوق يقول ياقوت : " انه قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامرا فى وسط البرية " ثم قال " وبينه وبين تكريت مرحلة . عمّره المعتمد على الله . وعمّر قصرا آخر يقسال له الأحمدى " . ويقول محقق الديون حسن كامل الصيرفى "ولعل الأحمدى هذا هو الذى يسميه شاعرنا المشوق " .

والشاعر يدعو للمعشوق أن لاتمر سحابة الا ويصيبه منها قدر كبير من المطر لأن الشاعر منذ أن رأى هذا القصر لم يفقد الفقيّ المستمرة والأزمان الطيبة . ويصور القصر مرتفعا جميلا يلقى دجلة بوجه بشوش مشرق كضوء الشمس عند شروقها ثم يذكر المشوق وأنه لم ير المعشوق الا هذا القصر الذى ترتفع اليه الانظار ، واذا كان المعشوق مبرزا فى حسنه وبهائه فالمشوق مسرع فى اللحاق به .

وسنرى أن البحترى فى أبياته الآتية يبعث الحياة والحركة فى الجماد ، فيرى أن ، المعشوق يطالع دجلة ويلقاها بوجه طلق ، ويصور المشوق انسانا يجهد نفسه للحاق به . فأبيات الشاعر فنية بالصور البيانية من استعارات وتشبيهات تزيدها حسنا وبهاء . يقول فى وصف القصرين : (١)

لازال معشوقك يسقى الحيا من كل دانى المزن واهى الخروق
فما خلونا مذ رأيناه من فتح جديد وزمان أنيق
أشرف نظارا الى ملتقى دجلة يلقاها بوجه طليق
وطالع الشمس على موعد بمثل ضوء الشمس عند الشروق
لم أر كالمعشوق قصرا بدا لأعين الرائين فير المشوق
هذا قد برز فى حسنه سبقا وهذا مسرع فى اللحوق

" ١ " الديوان ٣ / ١٤٦٧

وصف قصرين الصبيح والبليخ والبركة : (١)

قال البحترى يمدح المتوكل ويصف القصرين والبركة :

واستتم الصبيح فى خير وقت ... فهو مغنى انس ودار مقام
ناظر وجهة البليخ فلو ينـ ... ـطق حيّاه معلنا بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا ... ك فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبين لو أطاقا التقاء ... أفرطا فى العناق والالتزام
تنفذ الريح جريها بين قطريـ ... ـه فتذكو من ونية وسآم(٢)
مستمد بجدول من عباب الـ ... ـماء كالأبيض الصقيل الحسام(٣)
فاذا ماتوسط البركة الخضـ ... ـراء ألقت عليه صبح الرخام
فتراه كأنه ماء بحر ... يخدع العين وهو ماء فمام
والدواليب اذ يدرن ولا نا ... ضح يسقى بهن فير النعام (٤)
ان خير القصور أصبح موهو ... با بكره العدى لخير الأنام
جاور الجعفرى وانحاز شبدا ... ز اليه كالراقب المعتام(٥)
حلل من منازل الملك كالأنـ ... ـجم يلمعن فى سواد الظلام
مفحمات تعيى الصفات فما تد ... رك الا بالظن والايهام
فكأنا نحسها فى الأمانى ... أو نراها فى طارق الاحلام
فرف من بناء دين ودنيا ... يوجب الله فيه أجر الامام
شوقتنا الى الجنان فزدنا ... فى اجتناب الذنوب والآثام

ويقول من قصيدة أخرى : (٦)

أصبحت بهجة النعيم وأمست ... بين قصر الصبيح والجعفرى
فى البناء العجيب والمنزل الآ ... نس والمنظر الجميل البهى

"١" الديوان ٣/ ٢٠٠٥
"٢" الونية : الاعياء .
"٣" العباب : معظم السيل . الصقيل : المجلوّ .
"٤" الدواليب : الآلات التى تدور على محور . الناضح : مستخرج الماء ، البعير يستقى عليه .
"٥" الجعفرى : قصر المتوكل السابق الذكر . شبداز : قصر عظيم من أبنية المتوكل بسامرا .
المعتام : هو الذى يختار الصيمة وهى خيار المال .
"٦" الديوان ٤ / ٢٤٥١

الصبيح والمليح قصران من القصور التي بناها المتوكل ، ويذكر ياقوت في معجمه أن المتوكل أنفق على بناء الصبيح خمسة آلاف الف درهم ، وأنفق على بناء المليح مثلها ، وقد أنشأهما في سامرا .

عرض معنى الأبيات :

يصف شاعرنا هذين القصرين مبتدئا بذكر الصبيح وأنه بعد تمام عمرانه أصبح دار أنس ومقام ، وانه يواجه قصرا آخر هو المليح ، ولو نطق مسلما لرد عليه السلام والتحية ، وهذا القصران لجمالهما كالمتحابين المبتسمين وكأنهما محبان ينظران الى بعضهما ويتوقان الى العناق والتقبيل الذي لو أتيح لهما لأفرطا فيه افراطا عظيما ولسعة الصبيح المتناهية فان الريح يصيبها السأم والاعياء عندما تجري في أرجائه فلا تستطيع أن تواصل جريها فتكبو معلنة عجزها وعدم استطاعتها في قطع هذه المسافات ، وهذا القصر يستمد ماءه بواسطة جدول يجري بيه أبيض كالسيف الصقيل اللامع فيخترق تلك البساتين لينحط في بركة عظيمة عميقة فيصبح لونه أخضر كماء البحر لعمقها ، واذا نظرت رأيت الدواليب في دوران مستمر .

أما موقع هذا القصر فيذكر الشاعر أنه مجاور للجعفري وشبدار ، وهذه القصور أصبحت منازل الخلفاء ، ومهما حاولت وصفها فلن تستطيع حتى في الأحلام .
ثم يذكر الشاعر أن هذه القصور العالية الشامخة تتمايل في أفنيتها الأشجار ، وتذكرنا بالجنان في عالم الآخرة .

نظرة سريعة :

وصف البحتري هذين القصرين وهام في أقلب هذه الأبيات في عالم الخيال باعثا الحياة والمحبة في تلك الجمادات الهامدة ، منطقا ألسنتها الوسيمة ، حيث جعل أحدهما يسلم على الآخر ، وأفسح المجال لهما يتبادلان القبلات الحارة ، وجعل الريح تجري كالحصان القوي ولكنها لسعة هذه القصور تكبو وتجثو من شدة الاعياء ويرسم لنا صورة رائعة للبركة التي تتوسط القصور فتشع منها الألوان الرخامية الجميلة والخضراء الزاهية ، حتى ليخيل للناظر اليها أنه أمام ماء بحر لا ماء فمام لعمقها البعيد ، أما الدواليب فتدور بدون توقف .

وفي الختام يجعل هذه القصور الشامخة المتصفة بصفات تفخم محصيها ، لا تدرك الا بالأماني ، أو بالأحلام ، وينقلنا البحتري الى دار القرار وكأنه يهمس في آذاننا

أنهـا المسآل والمـرجع ٠

والبحـترى وصـاف بـارع ، يصـور الأشـياء بصـور فـريدة ، معتمـدا على خيـاله ٠ ويتوج هـذا الوصـف ويوشـيه بأنـواع البيان والبديـع الـتى تحـلى أسـلوبه وتجعـله مقبـولا ٠

ووصف البحترى قصر الساج الذى بناه الخليفة المعتز فقـال : (١)

وكأن قصـر السـاج خلة عاشـق ... برزت لوامقها بوجـه موتـن(٢)
قصـر تكامل حسـنه فى قلعـة ... بيضـاء واسـطة لبحر محـدق
دانى المحـل غلا المزار بشاسع ... عمن يزور ولا الفنـاء بضـيق
واذا الرياح لعبن فيه بسطن من ... موج عليه مـدرج مترقـرق

هكذا أبرز الشاعر جمال هذا القصر ، وجمال منظره ، يزيد فى ذلك وقوعـه على قلعـة بيضـاء ، وأن هذا القصـر مع علـوه الشاهق دان لقاصـده قريـب لزائره ، مع سعته المتناهيـة ، لما يحتوى عليه من أفنية رحبـة وأشجار تلاعبهـا الريـح ، وتثنيها وتلامس مـاء النهر الذى يسقى هذا القصر فتكون موجـا هادئـا مترقـرقا ٠

ومن قصر السـاج ينتقل بنا البحترى الى ردهات قصـر البرج الذى بنـاه المتوكـل اذ يقـول : (٣)

اذا أشـرف البرج المطل رمينه ... بأبصار خون قد أرثّـت قطوعها (٤)
يضيء لها قصد السرى لمعانه ... اذا اسود من ظلماء ليل هزيعها (٥)

جاء فى كتاب الديارات للشابشتى : " كان البرج من أحسن أبنية المتوكل " ٠ وقال : "انه جلس فيه سنة ٢٣٩هـ فمكث ثلاثة أيام فحمّ فانتقل الى الهارونى وأمـر بعد ذلك بهدمه " ٠

" ١ " الديوان ٣ / ١٤٨٢
" ٢ " واقها : محبهـا ٠ الموثـق : المعجب ٠ الخـلة : الخصـلة ٠
" ٣ " الديوان ٢ / ١٢٩٧
" ٤ " الخون : الخائرة العيون ٠ القطوع : جمع قطع : طنفسة يجعلها الراكب تحته وتغطى كتفى البعير ٠ أرثت : من الرثاثة ، أرث الثوب : بـلى ٠
" ٥ " الهزيع : الشائفة من الليـل ، أو نحو ثلثـه أو ربعـه ٠ وقيل : ساعة منه ٠

ووصف البحترى قصر الزو فقال : (١)

تعجبت من فرعون اذ ظن أنه ... اله لأن النيل من تحته يجرى
ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها ... لقل لديه ما يكثر من مصر
ولو بصرت عيناه بالزو لازدرى ... حقير الذى نالت يداه من الأمر
اذا لرأى قصرا على ظهر لجة ... يروح ويغدو فوق أمواجها يجرى

وقال يصفه أيضا فى قصيدة أخرى يمدح بها المتوكل : (٢)

أبى يومنا بالزو الا تحسسنا ... لنا بسماع طيب ومدام
فنينا على قصر يسير بفتية ... قعود على أرجائه وقيام
تظل البزاة البيض تخطف حولنا ... جآجئ طير فى السماء سوام (٣)
تحدر بالدراج من كل شاهق ... مخضبة أظفارهن دوام (٤)
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه ... تدفق بحر بالسماحة طام
ولا جبلا كالزو يوقف تارة ... وينقاد اما قدته بزمام

يقول ياقوت : " الزو نوع من السفن عظيم ، وكان المتوكل بنى فى كل واحدة قصرا منيفا ، ونادم فيه البحترى " . وعلى هذا تكون القصور التى بناها المتوكل تسمى الزو وأن السفينة التى تحمل القصر تسمى باسمه .

والبحترى يصف فى أبياته الاربعة الاولى الزو متعجبا من أن فرعون يظن أنه اله لاعتقاده أن ماوجد عنده لا يوجد عند غيره ، ولكنه لو رأى هذه القصور العظيمة تسير بها السفن فى البحار لاحتقر كل مالديه ، ولعلم أن ماحصل عليه ليس بشئ يذكر بالنسبة لهذا القصر الذى صار مابين فدوة وروحة فوق الأمواج .

وفى الابيات الستة الأخيرة أن يومهم الذى قضوه بالزو أبى الا أن يقترن بالحسن والأنس ، وأنهم استغنوا بهذا القصر الذى يمخر عباب الماء ، والفتية فى جوانبه مابين قيام وقعود وحول رؤوسهم الصقور البيض تذهب على وجهها كيفما شاءت ، وهذه أيضا طيور الدراج تتحدر من كل مرتفع ، وتحوم فوق هذا القصر مخضبة الأظفار الجميلة ، ويبدى

" ١ " الديوان ٢ / ١٠٥٣
" ٢ " الديوان ٣ / ٢٠٠١ — ٢٠٠٢
" ٣ " البزاة : جمع البازى وهو نوع من الصقور . الجآجئ : جمع الجؤجؤ وهو الصدر من الطير أو السفينة . السوام : الذاهبة على وجهها حيث تشاء .
" ٤ " الدراج : طائر شبيه بالحجل وأكبر منه أرقط بسواد وبياض قصير المنقار .

الشاعر اعجابه بهذا الجبل على ظهر هذه السفينة فحينا يوقف ، وحينا آخر ينقاد بزمام كالبعير .

والبحتري في هذه الابيات استطاع أن يعطينا فكرة واضحة عن هذا القصر وعظمه ويصوره لنا في ذهابه ومجيئه ، والفتيان يلهون ، ويصور الطيور بين روحة وجيئة وكأن هذا الجبل قاعدة حربية في وقتنا الحاضر . ويشبه الشاعر الزو ويجعله بعيرا وضع رسنه في عنقه وصاحبه ممسك به ان شاء قاده وان أراد أوقفه .

والأبيات على قلتها فنية بالصور البيانية والمحسنات البديعية كالطباق بين يروح ويغدو . وقعود و قيام . ويوقف وينقاد .

والقصور العباسية التي وصفها الشاعر كثيرة ومنها قصر "الغرد أو الفرد " وهو من القصور التي شيدها الخليفة المتوكل .

فالشاعر يتعجب من حسن دجلة وما ذاك الا لأن الفرد نزل وأقام على جانبها فزاد حسنها حسنا ، وبهاءها بهاء . ويصف فناء هذا القصر بأنه مبتل ندي بأن المطر انهمر فيه انهمارا ، فدواليبه تعمل بلا تمهل ، واذا نظرت اليه من بعد رأيته منيرا ساطعا حتى أن العين لتذل وتصاب بالاجهاد عندما تنظر اليه لشدة ضوئه ، وكأنه الكوكب المضيء الثاقب . واذا نظرت الى القباب فوقه رأيتها تعلوه يمنة ويسرة تشد جوانبه ، وكأنه لمنظره الباهي المشع ولارتفاعه الشامخ الشاهق ملك الملوك: يقول (١)

أحسن بدجلة منظرا ومخيما ... والفرد في أكناف دجلة منزلا
خضل الفناء مستي وطئت ترابه ... قلت الغمام أنهل فيه وأسبلا (٢)
حشدت له الأمواج فضل دوافع ... أعجلن دولابيه أن يتمهلا
تبين نقبته ويسطع نوره ... حتى تكل العين فيه وتنكلا (٣)
كالكوكب الدري أخلص ضوءه ... حلك الدجى حتى تألق وانجلى
رفدت جوانبه القباب مياسرا ... ومياسرا وسفلن عنه واعتلى
فتخاله وتخالهن ازاءه ... ملكا تدين له الملوك ممثلا

"١" الديوان ٣ / ١٦٥٢

"٢" خضل : ندي وابتل فهو خضل . الفناء : الساحة أمام البيت .

"٣" النقبة : اللون ، الوجه . تنكل : تنكس .

وقال البحترى يصف قصور الفتح بن خاقان : (١)

تلفّت من عليا دمشق ودوننا ... للبنان هضب كالغمام معلق
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ... ذممت مقامى بين بصرى وجلق (٢)
الى معقلى عزى ودارى اقامتى ... وقصد التفاتى فى الهوى وتشوقى
مقاصير طلن أقبلت بوجوههـا ... الى منظر من عرض دجلة مونق
كأن الريا والحو يكسين حولها ... أفانين من أنواف وشى ملفق (٣)
اذا الريح هزت نورهن تضوعت ... روائحه من فأر مسك مفتق (٤)
كأن القباب البيض والشمس طلقة ... تضاحكها أنصاف بيض مفلق
ومن شرفات فى السماء كأنها ... قوادم بيضان الحمام المحلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل ... فنى لعديم أو فكاكا لمونق

هكذا تحدث البحترى بشوق الى قصور الفتح وهو مقيم بالشام ، فيخبرنا أنه ألقى التفاتة من مرتفعات دمشق على بلاد العراق ، فرأى هضاب لبنان العالية فى ارتفاعها وأنها سحاب معلق بين السماء والارض ، ويذكر أن مقامه بين بصرى ودمشق فى بلاد قومه لم يعد مناسبا ففكر فى الذهاب الى ما يلتجئ بأكنافها ويعيش بين رياضها ، ولذلك فهو يتشوق اليها دوما ألا وهى تلك القصور العالية المقبلة بوجوهها على نهر دجلة هذا النهر صاحب الفضل على تلك الاراضى التى كستها الرياض والزهور بأنواعها العديدة التى تفوح منها روائح المسك عندما تهب بينها الرياح ، ويستوقفنا الشاعر عند تلك القباب البيضاء التى تشبه أنصاف البيض تعلو تلك القصور فى حين ترسل الشمس أشعتها الذهبية وكأنها تضاحكها وتداعبها . أما شرفات القصور فما أشبهها بقوادم الحمام الأبيض الذى يحلق عاليا سابحا فى الفضاء .

" ١ " الديوان ٣ / ١٥٠٩ ـ ١٥١٠

" ٢ " الحيرة البيضاء : مدينة كانت على بعد ثلاثة أميال من الكوفة . الكرخ : اسم لعدة مواضع فى العراق . بصرى : اسم لموضعين أحدهما من أعمال دمشق ، والآخر من قرى بغداد . جلق : من أسماء دمشق .

" ٣ " الحو : من النبات ما كان لونه أسود ضاربا الى الخضرة . أو أحمر ضاربا الى السواد . الأفانين : الضروب والأنواع . أنواف : يقال ثوب أنواف أى ذو خطوط بيض على طول . الوشى : نقش الثوب وتحسينه بالألوان . ملفق : من لفق الثوب ضم شقة منه الى أخرى فخاطها .

" ٤ " تضوعت فاحت . فأر مسك : مفردها فأرة : وعاء المسك . المفتق : المسك خلط بخيره ، أو المستخرجة رائحته .

٢- وصف الطبيعة

وصف الربيع :

وصف البحترى للربيع فتمثله انسانا طلق المحيا مشرق للقسمات يختال ضاحكا من حسنه يكاد يتكلم معبرا عن جماله ومحاسنه ، وأما النيروز وهو أوائل الربيع فقد نبه أوائل الورود التي كانت نائمة فى أكمامها وأيقظها فى فسق الدجى لتتمتع بجمال الربيع يقول(١)

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى فسق الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوما "٢"

أما برد الندى فيفتح هذه الأكمام والبراعم وأنه نشر حديثا كان مكتما من قبل .

وفضل هذا الربيع لا تنساه تلك الاشجار التي كانت عارية لتساقط أوراقها حيث رد أوراقها من جديد وصار لها سها موشى بمختلف الالوان بعد ان كان مطويا وأن هذه الاشجار كانت محرمة للحج فأحلت من احرامها ولبست ثيابها ، وكان منظرها فى ثياب الاحرام قذى للعيون ، أما بعد أن أحلت فقد بدت هاشة باشة . وأما النسيم فقد رق وعبق شذاه بأريج الزهر حتى كأنه حمل أنفاس الأحبة الناعمات :

يفتقها برد الندى فكأنه ... يبث حديثا كان أمس مكتما "٣"
ومن شجر رد الربيع لباسه ... عليه كما نشرت وشيا منمنما "٤"
أحل فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للعين اذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجئ بأنفاس الأحبة نعما

ان هذه الابيات تعتبر من عيون الشعر صور فيها البحترى احساسه لدى هذا الفصل الساحر من فصول العام ، فالربيع بأزهاره وورودة المتفتحة يقبل على الناس كأنما يضحك أو يكاد من الحسن يتكلم ، ثم يأتى عيد الطبيعة فينبه هذا الورد من سباته فيصحو ويفيق ، أما برد الندى فيذيع أسرارا مكتومة ، ورأيناه صور الربيع انسانا عطوفا يعيد الى الاشجار اعتبارها بعد ان كانت متجهمة جرداء ، وبعد أن طوف الشاعر بخياله

"١" الديوان ٤ / ٢٠٩٠ - ٢٠٩١
"٢" النيروز : أكبر أعياد الفرس ، ومعناه بالفارسية " اليوم الجديد " وهو أول يوم من السنة الشمسية .
"٣" يبث : يذيع . يشبه انتشار الاريج على أثر تفتح الورد بسر كان مكتوما فأذيع .
"٤" الوشى : نقش الثوب . منمنم : محسن .

يعود الى صورة من الصور المحسوسة يستمدها من احرام الحجيج حين يتجردون من مخيط الثياب ، أما هذا النسيم فقد أدخل على القلوب المسرة فغدا وكأنه أنفاس الأحباب .

واسلوب الشاعر ملىء بالصور البيانية .

وأشعار البحترى فى هذا الجانب كثيرة فهو يصف الرياض وما فيها من أزهار وورود ، متعددة الالوان مبينا فضل الغيث على الغانى التى فارقها أهلها حيث رد عليها الغيث جمالها وابتسامتها ، فأصبحت خضراء كالحلل المزركشة ، متنوعة الزهور والرياحين ، وكأن أرضها قد ت سماء نجومها شقائق النعمان اذ يقول "١" :

ابكيا هذه الغانى التى أخ ـ ـلفها بعد أهلها المرزبان "٢"
أسعدا الغيث اذ بكاها وان كا ـ ن خليا من كل ما تجدان
جاد فيها بنفسه فاستجدت حللا منه جمة الالوان
فهى تهتز بين افنونه الأخ ـ ضر حسنا ووشيه الأرجوانى "٣"
فى سماء من خضرة الروض فيها أنجم من شقائق النعمان "٤"

وكلما تمادى السائر فى تلك الرياض يشاهد أصنافا متعددة الالوان من الزهور ، فمن أبيض الى أصفر كأنها الفضة والذهب اذا اجتمعا ، أما الحوذان والاقحوان فتميلهما الريح يمنة ويسرة فيتعانقان كالمحبين عند التقائهما بعد فراق ، هذا الى ما تحويه هذه الرياض من المرجان والياقوت من الزهر . والصبا ينسيمها العليل تحمل الروائح الزكية أثناء مرورها بهذه الرياض :

واصفرار من لونه وابيضاض كاجتماع اللجين والعقيان "٥"
وتريك الأحباب يوم تلاق باعتناق الحوذان والاقحوان
فكأن الاشجار تعلو رباها بنثير الياقوت والمرجان "٦"
وكأن الصبا تردد فيها بنسيم الكافور والزعفران

"١" الديوان ٤ / ٢١٩٧ — ٢١٩٨
"٢" الغانى : جمع الغنى وهو المنزل ، المرزبان : نبيل .
"٣" الافنون : جمع الغصن ووشيه : وقد استعاره لخضرة الارض الارجوانى : لون اللون الاحمر نسبة الى الارجوان وهو صبغ أحمر .
"٤" شقائق النعمان : زهر أحمر يوشح بنقط سود كبيرة .
"٥" اللجين : الفضة ، العقيان : الذهب الخالص .
"٦" المرجان : جنس حيوانات بحرية ثوابت ، له هيكل وكلس أحمر ، ويعد من الأحجار الكريمة .

ويصف البحترى رياضا بالجزيرة أغرقتها السحب بالمياه حتى غدت غدرانها المترقرقة تضاحك دجلة الدافقة ، تتحلى بمنشور اليواقيت التي تتلألأ في نور الشمس وتتنقل الطيور بين أفنانها وهى تترنم بأنغام جميلة رائعة يقول "١" :

سرى البرق يلمع فى مزنة ... تمد الى الأرض أشطانها
فكم بالجزيرة من روضة ... تضاحك دجلة ثغبانها "٢"
تريك اليواقيت منشورة ... وقد جلل النور ظهرانها "٣"
فرائب تخطف لحظ العيون ... اذا جلت الشمس ألوانها
اذا غرد الطير فيها ثنت ... اليك الأغانى ألحانها "٤"

أما تأود الغصون وتداعية الريح لها مرة تميلها وأخرى تقيمها فيشبه القد الحسان بقاماتهن الطويلة وتمايل أعناقهن ، ثم ينظر الشاعر الى تنقل أفياء الاشجار عن أماكنها وتطاولها نتيجة تنقل الشمس فى السماء فيراها كالخيل تسحب أعنتها :

كأن العذارى تشى بها ... اذا هزت الريح أفنانها "٥"
تعانق للقرب شجراؤها ... عناق الأحبة أسكانها "٦"
فطورا تقوم منها الصبا ... وطورا تميل أغصانها
جنوح تنقل أفياءها ... كما جرت الخيل أرسانها "٧"

"١" الديوان ٤ / ٢١٧٦
"٢" الثغبان : جمع الثغب وهو الغدير .
"٣" جلل : عم وطبق ، فلم يدع شيئا الا غطى عليه . الظهران : جمع الظهر وهى خلاف البطن .
"٤" ثنى الشيء : رد بعضه على بعض ، عطفه .
"٥" العذارى : جمع العذراء ، وهى الفتاة البكر . الأفنان : جمع الفنن وهو الغصن المستقيم .
"٦" الشجراء : الأرض ذات الشجر الملتف كالأجمة . الاسكان : جمع السكن وهو كل ما يسكن اليه ، وفيه ، ويستأنس به .
"٧" جنوح : جنح : مال يريد الشمس والأفياء : جمع فيء وهو الظل الأرسان : جمع رسن ، وهو حبل الدابة .

وقال يصف الرقة البيضاء ومافيها من مناظر الطبيعة الخلابة : "١"

والمرج مروج العراص مفوف ... تزهى خزامـاه على الحـوذان "٢"
والرقة البيضاء كالخود التى ... تختال بين نواعم أقـران "٣"
من أبيض يقق وأصفر فاقع ... فى أخضر بهج وأحمر قـان "٤"
ضحك البهار بأرضها وتشققت ... فيها عيون شقائق النعمان "٥"
وتنفست أنفاس كل قرارة ... وتغنت الأطيار فى الأفنان "٦"
فكأنما قطر السحاب على الثرى ... عطرا فأذكاه ذكاء بيان
وزكت معالم "ديرزكى" بعد أن ... وسمت يد الوسمى كل مكان "٧"
بعرائس خضر الغلائل ترتمى ... بنواظر نجل من العقيان "٨"
وجفون كافور أعاد بها الصبا ... ضعفا فهن مرائس الأجفان
فاذا العيون تأمنت أشخاصها ... فكأنهن الى العيون روان "٩"
يسعى النقا ما بينهن رسائلا ... فيملن بالتقبيل والرشفان "١٠"
فكأن مثناهن عند هبوبها ... رأد الضحى سكنان معتنقان "١١"
وكأنما تلك القدود أوانس ... كالعين لم يأنس بالانسان
وتفجرت أنهارها بمياهها ... موصولة بفواهق الغدران "١٢"

"١" الديوان ٤ / ٢٣٧٧ / ٢٣٧٨ / ٢٣٧٩
"٢" المرج : الارض الواسعة فيها نبت كثير . العراص : جمع العرصة وهى ساحة الدار ، أوكل بقعة ليس فيها بناء .
"٣" الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . الرقة البيضاء : مدينة مشهورة على الفرات .
"٤" اليقق : الشديد البياض .
"٥" البهار : نبت طيب الرائحة ، ويقال له عين البقر وهو بهار البر .
"٦" القرارة : القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر .
"٧" ديرزكى : دير بالرقة . وسمت : تركت وسما أى علامة وأثرا ، ووسم الوسمى الأرض : أصابها . الوسمى : مطر الربيع الاول سمى بذلك لأنه يسم الارض بالنبات .
"٨" النواظر النجل : الواسعة الحسنة .
"٩" العيون : واحدة منها يقصد بها عيون الماء ، والأخرى الباصرة . روانى : تديم النظر بسكون الطرف .
"١٠" النقا : القطعة من الرمل التى تنقاد محدودبة ، ويريد أعجاز النساء .
"١١" رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء فى شباب النهار .
"١٢" الفواهق : الممتلئة حتى صار مافيها يتصبب .

مثل المرايا فى نمارق سندس ... خضر يروق العين باللمعان "١"
أو فضة فاضت بأرض زمرد ... أو ماء در دار فى مرجان "٢"
فكأنما دينا للسماء على الثرى ... سلفا قديما حل فى نيسان "٣"
ظل السحاب سفيرها وسفيره ... ويقودها عينان ينسجمان "٤"
منحته وهى شجية ببكائها ... ووفى بضحك الموثق الجذلان
متبسم عن لؤلؤ متلألئ ... ونواعم مثل البدور حسان
شغف السحاب بها فروى زهرها ... ريقا فراح كرائح نشوان "٥"
وحبا فدائرها بدر سحه ... وفرائد من لؤلؤ ومرجان "٦"
فتتوجت بجنانها وزهت على ... تلك الرياض ببهجة التيجان

عرض معانى الأبيات :

وصف البحترى مناظر الطبيعة الخلابة التى تحف بالرقة حيث فدت الرقة كالشابة الناعمة الحسناء تحيط بها الروح الخضراء ، والجنان الوارفة الظلال ، والزهور المتعددة الألوان من أبيض وأصفر وأحمر تفوح من بينها روائح عطرية ، وكأن هذه الرياض تنفست فعمت الأرجاء بروائحها الزكية ، ويزيد من حسن هذه الرياض ألحان تلك الطيور التى تتنقل من فنن الى فنن مبتهجة بهذا النعيم .

أما المطر فعندما هطل على الثرى لم يكن بمطر وانما فدا عطرا ، فيد الوسمى كان لها دور كبير حيث روت هذه الرياض وغيرها ، فصارت الأشجار الخضراء تتمايل وترتمى بنظراتها بعضها على بعض بعيون واسعة .

أما عيون الماء بين هذه الرياض فتجرى بمياهها وكأنها تنظر الى العيون التى تبصرها . أما الأشجار التى تحف بهذه العيون فتتمايل أفنانها كما تتمايل الآنسات فى عنج ودلال وكأنهن يفر الوحش تنفر من الانسان . وأما الأنهار فتفجرت بالأمواه

"١" النمارق : جمع النمرق والنمرقة وهى الوسادة الصغيرة يتكأ عليها . السندس ضرب من نسج البز أو من رقيق الديباج .
"٢" الزمرد : حجر أخضر اللون شديد الخضرة شفاف .
"٣" نيسان : من شهور السنة الشمسية ، وهو ما يقابل شهر ابريل .
"٤" السفير : الرسول المصلح بين فريقين .
"٥" الريق : من كل شىء أوله وأفضله ، والريق : الماء المعانه .
"٦" حبا : أعطى . الغدائر : جمع الغديرة وهى الذؤابة . السح : سيلان الماء من فوق الى أسفل ، أو الانصباب بالمتتابع الكثير .

وأخذت الغدران الممتلئة تمدها وتصلها بالماء ، حتى اذا نظر اليها الانسان تجرى بين الرياض الخضراء توهم أنه أمام المرايا المجلوة أو الفضة البيضاء فاضت بأرض زمرد . ولكثرة ما انهمر على تلك الرياض من أمطار يرى الشاعر وكأن هناك دينا للسماء عند الثرى ينتهى أجله فى شهر نيسان ، ولكن الثرى مماطل عن دفعه وعدم الوفاء به ، وحينئذ يتدخل السحاب للصلح بينهما ، ولكن السماء لا تتمالك فتنهمل دموعها الغزيرة على أرجائه ، فلم يكن منه الا أن وفى بدينها وقضاه بما ابتسم به عن زهور وورود ، فشغفت السماء بحب هذه الرياض فروت زهرها بالريق المدرار وحولتها الى جنان تزهو بالأزهار على أوراقها كأنها التيجان .

وهكذا يصف شاعر الطبيعة ، الطبيعة وصفا رائعا وبديعا بما فيها من أزهار وشقائق ويواقيت وروائح عطرية . ولاشك أن هذه الابيات تزخر بالصور البيانية والمحسنات البديعية .

وصف سحابة :

وصف البحترى سحابة تملأ الكون بصوت رعدها المدوى ، فتسد الأفق وتكاد أذيالها تمس الأرض لكثرة ما تحمله من الماء ، ثم أخذت تصب أمطارها والنسيم ذو أريج كأريج الورد ، وهذه السحابة لاتكف عن الرعد الذى يشبه زئير الأسد ، والبرق اللامع كسيوف الهند . يقول : ("١")

ذات ارتجاز بحنين الرعد ... مجرورة الذيل صدوق الوعد "٢"
مسفوحة الدمع لغير وجد ... لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ... ولمع برق كسيوف الهند

هذه السحابة ساقتها ريح الصبا من بلاد نجد حيث أخذت تنثر قطرات مائها كما تنثر حبات العقد ، فابتهجت الأرض بهذا المطر وأخصبت بأنواع متعددة من الأزهار والورود والرياحين .

أما النسيم فأخذ يحرك ما على وجه الغدران من فقاعات فصارت الغدران وكأنها تلعب بالنرد :

جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... من وشى أنوار الربا فى برد

("١") الديوان ١ / ٥٦٧ - ٥٦٨
("٢") ارتجاز : ارتجز الرعد : سمع صوته متتابعا .

كأنما غدرانها فى الوهـــد يلعبن من حبابها بـــالنرد "١"

هكذا صور الشاعر هذه السحابة ضخمة مجلجلة فى السماء يرعودها لامعة ببروقها تثر قطرات مائها لتسقى الأنوار وتترك فى الوهاد غدرانا يلعب الحباب فوق سطحها .

ويصف البحترى سحابا اشتد انصباب مائه حتى عم الأرض وغطاها ، أما الريح فتسوقه وتدفعه حتى تجعله قريبا من الأرض ، وصوت الرعد تأنه يناجى هذا السحاب تارة وينجيه أخرى اذ يقول : "٢"

أما ترى العارض المنهل دانيه قد طبق الأرض وانحلت عزاليه "٣"
فالريح تزجيه تارات وتحدره والرعد ينجيه طورا أو يناجيه

وعندما يبكى هذا السحاب يبتسم وجه الأرض عن الزهور المتنوعة التى قل أن يرى مثلها ، وما ذلك الا لانسكاب هذا السحاب وغمره للبقاع

يبكى فيضحك وجه الأرض عن زهر كالوشى بل لاترى وشيا يدانيه
ما زال يسكب سحا مسبلا فدقا لايستفيق ولى عين تبـــاريه

ووصف الشاعر روضا تكثر فيه أنواع الرياض التى تنال اعجاب النفوس اذا انسكب الماء فيه امتلأت وهاده بالمياه فتهب الريح ، وعندما تلامس سطح هذه المياه تكون حبكا متكسرة ، أما اذا هدأت الريح فيظنه الناظر اليه سيفا صقيلا مجردا من غمده . أما الحمام فأخذ يتنقل من غصن الى غصن يترنم بأعذب الألحان حتى أن سامعه من شدة انسجامه ينسى أئمة الغناء كالغريض ومعبد . يقول :

وروض كساه الطل وشيا مجددا فأضحى مقيما للنفوس ومقعدا "٤"
اذا ما انسكاب الماء عاينت خلته وقد كسرته راحة الريح بردا
وان سكنت عنه حسبت صفاءه حساما صقيلا صافى المتن جردا

"١" الوهد : الأرض المنخفضة . الحباب : فقاقيع الماء . النرد : اللعبة المعروفة باسم "الطاولة" .
"٢" الديوان ٤ / ٢٤٤٤
"٣" العارض : السحاب المعترض فى الأفق . العزالى : جمع العزلاء وهى مصب الماء من القربة أو نحوها . يقال : أرسلت السماء عزاليها اذا انهمرت بالمطر .
"٤" الديوان ٢ / ٨٤٠

وغنت به ورق الحمائم حولنا غناء ينسيك الغريض ومعبدا "١"

ويتابع شاعرنا تجواله في وصف الطبيعة ورسمها فيصف الغيث والبرق ، ويجعل البرق يذيب السحب ويقضي عليها ، فتطير به ريح الصبا وهي تعبق بالرائحة الطيبة ، أما البرق فيلتمع في الماء فيشع ضوءً كضوء القمر يقول : "٢"

فيث أذاب البرق شحمة مزنه فالريح تنظم فيه حب الجوهر
وكأنما طارت به ريح الصبا من بعد ما انغمست به في العنبر "٣"
ويضيء تحسب أن ماء فمامه قمر تقطع في اناء أخضر
من ذا رأى فيثا تأزر برقه في عارض هريان لم يتأزر "٤"

ويعطينا البحتري صورة للربيع والرياض، فبعد أن انقضى فصل الشتاء وافى فصل الربيع فأشرقت الآفاق وأضاءت ، فمن زهور الحوذان والاقحوان التي اتخذت أشكالا جميلة كاللآلئ والجواهر المنظومة ، الى رياض تفوح بروائح الورود والرياحين الشذية والى ليل كساه الصيف بُرودا رقيقة . يقول من قصيدة مدح : "٥"

ذهبت جدة الشتاء ووافـ ـنا شبيها بك الربيع الجديد "٦"
أفق مشرق وجـو أضاءت في سناء نوره الليالي السود
وكأن الحوذان والأقحوان الـ ـغض نظامه لؤلؤ وفريد "٧"
قطرات من السحاب وروض نثرت ورد ها عليه الخدود
وليال كسين من رقة الصيـ ـف فخيلن أنهن برود "٨"

"١" الغريض: عبد الملك أبو زيد وهو من رجال الغناء المبرزين في العصر الأموي. معبد : نابغة الغناء في العصر المذكور.
"٢" الديوان ٢ / ٩٥٠
"٣" العنبر : مادة صلبة اذا سحقت أو أحرقت انبعثت منها رائحة ذكية.
"٤" تأزر : اتخذ ازارا يتستر به .
"٥" الديوان : ٢ / ٧٢٢
"٦" المخاطب : الفتح بن خاقان.
"٧" اللؤلؤ : جسم صلب في يتكون داخل بعض أنواع المحار البحري.
"٨" البرود : الأثواب.

وفى البرق والمطر أيضا يقول : "١"

فاذا تحمل من تهامة بارق لجب تسير مع الجنوب زحوفه "٢"
صخب الرواح اذا تصوب مزنه ذعر الأجادل فى السماء حفيفه "٣"
فسقى اللوى لا بل سقى عهد اللوى أيام نرتبع اللوى ونصيفه "٤"

وقال واصفا المطر وما بين الدكتين من زهور وورود : "٥"

قد تمادى الولى فى هطلانه وأتانا الوسمى فى ابانه "٦"
وأرى الدكتين بينهما أفـ ـواف روض كالوشى فى ألوانه
فى ضروب من حسن نرجسه الغض ومن آسه ومن زعفرانه "٧"

ويتابع شاعرنا وصف الرياض وما تحويه من زهور وورود ، فيرى أن الرياض أحسن من ملاءة السندس ، تتخلله خيوط مذهبة لمطارف لم تعد للباس ، يعبث فى جوانبها فوح الكافور ، ويبرق فى حواشيها قاتم أملس الزمرد . يقول : "٨"

هذى الرياض بدا لطرفك نورها فأرتك أحسن من رياط السندس "٩"
ينشرن وشيا مذهبا ومدبجا ومطارفا نسجت لغير الملبس "١٠"
وأرتك كافورا وتبرا مشرقا فى قاتم مثل الزمرد أملس "١١"

واذا همس النسيم بين هذه الرياض تمايلت أعناقها كتمايل الغادات المنعمات النواعس يترنحن ترنحا من الدل والغنج . أما شذاه وعبقه فيقف دونه المسك.

"١" الديوان ٣ / ١٤٢٣
"٢" البارق : السحاب ذو البرق ، شبهه بالجيش اللجب أى أنه ذو جلبة وكثرة . الجنوب : ريح الجنوب . تهامة : أراضى السهل الساحلى الغربى الضيق الممتد من شبه جزيرة سيناء شمالا الى أطراف اليمن جنوبا .
"٣" الأجادل : جمع الأجدل وهو الصقر .
"٤" اللوى : منقطع الرمل واللوى : واد من أودية بنى سليم .
"٥" الديوان ٤ / ٢١٦٩
"٦" الولى : المطر يسقط بعد المطر أو المطر بعد الوسمى . الوسمى : مطر الربيع الأول وسمى الوسمى لأنه يسم الارض بالنبات . ابانه : حينه وأوله .
"٧" النرجس : نبت من الرياض تشبه به العيون . الآس : ضرب من الرياحين .
"٨" الديوان ٢ / ١١٧٩ — ١١٨٠
"٩" الرياط : جمع ريطة وهى ملاءة قطعة واحدة وكلها نسيج واحد .
"١٠" المدبج : المنقوش . المطارف : جمع مطرف وهو رداء من حرير ذو رسوم .
"١١" الكافور : نبت طيب زهره كزهر الاقحوان . الزمرد : حجر كريم شفاف شديد الخضرة

متمايل الأعناق فى حركاتـــه كسل النعيم وفترة المتنعس
متحليـا من كل حسن مونـق متنفسـا بالمسك أى تنفـس

ويقول فى وصف روضة مخضرة بالنبات سقتها السحب فانتشر الحوذان فى جوانبها متفتحا مشرقا ، واذا أجلت نظرك بها تتوهم أن دنانير الذهب من محتوياتها . اذ يقول : "١"

لدى روضة جاد الربيع نباتها بغر الغوادى تستهل وتسكب
اذا أصبح الحوذان فى جنباتها يفتح وهمست الدنانير تضرب

كما وصف البحترى الروض فرآه يانعا لاصقا بالأرض ، ورسم صورة فريدة للندى يعلو الزهر الأحمر فجعله كدموع التصابى فى خدود الحسناوات الأبكار .

أما زهر الأقحوان فمنظم تنظيما رائعا كالجواهر والدر ، وشبه جنى الحوذان بدنانير الذهب اللامعة يقول : "٢"

ولازال مخضرا من الروض يانع عليه بمحمر من النور جاسد "٣"
شقائق يحطن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد "٤"
ومن لؤلؤ فى الأقحوان منظم على نكت مصفرة كالفرائد "٥"
كأن جنى الحوذان فى رونق الضحى دنانير تبر من تؤام وفارد "٦"
رباع تردت بالرياض مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد "٧"

وفى احدى دعوات يونس بن بغا وصف الشاعر الرياض ، وما فيها من أزهار بعد أن نزل عليها المطر يقول : "٨"

شاهدت أيام السرور فلم أجد يوما يسر كيوم دعوة يونس "٩"
أدنى مزار وسط أحسن بقعة وأجل زوار لأبهى مجلس

"١" الديوان ١ / ١٣٥
"٢" الديوان ١ / ٦٢٣
"٣" الجاسد : اللاصق .
"٤" الخرائد : جمع الخريدة وهى البكر وفى الأصل : اللؤلؤة لم تثقب .
"٥" الأقحوان : من نبات الربيع مفرش الورق ، دقيق العيدان ، له نور أبيض . النكت : جمع نكتة وهى النقطة السوداء فى الأبيض ، وقيل البيضاء فى الأسود . الفرائد : جمع القريدة : الجوهرة النفيسة وقيل : الدر اذا نظم وفصل بغيره .
"٦" التؤام : التوأم . الفارد : الفرد . الحوذان : من نبات السهل يرتفع قدر ذراع له زهرة حمراء فى أصلها صفرة ، وورقته مدورة ، حلو طيب الطعم .
"٧" الرباع : جمع الربع وهو الموضع يتربعون فيه . مجودة : أصابها الجود وهو المطر الغزير .
"٨" الديوان ٢ / ١١٥٠ — ١١٥١ "٩" يونس بن بغا : من ندماء الخليفة المعتز .

في روضة خضراء يشرق نورها تسقى مجاجات الغيوم البجس "١"
فخر الربيع على الشتاء بحسنها يوم تليق به كبار الأكؤس

ويتابع شاعرنا تجواله بين معالم الطبيعة فيصف يوما شاتيا عند دجلة تصفر الرياح اذا مرت بأشجار الأثل فيه حتى تكاد تزعزعه ثم تحمل اليه قطرات من المطر تروى ما حول دجلة من رياض وقد استدارت في ذلك الموضع كأنها الهلال أو السوار فيقول من قصيدته التي يمدح بها الحسن بن وهب : "٢"

رضينا من مخارق وابن خير بصوت الأثل اذا متع النهار "٣"
تزعزعه الشمال وقد توافى على أنفاسها قطر صغار "٤"
فداة دجنة للغيث فيها خلال الروض حج واعتمار "٥"
كأن الريح والقطر المناجى خواطرها عتاب واعتذار
كأن مدار دجلة حين جاءت بأجمعها هلال أو سوار

وهكذا يطيل شاعرنا في وصف الطبيعة من رياض وامطار وبروق ورعود . ولكنه لا يلبث أن يرتفع بناظريه الى السماء فيرى الثريا وسهيلا فيصفهما بقوله : "٦"

كأن الثريا سابح متبدد لجويه ماء يستقل ويرجع
اذا ما أهابت عن تزاور جانب بصيوقها مزهوة جاء يهرع
تأيا مع الاسماء تتبع ضوءه وتسبقه فوت الصباح فيتبع
كأن سهيلا شخص ظمآن جانح مع الأفق في نهى من الارض يكرع

وهكذا رافقنا البحتري في نفثاته في الطبيعة فلنرافقه في جانب آخر لنرى رسوما أخرى للأقاليم والمدن مابين الشام والعراق .

"١" مجاجات الغيوم : الأمطار . البجس : المتفجرة الهاطلة .
"٢" الديوان ٢ / ٩٦١
"٣" مخارق وابن خير من المشهورين بالغناء . الأثل : شجر عظيم صلب الخشب . متع النهار : بلغ غايته وارتفاعه .
"٤" توافى : يقال توافى القوم : تتاموا .
"٥" الدجنة : الظلمة . ويريد بالحج والاعتمار : الزيادة .
"٦" الديوان ٢ / ١٢٧٣

٣ـ وصف المدن والأقاليم

لم يغفل البحترى المدن والقرى التى كان يرتادها ، بل وصف أكثرها وصفا رائعا مجليا محاسنها ولاسيما اقليم الشام الذى يفتخر به ويحن اليه دائما وكثيرا ما كان يخرج من العراق لزيارته والاقامة فى ربوعه . كما أنه وصف العراق ومدنه ، وسوف نعيش مع الشاعر ونرافقه فى تجواله فى بعض الأماكن التى وصفها فمن دمشق الى بطياس وغيرها من اقليم الشام ومن بغداد الى المتوكلية والمحمدية فى العراق . وغير ذلك ..

"أ" وصف الشام

فى فصل الصيف وعندما يطيب المقام فى ربوع الشام وعندما يتذكر البحترى نهر الساجور وما حوله من تلاع وبساتين ونسيم عليل ، يتجه نظره الى تلك الجنان الوارفة ليصطاف هناك ونجده يحن اليها وهو فى أرض العراق : "١"

حنت ركابى بالعراق وشاقها ... فى تاجر برد الشآم وريفه "٢"
ومدامع الساجور حيث تقابلت ... فى ضفتيه تلاعه وكهوفه "٣"

ويصف دمشق عند قدوم المتوكل اليها وكأنها فانية تبدى محاسنها لناظرها ولافرابة فى هذا فكل شىء فيها حسن حتى زمانها يشبهها فى الحسن والجمال ، وهذا السحاب يتلبد على بالها مع قدوم المساء فلا يلبث ان يحيى النبات فى الصحارى فيعمها فلا تبصر الا المطر المنهمر المدرار يبلل النباتات التى تغرد الطيور فى أرجائها فينعم الناس بربيع يزورهم بعد غياب . ونراه يقول من قصيدة يمدح بها المتوكل : "٤"

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا "٥"
اذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا ... ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا ... أو يانعا خضرا أوطائرا فردا "٦"

"١" الديوان ٣ / ١٤٢٣ "٢" ناجر : كل شهر من شهور الصيف لأن الابل تتجرفيه أى تعطش . "٣" المدافع : مجارى الماء والمسائل . الساجور : نهر منبج .
"٤" الديوان ٢ / ٧١٠ "٥" المطرى : المبالغ فى المدح .
"٦" الواكف : المطر المنهل . الخضل : الندى المبتدل . اليانع : الطيب الذى حان قطافه .

كأنما القيظ ولى بعد جيئتـــه أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

ويصف الشاعر دمشق أيضا ويقول انها احدى جنان الدنيا أرضها طيبة وروضها مخضر ، وجوها واسع ، وماؤها عذب ، والدهر فيها غير مقيد ، وعيشها ناعم ، متعدد الأشكال والأصناف ، ويستفهم الشاعر فى تعجب كيف لا يكون هواه معها مع أن صيفها شبيه بشتاء العراق : "١"

ان دمشقا أصبحت جنـــة مخضرة الروض عذاة السبراق "٢"
هواؤها الفضفاض فى الندى وماؤها السلسال عذب المذاق "٣"
والدهر طلق بين أفيائها والعيش فيها ذو حواش رقاق "٤"
وكيف لا نؤثرها بالهـــوى وصيفها مثل شتاء العـــراق

وعندما رحل الشاعر من العراق الى دمشق فرح بذلك فرحا شديدا لما سيلقاه من بلد حسن ، ولهو دائم ، ويندد بقيظ العراق اذ يقول : "٥"

قد رحلنا عن العـــرا ق وهن قيظها النكـــد
حبذا العيش فى دمشـ ـق اذ ليلهـــا بـــرد
حيث يستقبل الزمـــا ن ويستحسن البلد
سفر جددت لنا الـ ـلهو أيامه الجـــدد

ويتابع شاعرنا وصف العراق والشام ، فيخبر أن العراق بلد طيب حسن الا أن هناك ما ينغص عليه هذا الحسن ، وهو شدة حرها ، وقيظها ، ولذلك فهو يولى منها هاربا فى هذا الفصل ، ولكنه يهواها ويولع بها عندما يطيب صيفها ، ويجعلها عشيقته الأولى ، ومع كثرة تجواله الا أنه لم ير مثل الشام لمن أراد المقام ، فهى تبعث السرور وتسر العيون لجوها الصحى المفيد ، علاوة على تقديسها ، لأن الربيع عمها حتى دورها تصبح رياضا خضراء حيث يقول : "٦"

نصب الى طيب العراق وحسنها ويمنع منها قيظها وحرورهـــا

"١" الديوان ٣ / ١٥١٤
"٢" العذاة : الأرض الطيبة التربة . البراق : واحدتها برقة وهى الأرض الغليظة المختلطة بحجارة ورمل .
"٣" هواؤها : جوها . الفضفاض : الواسع . السلسال : العذب .
"٤" الحواشى : الجوانب .
"٥" الديوان ٢ / ٧٠٨ "٦" الديوان ٢ / ٩٤٣

هى الأرض نهواها اذا طاب فصلها ... ونهرب منها حين يحمى هجيرها
عشيقتنا الأولى وخلتنـــا التى ... نحب وان أضحت دمشق تغيرها
عنيت بشرق الأرض قدما ومغربـــا ... أجوب فى آفاقها وأســـيرها
فلم أر مثل الشـام دار اقامـــة ... لراح تغاديها وكأس تديرهـــا
مصحة أبدان وتزهـــة أعـــين ... ولهو نفوس دائم وســـرورها
هذه جاد الربيع بلادهـــا ... ففى كل دار روضـة وغـــديرها

ويصف البحترى "الصالحية" وهى قرية قريبة من الرقة وعندها بطياس كما ذكر ياقوت. ويصف ماحولها من مناظر الطبيعة الخلابة، حيث اكتست أرضها بالرياض والزهور، وقـــد أخذ الربيع ينسج أزهاره وورودة حولها بعد أن انسكبت دموع السماء بها، فصـــارت تختال وتبتسم فى حلل صـــفر وخضر مزركشـة الألـوان: "١"

أخذت ظهور الصالحية زينـــة ... عجبـا من الصفراء والحمـراء
نسج الربيـع لربعها ديباجـة ... من جوهر الأنوار والأنـــواء
بكت السماء بها رذاذ دموعها ... فغدت تبسم عن نجـوم سـماء
فى حلة خضـراء نعـم وشيهـا ... حوك الربيع وحلة صـــفراء

ويتابع ابو عبادة وصف اقليم الشام ومدنه، ومنها بطياس عندما مر بها، ورأى مـــا فيها من مناظر الطبيعة، وبطياس قرية قرب حلب فلما نظر اليها رآها لكثرة مافيهـــا من أشجار اللبلاب وغيره كأنها الطنافس المزركشـة المتعددة الألوان، فيعجب عندمـا يرى انهمال المطر عليها وكأنه لؤلؤ، ومانتج عن ذلك من نور أحمر وأخضر وغيرهما. وعندما يوافيه الندى يصبح كالـدر والجوهـر على الأوراق فلو تقابله الشمس لـــرد ضياءها لانعكاس أشعتها عليه ولنستمع اليه اذ يقول: "٢"

مررنا على بطياس وهى كأنهـا ... سبائب عصب أو زرابى عبقـر "٣"
كأن سقوط القطر فيها اذا انثنى ... اليها سقوط اللؤلؤ المتحدر
وفى ارجوانى من النور أحمـر ... يشاب بافرند من الروس أخضر "٤"

"١" الديوان ١ / ٦
"٢" الديوان ٢ / ٩٨٠
"٣" السبائب: جمع سبيبة وهى شقة من الثياب أى نوع كان. وقيل من الكتان. العصب: شجر اللبلاب. والعصب أيضا نوع من البرود. الزرابى: الطنافس المخملة، أى البسط. عبقر: زعموا انه موضع بالبادية كثير الجن، وذكروا أنـه موضع بالجزيرة كان يعمل به الوشى. نسبوا اليه كل شىء تعجبوا من جودة صنعته
"٤" الارجوانى: صبغ أحمر. الافرند: جوهر السيف ووشيه.

اذا ما الندى وافاه صبحا تمايلت أعاليه من در نثير وجوهر
اذا قابلته الشمس رد ضياءها عليها صقال الأقحوان المنور

ويخرج الشاعر الوصاف على رواية بطياس المرتفعة ورياضها المبسوطة ، فيصف مافيها من الأكم والنبات ، وطيب أرضها تسقيها المزن ماء نميرا مدرارا يحولها الى جنان خضر ، ويفضل البحترى هذا المكان على وادى نعمان المعروف بأشجاره ورياضه يقول : "١"

أحبب الينا بدارة علوة مسن بطياس والمشرفات من أكمه "٢"
بساط روض تجرى منابعه فى مرجحن الغمام ومنسجمه "٣"
يفضل فى آسه ونرجسه نعمان فى طلحه وفى سلمه "٤"
أرض عذاة ومشرف أرج وماء مزن يفيض فى شبمه "٥"
هل أرد العذب من مناهله أو أطرق النازلين فى خيمه "٦"

هذا بعض ما قاله شاعرنا فى بلاده " الشام " فقد رأينا أنه استوفانا فى مدنه وقراه ويترك البحترى الشام متوجها الى وصف العراق فلنصحبه فى تجواله فى وصفه .

"١" الديوان ٤ / ٢٠٦٣

"٢" علوة : محبوبة الشاعر وهى " علوة بنت زريقة الحلبية " . الأكم : جمع أكمة وهى ما ارتفع من الأرض .

"٣" ارجحن الشيء : مال واهتز . انسجم : انصب .

"٤" الآس : الريحان . نعمان : واد بين مكة والطائف . الطلح : شجر ضخم له شوك . السلم : نوع من الشجر به شوك .

"٥" أرض عذاة : طيبة . المشرف : المكان المرتفع . الأرج : ذو الرائحة الطيبة . الشبم : البرد .

"٦" المناهل : جمع منهل وهو موضع الشرب .

(ب) وصف العـــراق

وكما وصـف البحترى بلده الأول "الشام" فهو لا ينسى بلده الثانى "العراق" ذلك البلد الذى وجد فيه التكريم واحتل المنزلة الرفيعة بقدومه اليه ، ولما كـان العراق مقر الخلافة فقد وجد الشاعر فيه ميدانا فسيحا لشعره الوصفى ، وقد ســبق لنا وصـفه للقصور العباسية .

يصف البحترى ربوة بالعراق ، ويذكر مرتبعا بين دير "العاقول" ودير "قـنى" عامرا ببساتين الزيتون والنخل فيقول فيه : "١"

نزلوا ربوة العراق ارتيادا ... أى أرض أشد ذكرا وأسـنى
بين دير العاقول مرتبعى شـ ... ـرف محتله الى دير قـنى "٢"
حيث بات الزيتون من فوقه النخـ ... ـل عليه ورق الحمام تغنى

ويصف بغداد وكيف استولت على لبه ، وجعلته ينسى الشام ، ويصف منزلـه عند دجلة ، ومياه النهر ، وما يعلوها من أمواج ، ويصف ما على جانبى النهـر من نخيل وأطيـار فيقول : "٣"

شغلت بغداد شوقى عن قرى ... عند ميثاء وعـرس وأرك "٤"
منزل لى بالعـراق اخترتـه ... لم يشب حر يقينى فيـه شك
واذا دجلة مدت شـأوهـا ... وجرت جرى اللجين المنسبك "٥"
عارضت ربعى بفيض مزبـد ... بين أمواج تسامى وحبـك
يتكفا النخل فى حافاتهـا ... بالقمارى تغـنى أو تبـك "٦"
حنيت تلك العراجين عـلى ... لؤلؤ فيه وخوص كالشـرك "٧"

"١" الديوان ٤ : ٢١٤٧
"٢" دير العاقول : على شاطئ دجلة بالقرب من بغداد ، وبالقرب منه دير قنى .
"٣" الديوان ٣ : ١٥٦٤
"٤" الميثاء : الأرض اللينة ، ويقصد الشاعر ناحية "الشام" . عرس : بلد فى برية الشام من أعمال حلب . أرك : مدينة صغيرة فى طرف برية حلب ، قرب تدمر .
"٥" اللجين : الفضة . المنسبك : المذاب ، المفرغ فى قالب . الشأو : الغاية يريد بلغ مداها فاتته .
"٦" يتكفا : يميد ويتمايل . تبك : تبكى . القمارى : جمع القمرى وهو نوع من الحمام .
"٧" عراجين النخل : ما يبقى على النخل يابسا بعد أن تقطع عنه الثمار .

المتوكلية :

المتوكلية مدينة بناها الخليفة "المتوكل" قرب سامراء ، بنى بها عدة قصور من بينها قصر الجعفرى - السابق الذكر - وقتل بها فى شهر شوال عام ٢٤٧ هـ فتركها الناس الى سامراء .

والشاعر يصفها بالحسن والاكتمال ، وقد لمعت قصورها كالكواكب تضيء للسارى الطريق ، أما برها فهو كالبرود الموشاة ، فمن الحوذان الى الخزامى تعبق بالشذا قد عمها الربيع بفضل فوادى المزن التى تسوقها الرياح اللينة الرخيمة فتنبت أرضها كل غريب من الأزهار والثمار ترسل عليها الشمس أشعتها الذهبية حينا ، وينهمر الغيث عليها حينا آخر فيقول : "١"

أرى المتوكلية قد تعالت	محاسنها وأكملت التماما
قصور كالكواكب لامعات	يكدن يضئن للسارى الظلاما
وبر مثل وشى البر فيه	جنى الحوذان ينشر والخزامى "٢"
اذا برق الربيع له كسته	فوادى المزن والريح الرخامى "٣"
فرائب من فنون النبت فيها	جنى الزهر الفرادى والتؤامى "٤"
تضاحكها الضحى طورا وطورا	عليها الغيث ينسجم انسجاما "٥"

ويصف هذه المدينة التى بان المتوكل يصطاف بها ويرتبع ، فاذا هى فيحاء ، مشرقة تقوم على البر والبحر ، واسعة الأرجاء والأكناف ، وها هو يقول : "٦"

يهنيك فى المتوكلية أنها	حسن المصيف بها وطاب المربع "٧"
فيحاء مشرقة يرن نسيمها	ميث تدرجها الرياح الأربع "٨"
وفسيحة الأكناف ضاعف نسجها	بر لها مفضى وبحر مترع

"١" الديوان ٣ : ٢٠١١

"٢" الخزامى : نبات زهره أحمر فى أصله صفرة طيب الرائحة . الجنى : ما يجنى من ثمر أو غيره .

"٣" الفوادى : جمع فادية وهى السحابة القادمة فى أول النهار . الرخامى : اللينة .

"٤" التؤامى : المزدوجات .

"٥" انسجم الغيث : انسكب . الضحى : يقصد شمس الضحى .

"٦" الديوان ٢ : ١٣١١

"٧" المربع : كالمتربع الموضع الذى يقام فيه فى فصل الربيع .

"٨" فيحاء : واسعة . الميث : الباردة . أو الأرض اللينة السهلة من غير رمل . الأجرع : رمل مستو لا ينبت .

المحمدية :

المحمدية قرية قرب سامراء سماها المتوكل " المحمدية " باسم ابنه "محمد" المنتصر ، وكانت تعرف قبل ذلك بـ (دير أبي صفرة) وهم قوم من الخوارج .

وصف البحتري هذه القرية مبينا حسنها واشراقها في العيون وتربتها تفوح منها رائحة طيبة اذا أمطرتها السماء ، واذا تطلع الناظر الى أشجارها رآها خضراء مورقة مثمرة لما يكتنفها من المياه ، يقول : "١"

قد تم حسن المحمدية بالبد
ر الذي بالضياء يغمرها
مشرقة في العيون ضاحكة
مبدأها آنس ومحضرها
تبدي نسيم الكافور تربتها
اذا فدت والسماء تمطرها "٢"
وفارساباد اذ تكنفها
مورق أشجارها ومثمرها "٣"
جنة عدن متى حللت بها
شهدت أن القاطول كوثرها "٤"

وهكذا طفنا مع الشاعر هذ الديار ، حيث أعطانا صورا واضحة وجلية عنها .

"١" الديوان ٢ : ١٠٧٥
"٢" الكافور : نبت له رائحة عطرية ، وطعمه مر .
"٣" فارساباد : لم تذكره معاجم البلدان ، وربما يكون جدولا أو مجرى ماء .
"٤" القاطول : نهر في موضع سامراء كأنه مقطوع من دجلة . عدن : اقامة . حللت بها : أقمت بها .

٤ - وصف الحيوانات

وصف الذئب :

قال البحترى يصف الذئب ولقاءه اياه : "١"

وليل كأن الصبح فى أخرياته ... حشاشة نصل ضم افرنده غمد "٢"
تسربلته والذئب وسنان هاجع ... بعين ابن ليل ماله بالكرى عهد "٣"
أثير القطا الكدرى عن جثماته ... وتألفنى فيه الثعالب والربد "٤"
وأطلس ملء العين يحمل زوره ... وأضلاعه من جانبيه شوى نهد "٥"
له ذنب مثل الرشاء يجره ... ومتن كمتن القوس أعوج منأد "٦"
طواه الطوى حتى استمر مريره ... فما فيه الا العظم والروح والجلد "٧"
يقضقض عصلا فى أسرتها الردى ... كقضقضة القرور أرعده البرد "٨"
سما لى وبى من شدة الجوع مابه ... ببيداء لم تحسس بها عيشة رفد "٩"
كلانابها ذئب يحدث نفسه ... بصاحبه والجد يتعسه الجد "١٠"
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته ... فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد "١١"

"١" الديوان ٢ : ٧٤٢ - ٧٤٣
"٢" حشاشة نصل : بقية سيف . افرند السيف : جوهره ووشيه .
"٣" تسربلته : لبسته أو سرت فيه . وسنان : ناعس . هاجع : نائم . ابن الليل : دائم السير فيه . أو اللص . الكرى : النوم الخفيف .
"٤" أثير : أهيج . القطا : جمع قطاة وهى طائر فى حجم الحمام . الكدرى : ضرب من القطا يميل الى السواد والغبرة . جثماته : مراقده . الربد : جمع أربد وهو الأسد .
"٥" الأطلس : الذئب فى لونه غبرة ضاربة الى سواد . ملء العين : يملأ عين الناظر اليه لضخامته . الزور : أعلى وسط الصدر . الشوى : الأطراف . النهد : البارز .
"٦" الرشا : الحبل . المتن : الظهر . منأد : معوج .
"٧" الطوى : الجوع . استمر مريره : قوى بعد ضعف .
"٨" القضقضة : صوت كسر العظام ، يريد أنه يحرك أنيابه ويحك بعضها ببعض . العصل : الأنياب المعوجة الواحد أعصل . أسرتها : خطوطها . الردى : الموت . القرور : الذى أصابه البرد .
"٩" سما لى : خرج لى وقصدنى . البيداء : الصحراء .
"١٠" الجد : بالفتح الحظ وبالكسر : الاجتهاد . أتعسه : أشقاه .
"١١" أقعى : جلس على مؤخرته . ارتجزت : رفعت صوتى .

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض والليل مسود "١"
فما ازداد الا جرأة وصرامة وأيقنت أن الأمر منه هو الجد "٢"
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد "٣"
فخر وقد أوردته منهل الردى على ظمأ لو أنه عذب المورد
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته عليه وللرضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا منه لم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد "٤"

عرض معنى الأبيات :

لقى البحترى ذئبا فى بعض أسفاره ودارت بينهما معركة انتهت بانتصار الشاعر ابتدأ وصفه بتصوير الجو الذى دارت فيه المعركة ، فقد كان شاعرنا يسير فى أخريات الليل لا يهتدى الى مواقع أقدامه وهو يمشى ، فكان يثير القطا عن مراقده ، فى وقت مظلم لم يكن يمشى فيه الا الأسود والثعالب ، أما الذئاب فلا عهد لها بالنوم حقها منه النعاس الخفيف كاللصوص :

وليل كأن الصبح فى أخرياته حشاشة نصل ضم افرنده فمد
تسربلته والذئب وسنان هاجع بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد
أثير القطا الكدرى عن جثماته وألفى فيه الثعالب والربد

صورة الذئب :

ويصف الشاعر الذئب الذى لقيه بأنه مغبر طويل مهيب قوى الأعضاء بارزها له ذنب طويل كالحبل يجره وراءه ومتنه مقوس قد أضمه الجوع واشتد به فلم يعد الا جلدا على عظام تتردد فيه الروح ، وله أسنان وأنياب صلبة معوجة يمكن الموت فيها ، تصوت وتحتك كما يفعل الفرور حين يرعده البرد القارس :

وأطلس ملء العين يحمل زوره وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره ومتن كمتن القوس أعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه الا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا فى أسرتها الردى كقضقضة الفرور أرعده البرد

"١" أوجرته : طعنته . الخرقاء : النبلة الشديدة أو السنان . تحسب ريشها : تظنها كوكبا منقضا له ريش .
"٢" الصرامة : المضاء والشجاعة .
"٣" أضللت نصلها : فيبت حديدتها وأدخلتها . بحيث يكون اللب والرعب والحقد : القلب .
"٤" الخسيس : الدنىء الحقير . منعفر : ممرغ فى التراب .

ويصور البحترى موقف الاثنين ، فكلاهما جائع يريد أن يفترس صاحبه والمجد هو صاحب الحظ منهما ،

سما لى وبى من شدة الجوع مابه ببيداء لم تعرف بها عيشة رفد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد

نشوب المعركة :

ويصف الشاعر المعركة التى دارت بينهما واذا بكل واحد منهما يستعد ويقابل عدوه ويتقدم الذئب قليلا ثم يقعى على مؤخرته فيهيجه الشاعر ، فيقبل عليه كالبرق الخاطف يريد الفتك به ، ولكنه يمتد اليه ضربة لم تصب منه مقتلا ، فيشتد الذئب اقداما ويزداد هجوما ، فيتبع الشاعر الضربة الأولى بضربة سهم قوية قاتلة تستقر فى قلبه فيخر صريعا ، فيسرع البحترى ، ويجمع الحطب ويوقد النار ويشتويه ويأكل منه شيئا قليلا ، ويتركه معرغ بالتراب :

عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد الا جرأة وصرامة وأيقنت أن الأمر منه هوالجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخر وقد أوردته منهل الردى على ظمأ لو أنه عذب المورد
وقمت فجمعت الحصا فاشتويته عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

نظرة فى الأبيات :

لقد أرانا الشاعر فى هذه الابيات لون الذئب وعظامه ورهبته ، وأسمعنا صوته كالرعد ، وحدد لنا هجومه السريع كالبرق الخاطف ، وكيف أطلق سهمه كالكوكب ينقض فى سواد الليل ، وقبل ذلك أسمعنا صوت أنياب هذا الذئب وكأنها اصطكاك أسنان المقرور ، وفى هذه الابيات يطابق بينه وبين الذئب كلاهما يضرب فى مجاهل الصحراء وكلاهما جائع تنتابه عوامل الشر والخوف وغريزة حب البقاء تستولى على كل منهما

انها صورة رائعة فريدة حيث تمثل الصراع النفسى من أجل الحياة ، كما استطاع الشاعر أن يوفق بين تنسيق أجزائها وأن يعبر عن أحاسيسه الباطنة ، واستطاع أيضا أن يدل على لماحيته الخاطفة التى تبدو فى كثير من شعره كما يقول الصيرفى .

وذلك حين أطلق سهمه على الذئب فأصاب قلبه .

وفى هذه الأبيات تظهر الدقة والحركة وعمق الوجدان ، لأنه يعبر فيها عن حالة خبرها بنفسه . وفيها أيضا الألفاظ الموحية كقوله " يقضقض عصلا كقضقضة المقرور " . كما نرى الكناية اللطيفة فى قوله " بحيث يكون اللب والرعب والحقد " ونرى الجناس فى قوله " طواه الطوى " وفى قوله " يقضقض كقضقضة " وفى قوله "الجد" كذلك . وغير ذلك من أنواع البديع . أما التشبيهات والاستعارات فأكثر من أن تعدد فى هذه الأبيات .

وأخيرا فقد وازن النقاد بين هذه الابيات وما قاله الفرزدق فى الذئب فوجدوا أن البحترى متفوق فى وصفه وهو يشبه رسم الشنفرى فى وصف اللون والجوع والهزال .

وصف الأسد :

وقال يصف الأسد ومنازلة الفتح بن خاقان له : "١"

ومانقم الحساد الا أصالة ... لديك وفعلا أريحيا مهذبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجربا
فداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد نابا للقاء ومخلبا "٢"
يحصنه من نهر نيزك معقل ... منيع تسامى فابه وتأشبا "٣"
يرود مغارا بالظواهر مكتبا ... ويحتل روضا بالأباطح معشبا "٤"
اذا شاء فادى عانة أوعدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا "٥"
يجر الى أشباله كل شارق ... عبيطا مدى أو رميلا مخضبا "٦"
ومن يبغ ظلما فى حريمك ينصرف ... الى تلف أو يثن خزيان أخيبا "٧"
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضبا من البيض قضبا "٨"
فلم أر ضرفامين أصدق منكما ... عراكا اذا الهيابة النكس كذبا "٩"
هزبر مشى يبغى هزبرا وأقلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أقلبا "١٠"
أدل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جنانا وأشغبا "١١"
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ... وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

"١" الديوان ١ : ١٩٩ — ٢٠٠ — ٢٠١
"٢" مخدر : مستتر فى عرينه .
"٣" نهر نيزك : نهر حفره المتوكل ليروى حديقة الحيوان التى أنشأها . المعقل : الملجأ . تأشب : التف شجره واشتبك .
"٤" يرود : أى يدور ويذهب ويجىء فى طلب الشىء . المغار : الكهف . المكتب : المطمئن بين الجبال . الظواهر : أعالى الأودية وأشراف الأرض .
"٥" فادى : بكر . العانة : القطيع من حمر الوحش . العقائل : الكرائم من الابل . الربرب : القطيع من بقر الوحش .
"٦" كل شارق : صباح كل يوم . العبيط : الذبيحة تنحر وهى سمينة فتية من غير علة . الرميل : الملطخ بالدم .
"٧" الحريم : كل موضع تجب حمايته والدفاع عنه .
"٨" أصلت السيف : جرده من غمده . العضب والقضب : السيف الباتر .
"٩" الضرفامان : الأسد والفتح . النكس : الضعيف والدنىء الذى لا خير فيه . كذبا : هنا بمعنى جبن وأحجم .
"١٠" الأقلب : من أسماء الأسد . وهو الشجاع العابس من الغضب والشجاعة .
"١١" الشغب : كثرة الجلبة واللفظ المؤدى الى الشر . البنان : القلب . أدل : اجترأ وزها واختال .

فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لاعزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك الضريبة أولا تبق للسيف مضربا

عرض أبيات الشاعر

وصف البحتري الأسد الذي لاقاه الفتح بن خاقان وبدأ أبياته بالغزل وثنى بمدح الفتح ، وجعل الأسد يقيم في خدره ذو ناب ومخلب حادين ، قد اتخذ نهر نيزك حصنا له حيث تحف به الأشجار ، ومكان صيده قريب منه يباكر القطعان فيصيد ويقتنص ما يشاء من حمر الوحش وبقره ، وأكرم ما في أسراب الظباء فيجلب الى أشباله مع كل اشراقة شمس يوم صيدا ثمينا ولحما طريا يسحبه على الرمال فيختلط بها :

فداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقاء ومخلبا
يحصنه من نهر نيزك معقل منيع تساقى روضه وتأشبا
يرود مغارا بالظواهر مكتبا ويحتل روضا بالأباطح معشبا
اذا شاء فادى عانة أو فدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا
يجر الى أشباله كل شارق عبيطا مدى أو رميلا مخضبا

وصف المعركة :

ثم يبدأ الشاعر في وصف المعركة التي دارت رحاها بين الأسد والفتح ، فقد دخل الفتح منالا سيفه الصارم ، وأقبل عليه الأسد فأخذ الأسد ان يقتتلان قتالا مريرا كل واحد منهما يريد الفتك بخصمه ، وأخذ الأسد يزأر بصوت مرتفع مخيف ، معتقدا أنه يخيف الفتح ولكن جلبته لم تجد شيئا فهو أمام خصم عنيد ذي سطوة وقوة ، صادق العزم ثابت الجنان ، فحدثته نفسه بالفرار حين رأى أنه لا سبيل له للتغلب على الفتح ، ولكنه لم يجد وسيلة للهرب ، فأقدم على القتال ، ولكن اقدامه كان وبالا عليه ، فقد أقبل عليه الفتح شاهرا سيفه البتار بعزم لا ينثني وبيد مصممة ، ولافرابة فهي عادته اذا قاتل هتك الضريبة وشقها فلا يبق عليها لشجاعته وقوته :

شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى له صلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرفامين أصدق منكما عراكا اذا الهيابة النكس كذبا

هزبر مشى يبغى هزبرا وأفلت ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ... وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ... ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك الضريبة أولا تبق للسيف مضربا

نظرة في الأبيات :

بعد أن اثنى الشاعر على الفتح ، أعطانا وصفا للاسد الذى سوف ينازله فرسم لنا عرينه وسلاحه المتكون من الانياب والمخالب ثم اعطانا صورة عن قوته وقوت أشباله اليومى ، ثم وصف لنا المعركة التى دارت بين الضرغامين وشجاعة الفتح وصولاته وجولاته حتى أن الاسد لم يستطع أن يفلت منه فلم يجد بدا من الاقدام ، وأخيرا فتكه به والقضاء عليه ، وأن هذه صفة من صفاته .

وفى هذه الابيات تظهر نزعة تفصيلية تعنى بالجزئيات لذاتها كما أنها بالاستطراد . والبحترى يصف الأسد ليظهر قوته وبطشه ، وليظهر بصورة غير مباشرة قوة الفتح وبطشه تبعا لذلك . وحديث الشاعر عن فتك الأسد بالعانة يتصل اتصالا داخليا بغاية الوصف لأنه يمثل لنا القدرة على البطش عند هذا الأسد . كما نشاهد فى هذه الأبيات مظهرا من مظاهر البديع العباسى كقوله " فلم أر ضرغامين " وقوله " هزبر مشى يبغى هزبرا " ونرى ذلك فى قوله " فأحجم وأقدم " والشاعر يعمد فى أبياته الى الاسلوب القصصى وايراد الحوادث .

وقد وازن بعضهم بين أبيات البحترى هذه ، وبين ماقاله المتنبى فى وصف لقاء بدر بن عمار للأسد والتى يقول منها :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا

فرأى أن المتنبى أكثر توفيقا من شاعرنا حيث اتجه شاعرنا البحترى الى وصف أجمة الأسد وسعة رزقه بينما اتجه أبو الطيب الى وصف الأسد نفسه ، فصور زئيره المرعب ومنظره الرهيب ، وتوحشه ووحدته واعجابه بنفسه وتيهه وانصرافه الى شفاء غيظه ، وهذه الصفات أدخل فى تصوير الأسد رهيبا مخيفا فيكون ذلك أعمق تصويرا لشجاعة خصمه .

والمتنبى فى وصف المعركة أيضا موفق أكثر من أبى عبادة . فقد صور الأسد فى هجومه ووثوبه وعنى بذلك أكثر من البحترى كما أن المعانى التى جاء بها البحترى ألم بها المتنبى وزاد عليها . وعلى كل فأبيات البحترى تعتبر احدى الليثيات الثلاث فى الأدب والشعر العربى .

وصف الخيول :

وقال البحترى يصف فرسا أهدى اليه من قصيدة يمدح بها محمد ابن على القمى : "١"

وأغر فى الزمن البهيم محجل ... قد رحت منه على أغر محجل "٢"
كالهيكل المبنى الا أنه ... فى الحسن جاء كصورة فى هيكل
وافى الضلوع يشد عقد حزامه ... يوم اللقاء على معم مخول "٣"
أخواله للرستمين بفارس ... وجدوده للتبعين بموكل "٤"
يهوى كما تهوى العقاب وقد رأ ... صيدا وينتصب انتصاب الأجدل
تتوهم الجوزاء فى أرساغه ... والبدر فوق جبينه المتهلل
متوجس برقيقتين كأنما ... تريان من ورق عليه موصل "٥"
ذنب كما سحب الرداء يذب عن ... عرف كعرف القناع المسبل "٦"
جذلان ينفض عذرة فى غرة ... يقق تسيل حجولها فى جندل "٧"
كالرائح النشوان أكثر مشيه ... عرضا على السنن البعيد الأطول "٨"
ذهب الأعالى حيث تذهب مقلة ... فيه بناظرها حديد الأسفل

"١" الديوان : ٣ : ١٧٤٤ — ١٧٤٥ — ١٧٤٦ — ١٧٤٧ — ١٧٤٨
"٢" الأغر : من القوم الكريم الفعال والسيد الشريف . ومن الخيل : ماكان بجبهته بياض ويقصد فى صدر البيت "ممدوحه" وفى عجز البيت "الفرس" الذى أهداه اليه .
"٣" المعم المخول : كريم الأعمام والأخوال .
"٤" الرستمين : نسبة الى رستم وهو اسم فارسى تسمى به بعض عظماء الفرس .
التبعين : جمع تبع أقيال اليمن . موكل : مكان كانت الملوك اليمنية تنزله .
"٥" الرقيقتين : الاذنين . التوجس : التسمع الى الصوت الخفى .
"٦" العرف : الشعر النابت فى محدب رقبة الفرس .
"٧" العذرة : الخصلة من الشعر على رأس الفرس . الغرة : بياض فى جبهته .
"٨" النشوان : السكران . عرضا : عرض الفرس عرضا : ذهب فى عدوه .

صافي الأديم كأنما عنيت لـــه ... لصفاء نقبتـه مداوس صيقـل "١"
وكأنما نفضت عليـــه صبغهـا ... صهباء للبردان أو قطربـّل "٢"
لبس القنو مزعفرا ومعصـــــفرا ... يدعى فـراح كأنه في خيعـل "٣"
وتخاله كسي الخـدود نواعمـا ... مهما تواصلها بلحظ تخجـل
وتراه يسطع في الغبار لهيبـه ... لونا وشدا كالحريق المشعـل "٤"
وتظن ريعان الشباب يروعـه ... من جنـة أو نشـوة أو أفـكـل "٥"
هزج الصهيل كأن في نغماتـه ... نبرات معبد في الثقيل الأول "٦"
ملك العيون فان بدا أعطينـه ... نظر المحب الى الحبيب المقبل
ما ان يعاف قذى ولو أوردتـــه ... يوما خلائق حمدويـه الأحول "٧"

عرض الأبيات وشرحها:

أهدى محمد بن علي القمّي فرسا للبحتري فما كان منه الا أن وصف هذا الفرس وهنّأ بحمدويه عمرو المهدي . فهذا الفرس أغر محجل القوادم ، وهو كالهيـــكل في ضخامته وحسنه كريم الأصول فأخواله بفارس وجدوده في اليمن ، سايـــد ل على عراقة أصله ، واذا أسرع فهو كالعقاب ينقض على فريسته ويقف منتصـــــبا كالصقر المترقب ، واذا نظرت الى أرساغه وجبينه رأيت نورا كالبدر يسمع الأصـــوات الخفية ، أما ذنبه فطويل يسحبه كالرداء ، وعرفه ينسبل على رقبته كالقناع تـــراه جذلان ينفض خصل الشعر على كاهله ، وغرته بديعة البياض ، كالنشوان في جويـــه

"١" الأديم : الجلد . النقبة : اللون . المداوس : جمع مدوس وهي الصقلة التي يصقل بها السيف . الصيقل : الذي يجلو السيف .
"٢" الصهباء : الخمر . البردان وقطربل : قريتان مشهورتان بصنع الخمر .
"٣" القنو : شدة الحمرة . مزعفرا : مصبوغ بالزعفران وهو نبات أصفر . معصفرا : مصبوغ بالعصفر وهو نبات يستخرج منه صبغ أحمر . خيعل : القميص بلا كمين .
"٤" الشد : ارتفاع النار .
"٥" الجنة : الجنون . الأفكل : الرعدة .
"٦" الهزج : الذي يتنغم في غنائه . الصهيل : صوت الفرس . معبد : هو معبد بن وهب نابغة الغناء في العصر الاموي توفي ١٢٦ هـ . الثقيل الأول : ثلاث نقرات متتالية تقال في الايقاعات الموسيقية العربية .
"٧" القذى : الوسخ يسقط في الماء . حمدويه الأحول : رجل كان على عداوة مع مهدي هذا الفرس الى الشاعر وهو "محمد بن علي بن عيسى الكاتب" .

وأما جلده فصاف صفاء السيوف فى حمرة كخمر معتقة .

ويصف الشاعر هذا الفرس بأنه شديد الحمرة المخلوطة بالزعفران والعصفر ويصفه كأنه لابس قميصا بلا كمين ، واذا نظرت الى خدوده رأيتها نواعما يصيبك الخجل عند لحظها ، واذا رأيته يجرى فى الغبار تظنه شعلة نار أو برقا خاطفا أما صهيله فكأنه لموسيقى له رنين جميل جمال أنغام المغنى " معبد " وانه ليسحر العيون حين تنظر اليه حتى ليقيدها به كما يقيدها المحبوب فلا تلتفت يمنة ولا يسرة . وفى الختام يعرّض الشاعر بهجاء حمدويه الأحول لما بينه وبين القمى من عداوة .

هكذا نرى أن الشاعر قد بالغ فى وصف هذا الفرس فارتقى به الى الدرجات التى يقف دونها أصحاب الهيبة والعظمة ، وجعله يزاحم المغنين .

أما اسلوب الشاعر فتكثر فيه الصور البيانية والمحسنات البديعية ، فقد شبه فرسه بالهيكل ضخامة ، وبالعقاب انقضاضا ، وبالصقر انتصابا ، كما شبه عرفه بالقناع المسبل ، وصفاء جلده بصفاء السيوف ... الخ .
كما نرى الجناس بين " يهوى وتهوى " وبين " ينتصب وانتصاب " وغير ذلك .

وفى أبيات أخرى لا يهدى اليه فرسا وانما هو يطلبه ويصفه منوها عن الشروط التى يجب أن يشتمل عليها وتتوافر به ويتوجه بطلبه الى محمد بن حميد الطوسى والفرس من هذا الفرس هو أن البحترى يريد فزو الأعداء فيأخذ يحدد نوعه بتحديد أشكاله وألوانه ، ويذهب مثاليا بشرح تلك الأوصاف فيصفه بأنه ضامر طفوف الجسم تكتمل فيه كل الصفات التى تساعده على الجرى السريع ، أما لونه فليكن اما أشقر يسطع كالكوكب المضىء تكسو أعطافه حلة مضرجة بالدم لكثرة المعارك التى خاضها والحروب التى شارك فى فمارها يقول : " ١ "

فأعن على فزو العدو بمنطو ... أحشاؤه طى الكتاب المدرج " ٢ "
اما بأشقر ساطع أفشى الوغى ... منه بمثل الكوكب المتأجج " ٣ "
متسربل شية طلت أعطافه ... يوم فما تلقاه غير مضرج " ٤ "

" ١ " الديوان ١ : ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤
" ٢ " المدرج : الملفوف . " ٣ " المتأجج : الملتهب .
" ٤ " متسربل : لابس للسروال . والشية : مصدر وشى الثوب : حسنه بألوان ونقشه . الأعطاف : الجوانب . المضرج : المصبوغ بالدم .

أو برده أدهم اللون يعمه السواد الصافي ينـدفع هائجا تحت راكبه لأخف لمسة من لمسات السوط كاندفاع الرياح المشتعلة بالعرفج ، بل يزيد في جريه الى أن يصل الى حد الطيران لا يثير وراءه أي أثر للغبار ولو جرى في رمال عالج لسرعة جريه وخفة وقع أقدامه على الأرض

أو أدهم صافي السواد كأنه ... تحت الكمي مظهر بيرندج "٥"
ضرم يهيج السوط من شؤبوبه ... هيج الجنائب من حريق العرفج "٦"
خفت مواقع وطئه فلو أنه ... يجري برملة عالج لم يرهج "٧"

ويتابع الشاعر معددا أوصاف هذا الفرس الذي يطلبه ، فيريده اما أن يكون أشهب اللون يتألق خلفه متن شبيه بالماء الغزير المترجرج ، تضيع حجوله في بياض جسمه ، ويحلي عنقه شعر أسود ينسبل على رقبته الطويلة فيزيد من حسنه أما لون حافره فهو لون الفيروز ،

أو أشهب يقق يضيء وراءه ... متن كمتن اللجة المترجرج "٨"
يخفي الحجول ولو بلغن لبانه ... في أبيض متألق كالدملج "٩"
أوفى بعرف أسود متغرب ... فيما يليه وحافر فيروزجي "١٠"

واما أن يكون هذا الفرس أبلق اللون يبهر العيون عندما تنظر اليه لجماله مما يجعل كرام الخيل تحسده على حسن هذا المنظر اذا ما رأته يختال في سيره معجبا بالحلة التي تزينه ، والتي لا سبيل لمحاكاة

"٥" الأدهم : الأسود . الكمي : الشجاع ولابس السلاح . البرندج : نوع من الأصباغ .
"٦" ضرم : شديد الغضب . الشؤبوب : شدة اندفاع كل شيء . الجنائب : جمع جنوب وهي : ريح الشمال .
"٧" عالج : موضع به رمل . أرهج : أثار الغبار .
"٨" الأشهب هنا : الأبيض يقق : شديد البياض . المتن : الظهر .
"٩" الحجول : بياض القوائم . اللبان : الصدر . الدملج : حلي يلبس في المعصم .
"١٠" أوفى بالشيء : جاء به تاما . العرف : الشعر النابت في محدب رقبة الفرس . متغرب : مسود حالك السواد . النيروزج : حجر كريم أخضر .

نسجها وايجادهـــــا :

أو أبلق يبقى العيون اذا بدا من كل لون معجب بنمـوذج "١"
جذلان تحسده الجياد اذا مشى عننا بأحسن حلة لم تنسـج "٢"

الشاعر
هكذا عدد لنا أو بالأحرى للطوسى أوصاف الفرس الذى يرغب الحصول عليه مما يدل على أنه خبير ماهر بمعرفة الخيل فهو يعدد النعوت الكثيرة ويعرضها عرضا فنيا مشتملا على الأوصاف المستجادة فى الجياد .

وقد وشى أبياته بأنواع البديع . كما نلحظ الاستعارات وغيرها من الصور البيانية والمجازات التى ساعدت على التصوير والحركة . وقد استخدم الشاعر كثيرا من الألفاظ الدقيقة فى مواضعها .

ووصف البحترى جوادا آخر أهدى اليه وأضفى عليه أوصافا قريبة الشبه بالفرس السابق يقول : "٣"

أما الجواد فقد بلونا يومـــه وكفى بيـوم مخبرا عن عامه
جارى الجياد فطار عن أوهامها سبقا وكان يطير عن أوهـامه
جذلان تلطمه جوانب فـــرة جاءت مجىء البدر عند تمامه
واسود ثم صفت لعينى ناظـــر جنباته فأضاء فى اظلامـــه
مالت جوانبه عرفه فكأنهـــا عذبات أثل مال تحت حمامه
وقدم الأذنين تحسب أنـــه بهما يرى الشخص الذى لا مامه
يختال فى استعراضه ويكب فى اســـــتدباره ويشب فى استقدامه "٤"
واذا التقى التفر القصير وراءه فالطول حظ عنانـه وحزامه "٥"
وكأن فارسه وراء قذالـــه ردف فلست تراه من قدامه "٦"
لانت معاطفه فخيل أنـــه للخيزران مناسب لعظامـــه
فى شعلة كالشيب لاح بمفرقـى فزل لها عن شيبه بغرامـه
ومردد بين القوافى يجتبـــى ماشاء من ألف القريض ولامـه

"١" الأبلق : مافى لونه سواد وبياض . "٢" العنن : الاعتراض فى المشى . يريد مشيا مختالا
"٣" الديوان ٣ : ١٩٨٩ — ١٩٩٠ — ١٩٩١ — ١٩٩٢
"٤" يكب : يتقلب ، يكثر النظر الى الارض . يشب : ينشط .
"٥" التفر : السير الذى فى مؤخر السرج .
"٦" القذال : مابين الأذنين من مؤخر الرأس .

وكأن صهلته اذا استعلى بها ... رعد يقعقع فى ازدحام غمامة
مثل العقاب انقض من علیائه ... فى باقر الصمان أو أرآمه "١"
أو كالخراب غدا يبارى صحبه ... بسواد ثقبته وحسن قوامه

ويتابع الشاعر وصف الخيول ، فيصف الخيل التى أوصلته الى الشام ويصور حركتها وسرعتها فى السير اذ يقول : "٢"

أزاجر أنا جرد الخيل أجشمها ... سيرا الى الشام افذاذا وايجافا "٣"
خوص العيون اذا أبدت تسرى مثلت ... بالأرض أو أجحفت بالليل اجحافا "٤"
دوافع فى انخراق البرق موعدها ... مدافع البحر من بيروت أو يافا

فهو يصور سرعة هذه الخيول ، وكيف أجهدها التعب وكنى عن ذلك بخوص العيون ..

وقال يصفها أيضا من قصيدة مدح بها يوسف بن محمد : "٥"

فلم أر مثل الخيل أبقى على السرى ... ولا مثلنا أحنى عليها وأشفقا
وما الحسن الا أن تراها مغيرة ... تجاذبنا حبلا من الصبح أبرقا "٦"
فكم من عظيم أدركته صدورها ... فبات فنيا ثم أصبح ملقى

ووصف كذلك فرسا ضابرا ضخم القوائم من نسل أعوج فرس بنى هلال ، قويا غير موهن مختالا فى جريه يموج فى ضياء شيته كما تموج رؤوس سنابر الدروع على الشجعان ، طويل العنق كقائمة البئر ، ورأسه كالبكرة من الخشب أو المحور : "٧"

ماذا ترى فى مدمج عبل الشوى ... من نسل أعوج كالشهاب اللائح "٨"
لا تربه الجدع الذى يعتاده ... وهن الكلال وليس كل القارح "٩"

"١" الباقر : جماعة البقر . الآرام : الظباء البيض . الصمان : موضع قيل انه أرض غليظة دون الجبل لبنى حنظلة . وقيل : جبل فى أرض تميم . وقيل : موضع من نواحى الشام .
"٢" الديوان ٣ : ١٣٨١
"٣" زجره : طرده صائحا به . جرد : جمع أجرد وهو الذى رق شعره وقصر . والأجرد أيضا الذى يسبق الخيل وينجرد عنها لسرعته . الافذاذ : الاسراع فى السير . الايجاف : العدو والسير السريع .
"٤" خوص العيون : غائرة العيون ، كناية عن الاجهاد . السرى : سير الليل .
"٥" الديوان ٣ : ١٥٠٤ "٦" الأبرق : الخيل فيه لونان وكل ما اجتمع فيه بياض وسواد . "٧" الديوان ١ : ٤٦٩
"٨" المدمج : الضامر . العبل : الضخم . الشوى : القوائم . أعوج : فرس بنى هلال المشهور .
"٩" الجدع والقارح : قال فى ترتيب سنى الفرس ، ففى السنة الأولى : حولى . ثم جذع ثم ثنى ثم رباع ثم قارح .

عنق كقائمة القليب تعطفت أودا ورأس مثل قعو الماتح "١"
يختال فى شية بموج ضياؤها موج القتير على الكمى الرامح "٢"

ووصف الشاعر فرسا من قصيدة مدح بها الشاه بن ميكال : "٣"

فتناس من لم ترج رجعة وده ووصاله وتعزعن ذكراه
بمجنب رحب الفروج مشذب نابى القذال حديدة أذناه "٤"
ضافى السبيب مقلص لم تنخزل منه القطاة ولم يخنه شظاه "٥"
صافى الأديم كأن فرة وجهه فلق الصباح انجاب عنه دجاه
يجرى اذا أجرت الجياد على الونى فيبذ أولى جريها أخراه "٦"

ووصف أيضا فرسا أدهم اللون فقال : "٧"

بأدهم كالظلام أفر يجلو بغرته دياجير الظلام
تقدم فى العنان قمد منه وضبر فاستزاد من الحزام "٨"
ترى أحجاله يصعدن فيه صعود البرق فى الغيم الجهام

وقال يصف الحلبة والخيل : "٩"

ياحسن مبدى الخيل فى بكورها تلوح كالأنجم فى دجورها
كأنما أبدع فى تشهيرها صور حسن من تصويرها
تحمل فريلنا على ظهورها فى السرق المنقوش من حريرها
ان حاذروا النبوة من نفورها أهووا بأيديهم الى نحورها
كأنها والحبل فى صدورها أجادل تنهض فى سيورها
مرت تبارى الريح فى مرورها والشمس قد غاب ضياء نورها
فى الرهج الساطع من تنويرها حتى اذا أصحت الى مديرها
فى حلبة تضحك عن بدورها صار الرجال شرفا لسورها

"١" الأود : الاعوجاج . القعو : البكرة من الخشب أو المحور من الحديد . الماتح : المستقى .
"٢" الشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس . القتير : رؤوس مسامير الدروع . الكمى : الشجاع .
"٣" الديوان ٤ : ٢٤٣١ ـ ٢٤٣٢ "٤" المجنب : من التجنيب وهو انحناء وتوتير فى رجل الفرس . والمجنب : المجنوب : أى المقود . الفروج : مابين قوائم الدابة . الفرس المشذب : الطويل القليل اللحم . القذال من الفرس معقد العذار خلف الناصية .
"٥" السبيب : شعر الذنب والعرف والناصية . المقلص : المشرف المشمر الطويل القوائم منظم البطن . تنخزل : تتراجع متثاقلة . القاطاة : مقعد الرديف من الدابة .
"٦" الونى : التعب . "٧" الديوان ٣ : ٢٠٣٢ "٨" ضبر الفرس : جمع قوائمه ووثب .
"٩" الديوان ٢ : ١٠٤٣

وصف الخيل وبطولة أبي سعيد الثغري :

كان أبو سعيد الثغري عاملا للعباسيين على أرمينية ، وكان شديد البأس على الروم ، حاربهم وطاردهم ببسالة وبطولة ، وكانوا اذا ذكر لهم اسم هذا البطل أخذتهم الراجفة من هول النكبات التي ألحقها بهم ، بلغ ذلك حتى أن الأمهات يخوفن أطفالهن باسمه ، فاذا بكى الطفل قلن له : جاء أبو سعيد ، فيكف عن البكاء من توه . ولقد وصف شاعرنا بطولة أبي سعيد هذا كما وصف الخيل : " ١ "

خوفوا باسمك الصبي فعادت حركات البكاء منه سكونا

ويصف وقعة عقرقس ، فيصور اذلال أبي سعيد الروم ، ويقول انهم لن ينجوا منه ولو اعتصموا بالنجوم .

ربما وقعة شطت بهما الروم فباتوا أذلة خاضعينا
قد أمنا أن يأمنوك على حال ولو صيروا النجوم حصونا

ثم يصف الخيل العابسة في يومها العابس يمتطي صهواتها الدارعون يجوسون خلال بلاد الروم ، ولطول السير أصبحن هزيلات ضئيلات كوعول الجبال ولا قرون لهن سوى الرماح :

وتوافت خيلاك من أرض طرسو س وقاليقلا بأرد ندونا " ٢ "
عابسات يحطن يوما عبوسا لأناس عن خطبه غافلينا
زرن بالدارعين أهل البقلا ر فأجلوا عن صافري صافرينا " ٣ "
قد طواهن طيهن الفيافي واكتسين الوجيف حتى عرينا
كوعول الجبال رحن وما يطلـ ـعن الا صم الرماح قرونا
جلنا في يابس التراب فما رمـ ـن طعانا حتى وطئن الطينا

ويتابع البحتري وصفه فيصف ظفر أبي سعيد بعقرقس واستيلاءه عليها :

ونفير الى عقرقس أنفر ت فكنت المظفر الميمونا " ٤ "

" ١ " الديوان ٤ / ٢١٦٦
" ٢ " طرسوس : مدينة في تركيا . قاليقلا : بأرمينية العظمى . أرد ندون : بلدة في بلاد الروم .
" ٣ " الدارعون : لابسو الدروع . البقلار : قال ياقوت : موضع بثغر أذربيجان . صافري : هي صافرة في بلاد الروم .
" ٤ " النفير : قيام عامة الناس لقتال الأعداء . عقرقس واد في بلاد الروم في آسيا الصغرى .

ووصف البحترى البغل فرآه دقيق الخصر ضامر البطن شطره للخيول وشطره الآخر للبغال ، متعصبا للضبيب ولفرس بنى هلال ، وجعله كالمذرع الذى أمه أشرف من أبيه . أما لونه فيصف الرماد ، وظهره عريض لو وضع عليه الزئبق لثبت ولم يتحرك ، وقوائمه قوية تخوض ما أمامها بقوة : "١"

وأقب نهد المصاهل شطره ... يوم الفخار وشطره للشحج "٢"
خرق يتيه على أبيه ويدعى ... عصبية لبنى الضبيب وأعوج "٣"
مثل المذرع جاء بين عمومة ... فى فافق وخؤولة فى الخزرج "٤"
لا دي زج يصف الرماد ولم أجد ... حالا تحسن من رواء الديزج "٥"
وعريض أعلى المتن لو عليته ... بالزئبق المنهال لم يترجرج
خاضت قوائمه الوثيق بناؤها ... أمواج تحتيب بهن مدرج "٦"

"١" الديوان ١ : ٤٠٤ — ٤٠٥
"٢" الأقب : من الخيل الدقيق الخصر الضامر البطن . النهد : الشيء المرتفع والفرس : الحسن الجسيم . الصواهل : الخيل . الشحج : البغال .
"٣" الخرق : الكريم . الضبيب : فرس حسان بن حنظلة الطائى ، وهو الذى كان حمل عليه كسرى أبرويز حين انهزم من بهرام يوم النهروان ؛ أعوج : فرس بنى هلال تنسب اليه الأعوجيات . وليس فى العرب فحل أشهر ولا أكثر منه نسلا .
"٤" المذرع : الذى أمه أشرف من أبيه . فافق : قبيلة من الأزد .
"٥" الديزج : من الخيل الذى لونه بين لونين غير خالص .
"٦" التحنيب : أحد يدأب فى وظيفى يدى الفرس .

وصف الناقة :

وصف البحترى الناقة وأدخلها ضمن شعر المدح على عادة الشعراء القدماء ففى أبيات يصفها بأنها نجيبة تسرع فى سيرها وأنه ركب الابل البيض فى ليل مقمر وسارت فى صحراء واسعة ، فقاست من هذا السير العناء والاجهاد لطول الليل وما تجشمته من أخطار ومشاق كقوله : "١"

لقد علمت عيدية العيس أننى أخب اذا نام الهدان وأعنق "٢"
خرجنا بها فى البيض بيضا فلم نر الـ ـدآدئ الاوهى منهن أمحق "٣"
هشمن الى ابن الهاشمية أوجها عوابس للبيداء ما تتطلق "٤"
يقاسين ليلا دون قاسان لم تكد أواخره من بعد قطريه تلحق "٥"

ويصفها فى موضع آخر بأنها تسير سيرا حثيثا تخبط الظلام فى الليل الدامس عبر الجبال الوعرة والسهول حتى تصل بسلام يقول : "٦"

اذا ما المطايا فلن فرضة نعمه تواهقن لاستقبال واد يسباعه "٧"
فكم جبل وعر خبطن قنانه ومنخفض سهل متلن بقاعه "٨"

وفى أبيات أخرى يصف ما أصابها من التعب والضنى لطول سراها وماعانته من عناء السفر الطويل الذى لاينتهى ، ويصفها بالنحول والهزال حتى كأنها أصبحت سرابا ، وانها لتشبه القسى المنحنية بل هى أكثر نحولا منها كالأسهم ويتمادى بها الاجهاد والهزال حتى تغدو كالأوتار . يقول "٩"

"١" الديوان ٣ : ١٤٩٣
"٢" العيدية : النجائب نسبة الى فحل يقال له العيد . أخب : من خبب الفرس فى عدوه وهو أن يراوح بين يديه ورجليه أى يقوم على احداهما مرة وعلى الأخرى مرة ثانية . الهدان : الأحمق أو الثقيل فى الحرب . أعنق : سارت الدابة سيرا واسعا فسيحا .
"٣" البيض الأولى : الليالى البيض المقمرة . والثانية : الابل . الدآدئ : ليالى المحاق وهى الليالى الثلاث فى آخر الشهر .
"٤" هشم الشئ : كسره .
"٥" قاسان : مدينة ببلاد ما وراء النهر .
"٦" الديوان ٢ : ١٣١٧
"٧" فلن : سرن سيرا سريعا . فرضة نعم : بشط العرب ، والفرضة : الميناء . تواهقن : مددن أعناقهن . واد يسباع واد بطريق الرقة . القنان : قلل الجبل .
"٨" خبط الشئ : وطئه وطئا شديدا . القاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال .
"٩" الديوان ٢ : ٩٨٧

وخدان القلاص حولا اذا قا ... لن حولا من أنجم الأسحار "١"
يترقرن كالسراب وقد خضـ ... ـن غمارا من السراب الجارى
كالقسى المعطفات بل الأسـ ... ـهم مبرية بل الأوتار

قال ابن الأثير فى كتابه المثل السائر عن هذه الأبيات " ألا ترى أنه رقى فى تشبيه تحولها من الأدنى الى الأعلى فشبهها أولا بالقسى ثم بالأسهم المبرية ، وتلك أبلغ فى التحول ، ثم بالأوتار وهى أبلغ فى التحول من الأسهم " ."٢"

"١" الوخدان : اسراع البعير فى السير حتى يرمى بقوائمه كالنعامة .
القلاص : جمع قلوص وهى من الإبل الطويلة القوائم أو الشابة .
حول : الأولى جمع حائل وهى المتغيرة اللون . والثانية : جمع حولاء وهى التى بعينها حول .
"٢" المثل ٢ : ٣٦

٥ ـ وصف المعارك والسيف

قال البحترى يصف معركة بحرية قادها أحمد بن دينار ضد الروم وقد افتتحها بمدح ابن دينار يقول فى مطلعها : "١"

ألم تر تغليس الربيع المبكر	وما حاك من وشى الرياض المنشر "٢"
الى أن يقول : قد وت على الميمون صبحا وانما	قدا المركب الميمون تحت المظفر "٣"
أطل بعطفيه ومر كأنما	تشوف من هادى حصان مشهر "٤"
اذا زمجر النوتى فوق علا ته	رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر "٥"
يغضون ذون الاشتيام عيونهم	وفوق السماط للعظيم المؤمر "٦"
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى لها	جناحا عقاب فى السماء مهجر "٧"
اذا ما انكفا فى هبوة الماء خلته	**تلفع فى أثناء برد محبر "٨"**
وحولك ركابون للهول عاقروا	كؤوس الردى من دارعين وحسر "٩"
تميل المنايا حيث مالت أكفهم	اذا أصلتوا حد الحديد المذكر "١٠"
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم	ليقلع الا عن شواء مقتر "١١"
صدمت بهم صهب العثانين دونهم	ضراب كايقاد اللظى المتسعر "١٢"
يسوقون أسطولا كأن سفينه	سحائب صيف من جهام ومطر "١٣"

"١" الديوان ٢ : ٩٨٠

"٢" التغليس : ظلمة الليل وسواده . النشر : الرائحة الطيبة والكلأ وهو المراد هنا .

"٣" الميمون : اسم المركب الخاص بأحمد بن دينار .

"٤" تشوف : أطل . الهادى : العنق .

"٥" زمجر / صوت . النوتى : ملاح السفينة الذى يديرها فى البحر . العلاة : سندا الحداد ، وأراد به الشاعر البرج وقد اعتلاه ربان السفينه .

"٦" الاشتيام : رئيس المركب .

"٧" العقاب : طائر من الجوارح . المهجر : السائر فى الحر الشديد .

"٨" انكفأ : مال وانكب . هبوة الماء : ما ارتفع من الماء . الأثناء : طيات . المحبر : الموشى .

"٩" الحسر : جمع حاسر وهو المجرد من الدروع . ضد الدارع .

"١٠" أصلت السيف : جرده من غمده . الحديد المذكر : السيف الصارم .

"١١" الشواء : ماشوى من اللحم وغيره . المقتر : ذو القتار وهو الدخان ذو الرائحة المنبعثة من الشواء .

"١٢" صهب العثانين : شقر اللحى وهم الروم .

"١٣" الاسطول : مجموعة السفن . السحب الجهام : التى لاتحمل مطرا .

كأن ضجيج البحر بين رماحهم ... اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر "١"
تقارب من زحفيهم فكأنما ... تؤلف من أعناق وحش منفر
فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلى ... مقطعة فيهم وهام مطير "٢"
على حين لا نقع تطوحه الصبا ... ولا أرض تلفى للصريع المقطر
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... مليا بأن توهى صفاة ابن قيصر "٣"
جدحت له الموت الذعاف فعافه ... وطار على ألواح شطب مسمر "٤"
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها ... عليه ومن يول الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ... ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر "٥"
تعلق بالأرض الكبيرة بعد ما ... تنقصه جرى الندى المتمطر "٦"

عرض معنى الأبيات :

أرسل المتوكل اسطولا بحريا بقيادة أحمد بن دينار لحرب الروم سنة ٢٣٢هـ فمدح البحترى القائد ، كما وصف الحرب وأبطالها وما حققوه من انتصارات على الاعداء ، كما وصف انهزام الروم وهروب قائدهم . والشاعر يبدأ قصيدته بذكر الربيع ثم ينتقل الى مدح ابن دينار ويذكر ولايته على البحر وكرمه ، وشجاعته وصلابة صدره ، ثم يبدأ بوصف الاسطول ويفتتح وصفه بوصف سفينة القائد ويذكر أن اسمها " الميمون " ويحدد الصباح موعدا لانطلاق هذه الاسطول . كما يصف شاعرنا مركب القيادة فيراه عاليا مشرفا كأن من فوقه فارسا على جواد ، وهذا النوتى يزمجر كالخطيب من على المنبر ويصور جنود البحر فى نظامهم واصطفافهم لأميرهم يخضون احتراما له

فدوت على الميمون صبحا وانما ... فدا المركب الميمون تحت المظفر
اذا زمجر النوتى فوق علا تـــه ... رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر

"١" العود : المسن من الابل . المجرجر : من جرجر البعير اذا ردد صوته فى حنجرته .
"٢" مارمت : مازلت . الطلى : الأعناق جمع طلية . الهام : الرؤوس .
"٣" يشير البحترى الى انتساب ابن دينار الى أصل فارسى . أما عدوه فالى أصل رومى .
"٤" جدحت : قدمت . الموت الذعاف : السريع . الشطب المسمر : يقصد السفينة حيث تجنب الموت فهرب عليها .
"٥" الأخزر : الضيق العين .
"٦" الأرض الكبيرة : الواسعة . أى أنه لجأ الى الارض الواسعة بعد أن ضاق البحر . تنقصه : أخذ منه قليلا . المتمطر : المسرع فى عدوه .

يغضون دون الاشتيام عيونهم وفوق السماط للعظيم المؤ مـــر

وينطلق المركب ويرافقه شاعرنا واصفا سرعته عندما تعصف به الريـــح فيتسلق الرئيس كالعقاب المحلق فى الفضاء ليصد لهذه الريح ، ويصـــور المركب وقد لف الماء حيزومه ، وكأنه قد تلفع بايراد محبرة :

اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى لها جناحا عقاب فى السماء مهجـر

اذا ماانكفا فى هبوة الماء خلته تلفع فى أثناء برد محـــبر

ويلقى البحترى نظرة على جنود البحر فيراهم حول قائدهم مطيعين لأوامره وهم ركابون للأهوال والأخطار منهم من يلبس الدروع ومنهم الحاسر ، قد عركـوا البحر وعركهم ، وقد غالبوا المنون مرات ومرات وكرعوا من كأسها حتى ارتووا ، كما أنهم يجيدون الضرب بالسيوف والرشق بالسهام النارية ، وفى عظمهم الموت الزؤام وشواء الأجساد :

وحولك ركابون للهول عاقـــروا كؤوس الردى من دارعين وحســر

تميل المنايا حيث مالت أكفهم اذا أصلتوا حد الحديد المذكر

اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع الاعن شواء هـــــتر

ثم يخاطب الشاعر القائد وكيف صدم بجنوده الروم أصحاب اللحى الشقـر "صهب العثانين" الذين يسوقون اسطولا لم تلبث سفنه أن تقشعت كسحاب ، الصيف وهى نوعان قوية صلبة تسير ببطء كالسحاب الذى يحمل المطر والآخـــر كالسحاب الجهام الذى لا يحمل مطرا ، تسير بسرعة بعد أن تعانقت مع سفـــن ابن دينار تعانق الوحوش الضارية حيث تشتجر الرماح وتعتجر السيوف وتتلاطـم الأمواج فتنبعث أصوات أشبه ماتكون برغاء الابل ، وفى هذه الحرب تعمـــل الرماح وتعمل السيوف فتتقطع الأعناق وتتطاير الرؤوس وتتساقط القتلى فى الماء :

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كايقاد اللظى المتسعر

يسوقون اسطولا كأن سفينـــه سحائب صيف من جهام وممطـر

كأن ضجيج البحر بين رماحهـــم اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر

تقارب فى رجفيهم فكأنمـــا تؤلف من أعناق وحش منفـــر

فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلى مقطعة فيهم وهام مطـــير

ويختم الشاعر وصفه لهذه المعركة البحرية واصفا هزيمة وفرار قائد الاسطول البيزنطى حيث تحطم مركبه ، فتعلق بما بقى فيه من ألواح مسمرة فغدا فى رحمـة

الريح تدفعه أنى شاءت وهو يردد الشكر لها على صنيعها ، لانها أنجته من هلاك محقق ، وصارت الأمواج ترفعه كما تشاء وهو لا يدرى أين تسوقه ، فحجبت الأمواج الرؤية عن ناظريه وأخذ ينتهز فرصة انحدارها ليحدد موقعه ، ويحدق بعينين أخرزتهما ملوحة البحر ، وفى نهاية المطاف يصل الى الشاطئ ويرى أرض الروم الكبيرة بعد مالاقى المتاعب والمصائب :

جد حت له الموت الذعاف فعافه	وطار على ألواح شطب مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها	عليه ومن يولى الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه	ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعد ما	تنقصه جرى الندى المتطير

نظرة فى الأبيات :

لقد وصف شاعرنا هذه المعركة البحرية وصفا رائعا ولا غرابة فى هذا فالبحترى انفرد بوصف المعارك الحربية فى البحر وهذا النويرى صاحب نهاية الأرب يقول : (لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال فى المراكب الا البحترى) . والواقع أن تصويره المعركة وسيرها يدل على براعة فى التصوير والخيال وكأنه يشاهدها بأم عينه . ان البحترى - كما يقول بعض الكتاب - لا يفتر عن عادته وهى التلاعب بالمعانى ، وقلب الألفاظ ، فقد جعل ابن دينار هو المظفر والميمون فدا تحته بعد أن فدا هو فوقه . كما صوره وهو يعرض اسطوله قبل سيره على هيئة عرض بحرى كما يقول "زكى المحاسنى" فوصفه وقد أقبل ثم مر وكأنه فارس على حصان مشهر

كما صور الاشتيام كأنه على جناح عقاب حين اهتز الاسطول لهبوب الريح وبث الحياة فى المنايا حيث جعلها كالحى الملازم لأكف الأبطال تميل معها متى مالت . ثم كنايته عن الروم بصهب العثانين وتشبيه الأصوات المنبعثة من الرماح المشجرة والسيوف المتراطمة على الحديد ، والأمواج المتلاطمة بأصوات كبار الابل الهادرة المجرجرة . وتشبيه السفن المتقارعة فى هذه المعركة وتدانيها كأنها أعناق وحوش نافرة . ومن هذه التشبيهات يظهر أن خيال الشاعر بدوى فى أكثرها ، ولكن الجميل تصويره هروب قائد الروم وفراره وكأنه عبد مطاوع للريح تطيره على ألواح خشب مسمرة - كناية عن مركبه الصدوع - وهو يرمى الموج بنظرة الموعوب المصعوق ، حتى وصل الى الشاطئ فتعلق بالحياة من جديد ..

قال محقق الديوان حسن كامل الصيرفي مشيرا الى بعض هذه الأبيات وغيرها:

"وفي الحق أن الرجل كان فنانا ماهرا استطاع بوتر موسيقى ، وريشة رسام أن يترك لنا لوحات رائعة الجمال ، فلقد كان اللفظ مطواعا له يؤلف بين حروفه في البيت مما يعبر عن الجو الذي يريد تصويره ، وهذا مثل قوله في القصيدة ٣٨٧

يسوقون اسطولا كأن سفينه ... سحائب صيف من جهام ووطفر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم ... اذا اختلفت ترجيع هود مجرجر
تقارب من زحفيهم فكأنما ... تؤلف من أعلاق وحش منفر
فما رستحتى أجلت الحرب عن طلى ... مقطعة فيهم وهام مطير

فحرف السين قد احتل مكانه في البيت الأول ليعطينا صورة ناطقة لسير الاسطول ، ثم يتقدم حرفا الجيم والحاء في البيت الثاني وقد تراقص بينهما حرف الراء ليعطوا جميعا صورة الضجيج والحركة . ثم حرفا القاف والفاء في البيت الثالث ليعطينا صورة الاقدام والاندفاع ، ويختم البيت الرابع بحرفي الطاء والميم ليقدما صورة لتطاير الأشلاء بعد هذا التطاحن وللدم المهراق ثم للموت المخيم على ميدان المعركة ، وفي خلال ذلك يحمل حرف الراء عطه في تصوير اضطراب الأمواج والصراع المرير" .

وقال في وصف المعارك : "١"

أذعن الناكثون اذ ألقت الحر ب عليهم بكلكل وجـــران "٢"
فغتح يقصصن في مثل يـــوم شأن قاص من الأعادي ودان
قد أتانا البشير عن خبر الخا بور بالصدق ظاهرا والبيان "٣"
عن زحزف من الأعادي ويـــوم من أبي الساج فيهم أرونان "٤"
حشدت مربعاء فيـه ومـــرد وقصور البليخ والمازجـــان "٥"
وتوافت حلائب السلط والمر جين من دابق ومن بطنان "٦"
تتثنى الرماح والحرب مشبو ب لظاها تثني الخـيزران
كلما مال جانب من خميـس عدلته شواجر الخرصـــان "٧"
فلجت حجة الموالـي ضـرابا وطعانا لما التقى الخصمان "٨"
فقتيل تحت السنابك يدمى وأسير يراقب القتل عـــان "٩"

لقد بدأ الشاعر هذه الأبيات بمدح الخليفة المعتز اذ يقول في أولها :

أتراه يظنني أو يرانـــي ناسيا عهده الذي استرعاني ؟

ثم يخلص الى وصف المعركة ، ويبدأ وصفها بانقياد الناقضين للعهود لما أصابتهم الحرب من ويلات . فالخبر السار عن الانتصارات أصبح حديث كل انسان قريب أو بعيد بعد أن سمع بالزحوف المعادية والتي قوبلت بالأعداد الهائلة من الجند أتت من جهات متعددة لتشارك في هذه المعركة ضد الأعداء . ويصور الشاعر

"١" الديوان ٤ : ٢٢٧١ ـ ٢٢٧٣ ـ ٢٢٧٤
"٢" الناكثون : الذين نقضوا العهد . الكلكل : الصدر . الجران : مقدم عنق البعير .
"٣" الخابور : نهر يقع داخل الحدود السورية .
"٤" أبو الساج : من قواد الدولة العباسية . أرونان : شديد صعب .
"٥" مربعاء : لم يرد في معجم البلدان موضع بهذا الاسم . وقد ورد مربع "بفتح الميم" وهو جبل قرب مكة . وبكسرها بالمدينة في بني حارثة وكان به أطم أي حصن . مرد : جبل بالجزيرة . البليخ : اسم نهر بالرقة . المازجان : اسم موضع .
"٦" الحلائب : الجماعات . السلط : موضع بالشام وتعرف مدينة في الاردن بهذا الاسم . المرجين : مثنى المرج وهي الارض الواسعة فيها نبات كثير تمرج فيه الدواب أي تذهب وتجيء . دابق : قرية قريبة من حلب . بطنان : واد بين حلب ومنبج .
"٧" الخميس : الجيش سمي بذلك لأنه خمس فرق . الخرصان : الرماح القصيرة السنان الشواجر : المتداخلة المختلفة .
"٨" فلجت : فازت وغلبت . الموالي : لفظ أطلق على الأتراك .
"٩" السنابك : أطراف الحوافر ، والسنبك من السيف : طرف حليته .

الرماح بأيدى الأبطال تتثنى كالخيزران ، وقد أعملها هؤلاء المحاربون بالضراب والطعان فتشتت الأعداء ما بين قتيل تدوسه الخيل بسنابكها أو أسير يترقب مصيره .

نظرة سريعة فى هذه الابيات :

ان أبيات البحترى هذه أقرب ما تكون الى القديم وان كان موضوعها تصوير الزحوف وطرق الحرب الجديدة فهو لم يوفق الى ابتداع الصور الهائلة المروعة التى تنقلنا الى قلب المعركة ، فنرى الطعان والضراب ، فالشاعر ضعيف الانفعال يعتمد السرد والتقرير ، وهو يعمد الى تعظيم الزحوف المعادية ليجعل الانتصار عليها دليل القوة والتفوق ، والبحترى يطبق قوله "الشعر لمح تكفى اشارته " فهو يعتمد هذا المبدأ فى وصفه للمعارك اذ لا تظهر لنا الموقعة ، وانما يلمح ويشير بسرعة كهذه الأبيات . وهذا مالم نشاهده فى وصفه للقصور ذلك الوصف الذى يعتمد الدقة والخيال وقوة التصوير لأنه شاهد القصور وتردد بينها ، وابتعد عن الحرب والمقارعة ، فلا ترى ايقاعات حماسية فى أبياته هذه وانما نغم متآلف رصعه بالجناس كما فى قوله " خبر الخابور" وقوله " يقصص شأن قاص " .

ووصف البحترى الابطال المحاربين واندفاعهم الى المعارك جماعات جماعات فير مبالين بضروات المعركة وكأنهم اليراع الذى بدت له نار فى ليل حالك فرمى نفسه بها .

ويصفهم يسيرون بدروع قوية محكمة وبأيديهم السيوف البواتر تسيل كأنها السراب فى فلاة قفرة واذا اختلطت سيوفهم برماحهم توهمها الناظر اليها كواكب انعكست على صفحة الماء ، ويختم الشاعر وصفه لهم بأنهم أبناء الموت لم يخلقوا الا له يقذفون بنفوسهم فير مبالين . يقول : "١"

وعصائب يتهافتون اذا ارتمى بهم الوغى فى غمرة الهيجاء "٢"
مثل اليراع بدت له نار وقد لفته ظلمة ليلة ليلاء "٣"

"١" الديوان ١ / ١١
"٢" العصائب : جماعة الرجال . يتهافتون : تهافت على الشىء : تساقط وتتابع . الوغى : الحرب .
"٣" اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار وهو من الحباحب .

يمشون في زغف كأن متونها في مثل معركة متون نهاء "١"
بيض تسيل على الكماة فضولها سيل السراب بقفرة بيداء "٢"
فاذا الأسنة خالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم تحت المنايا كل يوم لقاء

وقال يصف ما حل بالخرمية أتباع بابك في معركة ابن مصعب : "٣"

فمجدل ومرمل وموسد ومضرج ومضمخ ومخضب "٤"
سلبوا وأشرقت الدماء عليهم محمرة كأنهم لم يسلبوا

ووصف انتهاء معركة وما حل بالثائرين فقال : "٥"

أرى شطكم يا أهل حمص مجمعا يعقب افتراق منكم وتشعب
وكنتم شعاعا من طريد مشرد وثاو رد أو خائف مترقب "٦"
ومن نفر فوق الجذوع كأنهم اذا الشمس لاحتهم حرابى تنضب "٧"

يشير البحتري الى حوادث أهل حمص لما أخرجوا عاملهم وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، فعلم المتوكل وأرسل لهم رسولا يخبرهم بأنه يجعل محل العامل الأول محمد بن عبدويه فان أطاعوا ولاه عليهم والا أرسل لهم من يحاربهم ، فرفضوا أول الأمر ولكنهم أخيرا وتبوا بالعامل ، فأمده المتوكل بجيش من دمشق وأمره أن يأخذ ثلاثة من رؤسائهم فيضربهم بالسياط ضربا متلفا فاذا ماتوا يصلبهم على أبواب منازلهم .

فالشاعر يخاطب أهل حمص ويقول لهم أراكم قد تجمعتم بعد أن كنتم متفرقين مابين مشرد وطريد وهالك وثاو ، بل أرى بعضكم فوق الجذوع كأنهم الحرابى الممسكة بأفصان تنضب .

انها صورة فريدة يرسمها البحتري لهؤلاء خاصة المصلوبين على الجذوع وتشبيههم بالحرابى .

"١" زغف : جمع زغفة وهي الدرع اللينة الواسعة المحكمة . النهاء : جمع نهى وهو الغدير أو شبهه .
"٢" الكماة : جمع كمي وهو الشجاع أو لابس السلاح .
"٣" الديوان ١ / ٧٦
"٤" المجدل : الذي رمى بالأرض فارتمى . المرمل : من رمل الثوب بالدم أي لطخه أو من رش عليه الرمل .
"٥" الديوان ١ / ١٩٣
"٦" الشعاع : المتفرق من كل شيء . رد : هالك . "٧" حرابى : جمع حرباء وهي دويبة بطيئة الحركة تتلون بعدة ألوان تقابل الشمس بوجهها وتدور حيث تدور . تنضب : شجر .

شبت حرب ضارية بين بني تغلب أخوال شاعرنا ، ونجح المتوكل في الصلح بين الفريقين فسجل البحتري عمل الخليفة العظيم ، ووصف ما وقع بين الفريقين وبدأ بما ألم بديار ربيعة من خراب جلبته الحروب بعد استقرار وسعادة كانت القبيلة تتمتع به ؛ يقول "١"

أسيت لأخوالي ربيعة اذ عفت ... مصايفها منها وأقوت ربوعها
بكر هي أن باتت خلاء ديارها ... ووحشا مغانيها وشتى جميعها
وأمست تساقي الموت من بعد ما غدت ... شروبا تساقي الراح رفها شروعها

ويصف الشاعر أخلاق قومه البدوية الجاهلية التي تسعى الى الأخذ بالثأر والدم فلا تهنأ حتى تأخذ به حيث تأصل ذلك في نفوسهم جميعا رجالا ونساء ، فيرى الفتاة الحسناء تذم وتعير زوجها اذا لم يأخذ بثأره ، ويقتص من أعدائه :

اذا افترقوا عن وقعة جمعتهم ... لأخرى دماء ما يطل نجيعها "٢"
تذم الفتاة الرود شيمة بعلها ... اذا بات دون الثأر وهو ضجيعها "٣"
حمية شعب جاهلي وعزة ... كليبية أعيا الرجال خضوعها
وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... بأحقادها حتى تضيق دروعها

ويصف الشاعر عواطفهم المتضاربة في صدورهم وما يحسون به بعد انتهاء الحرب من ألم وأسف لما حل بهم ولكنها الجاهلية التي تدفعهم الى غير ما يريدون :

تقتل من وتر أعز نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها "٤"
اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم ... شواجر أرحام ملوم قطوعها

"١" الديوان ٢ : ١٢٩٦
"٢" طل دمه : هدره . والنجيع من الدم : ما كان مائلا الى السواد .
"٣" الرود : اللينة .
"٤" الوتر : الانتقام والظلم فيه .

وصف السيف :

قال البحترى يصف السيف : "١"

يتناول الروح البعيد منالـه ... عفوا ويفتح فى القضاء المقفل "٢"
ماضى وان لم تمضه يد فـارس ... بطل ومصقول وان لم يصقل "٣"
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة ... من حده والدرع ليس بمعقل "٤"
مصغ الى حكم الردى فاذا مضى ... لم يلتفت واذا قضى لم يعدل "٥"
متوقد يفرى بأول ضربة ... ما أدركت ولو أنها فى يذبل "٦"
واذا أصاب فكل شىء مقتل ... واذا أصيب فماله من مقتل
وكأنما سود الشمال وحرها ... دبت بأيد فى قراه وأرجل "٧"
وكأن شاهره اذا استعصى به ... فى الروع يعصى بالسماك الأعزل "٨"
حطت حمائله القديمة بقلة ... من عهد عاد فضة لم تذبل "٩"

هكذا وصف البحترى هذا السيف بأنه يتناول أرواح العداء عفوا ، ويمضى الى غايته وان لم تحمله اليها يد الفارس الشجاع ، ينزل الى المعارك ويجول فيها لا يعصم منه عاصم فلا ملجأ ولا مفر من بتره ، فلا الاحتماء بالترس ولا التسربل بالدرع بواق من جلاده فقد كمن فيه حكم الردى لا يشغله عن الاستماع اليه شاغل فلا يحيد ولا ينبو ، يقضى على من أراد بالضربة الواحدة ولو تحصن فى الجبال الشامخة ، والهلاك لمن يصيبه هذا السيف فكل شىء مقتل له . أما هو فقوى لا يؤثر فيه مؤثر ، ويشبه الشاعر ماضى السيف من وشى وفرند بآثار النمل ، أما شخص حامله فهو بعيد منال الروح وكأنما غدا أحد ساكنى النجوم وهيهات أن ينال ، وهذا السيف أخضر الحديد كالبقلة فهو قوى بتار فطول الدهر لم يؤثر على أفعاله .

"١" الديوان ٣ : ١٧٥٠ ـ ١٧٥١ ـ ١٧٥٢ "٢" عفوا : من غير طلب .
"٣" الماضى : القاطع . المصقول : الناعم الأملس .
"٤" الوغى : الحرب . الترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه . الجنة : السترة وكل ما وقى من السلاح . الدرع : قميص من زرد الحديد يلبس وقاية من سلاح العدو .
"٥" لم يعدل : لم يمل ولم يحد . "٦" يفرى : يقطع ويشق . يذبل : جبل .
"٧" القرا : الظهر . "٨" شهر السيف : سله . استعصى به : ضرب به كضربة العصا . يعصى : يضرب . السماك الأعزل : نجم نير .
"٩" الحمائل : علاقات السيف . البقلة : واحدة البقل وهو ما نبت فى بزره لا فى أرومة ثابتة .

٦ ـ وصف الطيف والشيب

"أ" الطيف

ان كان زهير قد اشتهر بحكمته ، والخنساء برثائها ، وأبو نواس في خمرياته فلقد اشتهر شاعرنا في وصف الطيف شهرة جعلته مميزا له عن غيره من الشعراء .

ومن المعروف أن وصف الطيف لم يكن من الموضوعات الأساسية منذ الجاهلية حتى أواخر العصر العباسي الأول بل كان موضوعا وفرضا تأنويا ، يأتي به الشاعر لما ما في أوائل القصائد ، ثم أخذ الشعراء بمعانيه مرددين أن أطياف صواحبهم تزورهم في المنام فتؤرقهم ، ويأخذهم العجب من اهتدائها اليهم مع بعد ما يفصل بينهم وبين محبوباتهم من مسافات شاسعة .

وشاعرنا البحتري ينهض بهذا الوصف نهضة شاملة واسعة فيكثر من افتتاح قصائده به . كما يوجد أيضا مبثوثا في أثناء بعض القصائد . وقد افتن البحتري افتنانا عظيما في توليد معانيه ، واستنباط اللطيف والطريف منها مما جعله يلفت أنظار القدماء والمحدثين ويجعلهم يحكمون بأنه السابق في هذا الميدان كما اتفقوا على أن البحتري أكثر من ذكر الطيف واشتهر به شهرة فائقة حتى ضرب المثل به فقيل " أرق من طيف البحتري" ويرى بعض الأدباء أن السبب في اكثار الشاعر من ذكر الطيف ربما يكون راجعا الى حبه لعلوة وبعدها عنه ولنستمع اليه يقول : "١"

أهلا بذلكم الخيال المقبل ، فعل الذي تهواه أو لم يفعل
برق سرى من بطن وجرة فاهتدى بسناه أعناق الركاب الضلل

فهو يختار صورة نادرة في هذين البيتين اذ جعل طيف محبوبته قبسا من نور يتوهج ويبدد دياجير الظلمة ويضيء مسالك الصحراء ودروبها للقوافل .

وللبحتري في وصف الطيف معان عديدة مبتدعة من ذلك قوله في قصيد يفتخر بها بنفسه ويعاتب قوما من أهل بلده :

أحبب الي بطيف سعدى الآتي وطروقه في أعجب الأوقات

"١" الديوان ٣ : ١٧٤١ "٢" الديوان ١ : ٣٦٣

انى اهتديت لمحرمين تصوبوا لسفوح مكة من رباعرفات
ذكرتنا عهد الشآم وعيشنا بين القنان السود والهضبات
اذ أنت شكل مخالف وموافق والدهر فيك ممانع ومؤات

فقد جعل خيال محبوبته يلاحقه حتى فى أيام الحج وزمن الاحرام حيث سرى اليه من الشام آخذا يجوب الصحارى الواسعة الى أن وصل اليه وهو محرم يؤدى مناسك الحج ، وقد أثنى الآمدى على أبياته هذه حتى فضلها على أبيات قيس بن الخطيم المشهورة والتى أولها :

انى سربت وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريب
ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه فى النوم غير مصرد محسوب

ويرى بعض الكتاب أن أروع مقدمات قصائده التى تظهر فيها مقدرته على وصف الطيف ، وتفريعه فى معانيه وابتداعه فى تصويره قوله : "١"

بت أبدى وجدا وأكتم وجدا لخيال من البخيلة يهدى
أقسم الظن فيه أنى تخطى الـ ـرمل من عالج وأنى تهدى
خطا ما أزارناه طسروقا أم توخيه للزيارة عمدا
جاء يسرى فأشرقت أرض نجد لسراه وواصل الغيث نجدا

الى أن يقول :

قرب الطيف منتواها فأصبحـ ـت حديثا يناقض العهد عهدا
سكن لى اذا دنا ازداد ليا نا وبعدا فازددت بالقرب قربا

وفى هذه الابيات تظهر براعة البحترى فى تشقيق المعانى وتوليدها ، وعرضه لها بأعذب الألفاظ ، فمعانيه واضحة جلية ، وألفاظه سهلة عذبة ، ولقد رسم طيف محبوبته وهو يرسل ضوءه على أرض نجد حين مر بها فى حين أخذ المطر ينهل عليها لاجتيازه لها .

لقد عنى البحترى بوصفه للطيف بالمعانى التقليدية والصور البدوية فأذاعها فى كثير من مقدمات قصائده ، فنلحظ فى بعضها المعانى الجاهلية والصور القديمة الموروثة من ذكر السرى والليل والوديان والسهول والحزون متعجبا من اهتداء طيف محبوباته اليه ، وكم تمنى أن تزوره فى اليقظة فتهدئ بزيارتها له نفسه الثائرة ، وتطفئ أشواقه المضطرمة ونرى هذا فى مطلع قصيدته التى

"١" الديوان ١ : ٥٦٩

يمدح بها عيسى بن إبراهيم "١"

طيف الحبيب ألم من عدوائه ... وبعيد موقع أرضه وسمائه
جزع اللوى عجلا ووجه مسرعا ... من حزن إبرقه الى جرعائه
يهدى السلام وفى اهتداء خياله ... من بعده عجب وفى اهتدائه
لو زار فى غير الكرى لشفاك فى ... خبل الغرام ومن جوى برحائه

فشاعرنا فى هذه الأبيات يعدد الأماكن التى مر بها الطيف ويستقصيها استقصاء دقيقا حتى انتهى اليه ، فالطيف سرى اليه من مكان بعيد مجتازا مناطق مختلفة فى سرعة وعجل فمن كثبان من الرمل الى تلال ومرتفعات عالية تغطيها الحجارة ، الى أرض مبسوطة مستوية ، ويثير عجب الشاعر كيف أن هذا الطيف قطع تلك المسافات الطويلة لكى يلم به ويحييه ، وكم كان بوده أن ألم به فى اليقظة لكى يخفف ما به من الوجد الشديد .

ويقول من أبيات أخرى يمدح بها الفتح بن خاقان : "٢"

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا ... خيال اذا آب الظلام تأوبا
سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
ومازارنى الا ولهت صبابة ... اليه والا قلت أهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفا ... يرينى أناة الخطو ناعمة الصبا
ولو كان حقا ماأتته لأطفأت ... قليلا ولأفتكت أسيرا معذبا

هكذا يصبح ليل البحترى شركة مقسمة بين طيف الحبيبة وبين الافقاء فما يكاد الليل يرخى أستاره ويأخذ الشاعر فى النوم حتى يطير اليه طيفها طيرانا وكأنما يجذبه اليه ويقربه منه ، كما يقرب النسيم العليل بريح الصبا فيرحب به ويسلم عليه فتهدأ نفسه قليلا ، ولكن سرعان مايتنبه فيرى أنه يعيش فى غرور وأحلام ، وأن خياله هو الذى ألم به دونها .

هذا قليل من كثير فأشعار البحترى فى وصف الطيف كثيرة جدا . وقد عرف الكتاب له ذلك من قديم وحديث ، فالآمدى يقول : " أما البحترى فانه أولع بذكر الخيال فقال فيه وأكثر وأجاد وأبدع وتصرف فى معان لم يأت أحد بمثلها . واستفتح قصائد كثيرة بذكر الخيال لشدة شغفه به فأحسن فى ابتدائياته كلها وزاد

"١" الديوان ١ / ٢٣ الديوان ١ / ١٩٦

على الاحســـــــان " .

ويقول ابن رشيق : " البحترى أرق الناس نسيبا وألطفهم طريقة لاسيما اذا ذكر الطيـف فانه الباب الذى شهر به " .

أما الشريف المرتضى فيقول : " كان البحترى متيما بالقول فى الطيف فأكثر منـه وأفزر منه مع تجويد واحسان وافتنان وتصرف فيه تصرف المالكين وتمكـــــن القادرين " .

ويقول أيضا : " لأبى عبادة فى وصف الخيال الفضل على كل متقدم ومتأخـر فانه تغلغل فى أوصافه واهتدى من معانيه الى مالا يوجد لغيره " .

وأما أبوعلى القالى فيقول : " وهو أحد المحسنين فى القول فى طـــرق الخيال حتى قيل طيف البحترى " .

وأقول ان شاعرنا البحترى أكثر فى النظم فى هذا الجانب وما أقوال هؤلاء النقاد وغيرهم كثير الا دليـلا على ذلك . وان كنت أفردته فى هذه الأســـطر القليلة الا أنه يحتاج الى بحث خاص يحصره ويبين محاسنه ..

"ب" وصف الشيب

وصف البحترى الشيب بعد أن عيرته محبوبته به ، فهو لا يراه عيبا بل يراه شيبا ووقارا ، وانما هو جلاء الشباب ويعلل حكمه هذا بأن بياض الصقر أصدق فى الحسن اذا تأمله الانسان من سواد الغراب ، اذ يقول : "١"

عيرتنى بالشيب وهى بدته ... فى عذارى بالصد والاجتناب
لا تريه عارا فما هو بالشيـ ... ـب ولكنه جلاء الشباب
وبياض البازى أصدق حسنا ... ان تأملت من سواد الغراب

وفى أبيات أخرى يرى أم عمرو تلومه وتعذله لأنها أبصرت لمة فى شعره فزاها الشيب فأصابها الخوف لما رأت فظنت أن هذا الشيب جمال ووقار ، واستدل على ذلك أنه لولا وجود تلك الأزهار البيضاء بين الرياض الخضراء لذهبت أناقتها ومناظرها البديعة ، وأن سواد العيون لو لم يحط ببياضها لما كانت العيون جميلة محبوبة ، ويتعجب من لوم أم عمرو لأنه يرى الليل بلا نجوم لا جمال له ، وانما جماله بتلك الكواكب المضيئة المشعة ، وكذلك السحاب اذا لم يرافقه البرق لا يجود بالمطر وكأنه يقول ليس غريبا أن يوجد الشيب فى لمتى : "٢"

عذلتنا فى عشقها أم عمرو ... هل سمعتم بالعاذل المعشوق ؟
ورأت لمة ألم بها الشيـ ... ـب فريعت من ظلمة فى شروق
ولعمرى لولا الأقاحى لأبصر ... ت أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يحسن ... ببياض ما كان بالموموق

ويقول فى الشيب الذى أنكرته عليه المحبوبة ، ورجوع شعراته بعد قصها كرجوع السهام فى أغراضها معرضا بسوء اخلافها لمواعيدها مظهرا تضايقه وتلقه من الشيب : "٣"

ناكرت لمتى وناكرت منها ... سوء هذا الاخلاف والأعواص "٤"
شعرات أقصهن ويرجعـ ... ـن رجوع السهام فى الأغراض "٥"

"١" الديوان ١ / ٨٤
"٢" الديوان ٣ : ١٤٨٥
"٣" الديوان ٢ : ١٢٠٨
"٤" اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . الاخلاف والأعواص : جمع الخلف ، والعوص . ينكر عليها كما تنكر عليه شيبه .
"٥" الأغراض : الأهداف .

ورواء المشيب كالبخص في عيـ ـني فقل فيه في العيون المراعي "١"

وقال واصفا شيبا ألم به بعد الفتوة والشباب ، الذي ظعنت أيامه وارتحل عنه فتغيرت أحواله ، وذهبت محاسنه ، وصولاته وجولاته بحلول هذا الشيب :

ان الشباب وكل شيء بائن ... والمرء مرتهن بما هو كائن "٢"
ظعنت به أيامه وشهوره ... ان المقيم على الحوادث ظاعن
ذهب الشباب وفاض ماء برنده ... فاليوم منه كل ورد آجن "٣"
درست محاسنه وطار غرابه ... ولقد تكون له عليك محاسن "٤"

ويقول كذلك في وصف الشيب والتألم على فقد الشباب :

وكنت أرجي في الشباب شفاعة ... فكيف لباغي حاجة بشفيعه
مشيب كبث السر عيّ بحمله ... محدثه أو ضاق عن مذيعه
تلاحق حتى كاد يأتي بطيئه ... لحث الليالي قبل أبي سريعه

يقول الشريف المرتضى معلقا على هذه الأبيات : " وهذا والله أبلغ كلام وأحسنه وأحلاه وأسلمه وأجمعه لحسن اللفظ وجودة المعنى ، وما أحسن ما شبه تكاثر الشيب وتلاحقه ببث السر عن ضيق صدر صاحبه ... " .

"١" البخص : بسكون الخاء قلع العين مع شحمتها . وبالتحريك : سقوط باطن الحجاج على العين ، أو لحم ناتئ فوق العينين أو تحتهما .
"٢" الديوان ٤ : ٢٢٢ .
"٣" فاض الماء : نقص أو غار فذهب في الأرض . البرند : وشي السيف . الورد : الماء الذي يورد . الآجن : المتغير لونه وطعمه .
"٤" طار غرابه : شاب .

٧- وصف المواكب وغيرها

وصف موكب الخليفة "المتوكل"

وصف البحترى موكب المتوكل عند خروجه لصلاة عيد الفطر فقال : "١"

بالبر صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا انه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر "٢"
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة توقد فى الضحى ... طورا ويطفئها العجاج الأكدر "٣"
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فاصبح ... يوما اليك بها وعين تنظر "٤"
يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف غير ما ... فى وسعه لمشى اليك المنبر
أيدت من فصل الخطاب بخطبة ... تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى ... يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت ... نفس المروى واهتدى المتحير "٥"
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر
فاسعد بمغفرة الاله فلم يزل ... يهب الذنوب لمن يشاء ويقدر
ولأنت أملأ للعيون لديهم ... وأجل قدرا فى الصدور وأكبر

"١" الديوان ٢ : ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣
"٢" الجحفل : الجيش العظيم . اللجب : ذو الصياح والجلبة .
"٣" ماتعة : مرتفعة . "٤" يوما : أصلها يوما بهمز أى يشار .
"٥" المروى : المفكر المتأمل .

مناسبة القصيدة :

نظم البحترى هذه الأبيات بمناسبة أحد الأعياد وخروج الخليفة المتوكل للصلاة فوصف موكبه ومسيرته وخطبته فى المصلين وقد ابتدأ بالمدح اذ قال : "١"

أخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر وألام فيك وأنت عليك وأعذر

عرض معنى الأبيات :

يرى الشاعر فى بداية هذه الابيات أن الخليفة متبع لسنة الله حيث صام وأفطر ويدعو له فى هذا اليوم المبارك الذى أظهر فيه عز الملك والخلافة بتلك الجيوش الجرارة التى خرجت فى يوم العيد ، وكأن الجبال هى التى تسير لكثرة هذه الجيوش وعددها فمن خيل لايسمع الا لصهيلها الى فوارس تعتز بأنسابها الى سيوف مصلتة ومشهرة لامعة بينما تكاد الارض تئن بثقلها وتتحمل أكثر مما تستطيع وقد طبق الغبار الأفق يحجب ضوء الشمس تارة ويهدأ فيهبط أخرى :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا انه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد فت عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعسى والبيض تلمع والأسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة توقد فى الضحى طورا ويطفئها العجاج الأكدر

فى هذه الأثناء يبرز بين الصفوف وجه الخليفة المشرق الذى تنحسر أمام اشراقته أقنعة ركام العجاج ، فيخيم الهدوء والصمت والسكينة على الموقف وتهدأ ثائرة النفوس وترتفع الأيدى بأصابعها تشير الى نور ذلك الوجه وتشخص الأبصار مديمة النظر اليه ، ثم ترتفع الأصوات بالتكبير والتهليل بينما يخترق الخليفة الصفوف المتراصة حتى يصل الى المصلى :

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فاصبع يوما اليك بها وعين تنظر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر

أما المنبر فكم كان يوسعه لو وسعته قدرته من شدة الشوق الى الخليفة أن يكون الساعي اليه المتدلا من تحت قدميه ، فيرفعه بين تلك الجموع ، وبعد صعوده يلقي في الناس خطبة بليغة فاصلة تدعو الى الحق وتنهى عن الباطل لما فيها من مواعظ تشفي الصدور وتنير للناس الطريق القويم فاهتدت بها الأنفس الجاهلة وأخرى كان من المتعذر هدايتها لأن قائلها يملأ العيون لجلالة قدره ولأن المصلين يأنسون بمخايله شمائل الرسول الكريم ،

فلو أن مشتاقا تكلف فيرما ... في وسعه لسعى اليك المنبر
أيدت من فصل الخطاب بخطبة ... تنبي عن الحق المبين وتخبر
ومواعظ شفت الصدور من الذى ... يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت ... نفس المروى واهتدى المتحير
فاسعد بمغفرة الاله فلم يزل ... يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
ولأنت أملأ للعيون لديهم ... وأحل قدرا في الصدور وأكبر

هكذا رسم لنا شاعرنا صورة مفصلة عن خروج المتوكل لصلاة العيد في وسط الجموع المحتشدة والصفوف المتراصة والأصوات الصاخبة صورة حية يكاد كل حرف في أبياتها ينبض بالحياة ، صورة يزيد من هولها ورهبتها صهيل الخيول ، وصليل السيوف وتوهج رؤوس الرماح ، وجموع زاخرة تكاد تميد بها الأرض لثقلها ، وهناك تلوح صورة وجه الخليفة يطل باشراقته على الجموع فتخبوا أصواتهم العالية وتعجز الألسنة عن الكلام ويأتي دور الأبصار والأصابع التي لا تملك الا الاشارة .
ولاريب أن يحصل هذا ويشده الجمع لما يرى ما دام المنبر ذلك الجماد لا يستطيع أن يتمالك بل يحاول السعي الى الخليفة لشدة الشوق ولأنه يعرف ما سينطق به هذا الخطيب البليغ من درر ثمينة .

والابيات ملتحمة النسج مسلسلة الخواطر ترسم لوحة متكاملة الصورة مثلت عواطف شعورها واحساسه وجسم المعنى خياله واضحا جليا .

أما الصور البيانية فلا تخفى ، فالجبال تسير ، والأرض تميد ، ووجه الخليفة يجلو الغبار ، والمنبر لا يتمالك من شدة الشوق . والمحسنات البديعية كثيرة فالجناس بين "صمت وصائم " و "تسير ويسير" و "طلعتك وطلعت" ومشيت ومشية" والخطاب و خطبة" وكذلك الطباق " تنذر ، تبشر" ... الخ .

ووصف البحترى دخوله وسلامه على الفتح بن خاقان فذكر أنه لما حضر عند باب الدار وأذن له بالدخول رأى الفتح صاحب هيبة وكرم ، وصفات عالية حميدة ، فلما مثل بين يديه سلم عليه وهو يحس بالهيبة منه حتى أنه لم يستطع الكلام فى أول أمره ولكنه لما رأى الطلاقة والبشر يعلوان وجه الوزير ارتاح لهذا المرأى فدنا منه وقبل الندى بين يديه فرأى رجلا ذا صفات كاملة يقول "١"

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت ... رجال عن الباب الذى أنا داخله "٢"
فأفضيت من قرب الى ذى مهابة ... أقابل بدر الأفق حين أقابله
الى يسرف فى الجود لو أن حاتما ... لديه لأمسى حاتم وهو عاذله
بدا لى محمود السجية شمرت ... سرابيله عنه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الردينى ثقفت ... أنابيبه للطعن واهتز عامله "٣"
وكالبدر وافته لتم سعوده ... وتم سناه واستقلت منازله "٤"
فسلمت واعتاقت جنانى هيبة ... تنازعنى القول الذى أنا قائله "٥"
فلما تأملت الطلاقة وانثنى ... الىّ ببشر آنستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرئ ... جميل المحيا سباط أنامله
صفت مثلما تصفو المدام خلاله ... ورقت كما رق النسيم شمائله

"١" الديوان ٣ : ١٦١٣ - ١٦١٤
"٢" السدة : باب الدار .
"٣" الردينى : نسبة الى ردينة وهى امرأة اشتهرت بتقويم الرماح . ثقف الرمح : قومه وسواه . أنابيب : جمع أنبوب وهو ما بين العقدتين من الرمح . العامل : صدر الرمح وهو ما يلى السنان .
"٤" استقلت : ارتفعت . منازل القمر : مداراته التى يدور فيها حول الأرض .
"٥" اعتاقت : عاقت أى وقفت فى سبيله .

ووصف البحترى استسقاء الخليفة المتوكل فقال بعد أن أمحلت الأرض ووطئتها الأقدام ، وامتنع المطر فقام الخليفة مستسقيا للمسلمين وداعيا الله ، فاستجاب الله دعاءه فاحتجبت السماء بالسحب ثم انهمرت الأمطار غزيرة حتى أنه لم يبق ولا سحابة الا وانسكب وابلها فسالت الأودية وعم الخير . يقول "١"

لما تعبّد محل الأرض واحتبست ... عنا السحائب حتى ما نرجيها "٢"
وقمت مستسقيا للمسلمين جرت ... فر الغمائم وحلت من عزاليها
فلا فما مة الا انهل وابلها ... ولا قرارة الا سال واديها "٣"

كما وصف الشاعر خروج عبيد الله بن يحيى بن خاقان للحج فوصف الابل التى حملته الى الخيف من منى والمشعر الحرام ثم رميه الجمرات فى الضحى ، والحلق والتقصير واتجاهها الى المدينة المنورة تسير فى الغلس والهاجرة لزيارة قبر الرسول للتمسح بمنبره . اذ يقول : "٤"

لله ما حدت الحداة وما سرت ... تخدى به قلص المهارى الضمر "٥"
متقلقلات بالسماحة والندى ... يطلبن خيف منى وحنو المشعر "٦"
حتى رمين الى الجمار ضحية ... والركب بين محلق ومقصر
وثنين نحو قصور يثرب آخذا ... منهن سير مغلس ومهجر "٧"
يجشمن من بعد أداء تحية ... للقبر ثم ومسحة للمنبر

وللبحترى أبيات يصف فيها هروب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون حين خالفه وكاتب الموفق ليسير اليه ، وعندما علم أحمد بن طولون سار اليه ولكنه لاذ بالفرار خوفا وفزعا : "٨"

ولو لم يحاجز لؤلؤ بفراره ... لكان لصدر الرمح فى لؤلؤ ثقب
تخطأ عرض الأرض راكب وجهه ... ليمنع منه البعد ما يبذل القرب
يحب البلاد وهى شرن لشخصه ... ويذعر منها وهى من فوقه قرب
اذا سار سهبا عاد ظهرا عدوه ... وكان الصديق غدوة ذلك السهب "٩"

"١" الديوان ٤ : ٢٤١١ "٢" تعبد : تذلل . "٣" الوابل : المطر الشديد الضخم القطر . القرارة : القاع المستدير يجتمع فيه المطر . وانهل : انصب .
"٤" الديوان ٢ : ٨٦١
"٥" القلص : جمع القلوص النياق الطويلة القوائم . "٦" الحنو : الجانب .
"٧" المغلس : الضارب فى الغلس . المهجر : السائر فى الهاجرة .
"٨" الديوان ١ : ١٢٦
"٩" السهب : بفتح السين : الفلاة ، وبضمها : المستوى من الأرض فى سهولة .

وقال البحترى يصف كتابة وبلاغة محمد بن عبد الملك الزيات من قصيدة فى مدحه مطلعها قوله :

بعض هذا العتاب والتفنيد ... ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول : "١"

قد تفننت فى الكتابة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما شك ... امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا ... حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ ... ـلقه عوده على المستعيد
ما أغيرت منه بطون القراطيـ ... ـس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى ... عن أغانى زرزر وعقيد "٢"
حجج تخرس الألد بألفا ... ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافى ... هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ... ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى قدون فى الحلل الصفـ ... ـر انارحن فى الخطوط السود

وقال يصف الطوبين من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد العزيز بن الشلغمان : "٣"

كم عزيز أباده فقد ارا ... كب عود مركب فوق عود ؟
أسلمته الى الرقاد رجال ... لم يكونوا عن وترهم برقود
يحسد الطير فيه ضيع البوادى ... وهو فى غير حالة المحسود
فاب عن صحبه فلا هو موجو ... د لديهم وليس بالمفقود
وكأن امتداد كفيه فوق الـ ... ـجذع فى محفل الرى المشهود
طائر قد مستريحا جناحيـ ... ـه استراحات متعب مكدود

"١" الديوان ١ : ٦٣٦
"٢" زرزر : من مغنى العصر العباسى ، وكذلك : عقيد .
"٣" الديوان ٢ : ٨١٠

الأطـــلال :

والبحترى من الشعراء الذين وصفوا الأطـلال وآثارها فمن ذلك قوله : "١"

لهـا مـــنزل بين الدخول فتوضح ... متى تره عين المتيم تسـفح
عفا غـير نؤى دارس فى فنائـه ... ثلاث أثاف كالحمائم جنـح

وقـــــال أيضـا من قصيدة يمدح بها أبانهشل محمد بن حميد الطوسى : "٢"

دمن كمثل طرائق الوشى انجلت ... لمعاتهن عن الرداء المنهج
يضعفن عن اذكارنا عهد الصبا ... أو أن يهجن صبابة لم تهتج
ولرب عيش قد تبسـم ضاحكا ... عن طرتى زمن بهن مـدبج

ويقـــول بذلك من قصيدة يمدح بها أحمد بن على الاسكافى : "٣"

عوض منهم خسيس ـ وقد حلـ ... ـوا اللوى ـ منزل بوجرة عافى
لم تدع منه مبليـات الليـالى ... غير نؤى تسفى عليه السـوافى
وأثاف أتت لهـا حجـج دو ... ن لظى النار مثـل كالأثـافى

ويقـــول فى مطلع قصيدة يمدح بها الفضل بن اسماعيل الهاشمى : "٤"

صب يخاطب مفحمات طلول ... من سائل باك ومن مسـئول
حملت معالمهـن أعباء البـلى ... حتى كأن نحولهـن نحـولى

"١" الديوان ١ : ٤٥٠
"٢" الديوان ١ : ٤٠٠
"٣" الديوان ٣ : ١٣٨٥
"٤" الديوان ٣ : ١٦٦١

الفصـــــــل الثـــالث :

١ــ خصائص شعر الوصف عند البحـترى وآراء النقـــاد .

٢ــ مـنزلة البحـــترى فى شـعر الـوصـف، واسـتاذيته للشـــعراء من بعـــده .

خصائص الوصف عند البحترى وآراء النقاد فيه

البحترى كما رأينا من شراء فن الوصف البارعين لأن الطبيعة سحرته بما فيها فصورها تصويرا يقف دونه كثير من شعراء الوصف . ورأى العمران والحضارة تعم البلاد فى العصر العباسى ، فشارك بشعره الوصفى مشاركة فعالة سجل فيها ما قامت به الدولة من بناء وعمارة وانشاءات وغير ذلك مما رأيناه ولم يقف فى وصفه عند هذا الحد ، بل وقف من الحيوانات موقف الخبير العارف بمزاياها ، وخاض معارك بطولية مع المفترس منها كالذئب فوصف ذلك كما مر .

وعلاوة على هذا فقد أتى شاعرنا بأوصاف مالم يسبق اليه ، وهو البكاء على المعالك الزائلة ووصف حالتها السابقة وحالتها الراهنة، مما جعل النقاد قديما وحديثا يذهبون الى أنه امام هذا الغرض الجديد وصاحب

والباحث عن خصائص الوصف عند هذا الشاعر يجد أن وصفه حصيلة نتاج بين القديم والجديد ، فيه مادية الوصف الجاهلى وحسيته ، وفيه وجدانية الوصف العباسى وانفعالاته ، ولكن على اقتصاد فى الصنعة . ومن هنا يمكن اخضاع فن الوصف عنده لمظهرين مظهر القديم كوصف الطلل الذى يفتتح به قصائده المدحية جريا على عادة شعراء الجاهلية . على أنه ميز وصفه للطلل بشجو خاص هو وليد ديباجته التى عدت مضرب الأمثال ، فهو يأتى بالصور والايحاء ، والمعانى المكررة ، مضفيا عليها ايقاعا موسيقيا كثير الشجو يبعث فيها الحياة والحركة . فالطلل هو أكثر الموضوعات التى تدخل تحت وصفه القديم ، واستيفاء سنة المدح . واذعانا للتقيد الشعرى ، فلا مجال لاتخاذه دلالة على تأثره بالبداوة بقدر ما يمكن أن تتخذه مجالا لاظهار تقيده بحدود الشعر المتبعة .

كما يدخل تحت مظهر القديم فى وصفه ، وصف المحبوبة ووصف الناقة . على أن وصفه هذا يتصف بالترابط والتماسك .

أما المظهر الثانى فهو الوصف الجديد ، فالشاعر بعد انتقاله الى حاضرة الخلافة ، وتردده هناك ، جعله يرى ما أبدعته الدولة

من عمران وغيره . فوقف أمام هذه الحضارة مشدوها ، فوصفها وصفا رائعا ولعل أبرز ماقاله في ميدان التجديد ، وصف القصور والبرك ووقفته الفريدة من نوعها أمام ايوان كسرى ، ووصفه المراكب في البحر ويظهر في أوصافه هذه أثر الحضارة ، كما تبدو البراعة الفنية والربط بين الألفاظ والمعاني والقدرة على تشخيص الموصوفات وبث الحياة فيها .

ومن خصائص وصفه أن أكثره يأتي في قصائد المدح ويظهر هذا جليا في وصف القصور ، وأوصافه مرتبطة بالمدنية العباسية ، والشاعر الموفق هو الذي يعيش زمانه ويجود في نقل مجتمعه الى صفحات التاريخ شعرا جيدا رصينا .

ومن خصائص وصفه أيضا أن يعتمد نوعا من الخيال الحسي الذي يقارن فيه بين مشهد وآخر ، فهو خيال يقرب الأشياء بعضها الى بعض وهذا يظهر في مثل وصفه للقصر الكامل ، فخياله خيال ناقل مصور . كما تكثر في أشعاره الايقاعات الغنائية التي أقرب ماتكون الى الهمس الوجداني وهناك خاصية ظاهرة في شعره الحربي فهو يشير الى المعركة ويلمح لمحات سريعة وكأنه يطبق قاعدته " والشعر لمح ..." فهو يعتمد هذا في وصفه للمعارك اذ لاتظهر لنا الموقعة وانما يشير اليها اشارة سريعة كما سبق . على أنه برع في وصف المعركة البحرية بين المسلمين والروم ، وان كان في بعض الأبيات يرتد بخياله الى البادية حين يشبه ضجيج البحر بين رماح المحاربين بترديد صوت المسن من الابل .

أما في وصفه للرياض والقصور ، فنرى الدقة والخيال والقدرة على التعبير والتشخيص . ولعل السبب في اجادته وصفها أنه شاهدها عن كثب ، أما المعارك فتمثلها تمثلا في ذهنه . ولهذا يذهب أكثر النقاد الى أن البحتري شاعر العمران والطبيعة أكثر منه شاعر الحروب والمعارك وهذه حقيقة لاجدال فيها .

كما تمتاز بعض أوصافه بالواقعية ، وهذا مثل وصفه لمعركة أنطاكية حيث نقل لنا الصورة كما هي ، فصور أنو شروان واللباس والجنود والعلم ... وهذا يدل على براعته الفائقة ، حيث صور المرئيات وعرضها بألوان خلابة

على أنه لاينتقل فى وصفه انتقالا مفاجئا ، وقد ذهب الكتاب الى أن هذا يدل على تطور الوصف عنده .

ومن خصائص وصفه كذلك أنه يتصف بوضوح الصور ، واتساق التأليف وموسيقى التعبير ، وسلامة الديباجة ، ورقة الصياغة . وهذا هو الذى حدا بالنقاد الى تشبيه شعره بسلاسل الذهب ، لما فيه من تناسب وانسجام وتماسك . كما أن ابن رشيق يعده شيخ الصناعة . ووصف شاعرنا يصور وجوه الحضارة والترف المادى الذى بلغه عصره ، ويبرز هذا فى وصفه للرياض .

كما أنه ينسق أجزاء قصائده الوصفية ، ويقرن الحس بالخيال قرنا جميلا ، كقصيدته فى وصف الذئب .

كما يمتاز وصفه بوفرة الصور وجمالها على أن أكثرها واقعية فيها سذاجة بدوية ، وفيها طرافة ودقة ، وفيها قوة وايحاء وحركة .

ووصفه للعمران فريد من نوعه يبلغ فيه مستوى رفيعا من الابداع فهو يكاد يكون منفردا فيه . وقد ذهب بعضهم الى أن الشاعر وان لم يكن من أصحاب الخيال الجبار الذى يجلى الواقع بما يبنى من تصورات رهيبة مدهشة ، وآفاق خيالية فسيحة مع هذا بلغ من الروعة فى وصف العمران درجة عالية ، بارعة فى التفاصيل ، والدقة فى رسم هذه التفاصيل رسما حسيا يجعلنا نلمسها بأيدينا ، وتؤثر فى أعيننا ، وهناك أيضا الصور الخيالية الطريفة التى يلجأ اليها أحيانا .

وتمتاز معانيه فى الوصف بحسن السبك وتتابع أجزاء القصيدة وبالأخص فى وصفه للطبيعة ، فالبحترى مفتتن بمظاهر الطبيعة ومن يستمع الى شعره فى هذا الباب يشعر بأن بينه وبين الربيع وشائج قربى فهذا بالألوان يرصف الزهر ، وهذا بالألحان يرصف الشعر عذوبة ورقة كما يقول الصيرفى .

والبحترى فى وصفه للطبيعة ابتدع معانى طريفة خاصة يتوفر فيها على اختيار التفاصيل الطريفة المحسوسة ، وذلك ليؤلف لوحات متناسقة . كما أنه استمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا المنطق

ولهذا اتصفت معانيه بعدم التعقيد والتجزئة.

ومن خصائص وصفه أنه أداة من أدوات التعبير الشعرى عن خلجات وهواجس تضطرب فى نفسه ، فهو يجد متعة فى أن يتناول بالوصف كل جميل يصادفه .ووصفه كما تقدم يقوم على نصيب من الخيال فتتقدم الألوان والأضواء قوية ساطعة!

وفى أكثر أوصافه ايقاع موسيقى كثير الشجو يبعث فيها الحياة وذلك لتكرار المعانى الذى حمده عليه النقاد .

ابن الأثير يرى أن شعر البحترى فنناء موسيقى من حيث رقة النظم والاسلوب اذ يقول فى المثل السائر : " وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى . ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق ... أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ... " .

يقول بعض الكتاب : " ... البحترى يتجلى بجمال الديباجة ، وبراعة الوصف والتصوير ، ولاسيما فى وصف الطبيعة ومظاهر العمران ، يسمو به خيال لطيف يسبح فى سماء صافية الأديم معطرة الأرجاء عليلة النسيم .. " .

ويقول آخر : " ان البحترى فى وصفه بصفة عامة يعتبر اماما لشعراء الوصف فى العربية وهو يعمد الى الخيال أكثر مما يعمد الى الفكرة ويركن الى حسن الديباجة واللفظ السهل والمعنى السريع الفهم مع فرام بالمحسنات البديعية البعيدة عن الغلو برىء من الاسراف" .

منزلة البحتري في شعر الوصف
واستاذيته للشعراء فيه

البحتري شاعر وصاف فريد ، فلقد رزق قدرة على اجادة الوصف مما جعله يبذ أقرانه من الشعراء ، ويحلق في أجواء بعيدة حتى صار اماما لمن جاء بعده . علاوة على أن تبريزه في فن الوصف جعله زعيم هذا الفن في العصر العباسي .

ان شاعرنا يحتل منزلة عالية ومكانا مرموقا بين الشعراء مما جعل أبا تمام يشهد له بامارة الشعر ، يضاف الى هذا اسقاطه خمسمائة شاعر كما يقول الآمدي . وكونه الشاعر الرسمي للدولة طوال عشرات السنين .

وللبحتري عدة قصائد تعتبر من عيون الشعر العربي جعلته يحتل مركز الزعامة ، فهو أول من انطلق في ميدان الوصف العمراني في بابه الواسع وبلغ القمة في ذلك .

ولعل من ذلك وصفه لايوان كسرى ، حيث أضاف نوعا جديدا الى الشعر العربي ، وهو البكاء على الممالك الزائلة ووصفها ، فلقد أطل الشاعر بهذا الغرض .

وكذلك وصفه للمعارك البحرية حيث ذهب النويري الى أنه لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب الا البحتري . كما ذهب البعض الى أنه لم يأت بعد البحتري من هو أطبع على قول الشعر ولا أبدع منه في الخيال الشعري .

يقول بعض الكتاب : " ان كلا من شعراء الداريات في المشرق وفي الأندلس كانوا بلا شك عيالا على فن البحتري في وصفه لقصور العباسيين " .

وهكذا سبق البحتري في هذه الأغراض من جاء بعده ، فهو الذي وجههم اليها ، فصار استاذا واماما لهم ، يقتفون أثره ويحاولون

أن يصلوا الى ما وصل اليه فأخذوا يعارضونه فى قصائدهم ، فهذا أمير الشعراء أحمد شوقى عارض سينية البحترى فى وصف الايوان ، بقصيدته السينية التى وصف بها قصر الحمراء فى الأندلس عندما نفى الى هناك ، والتى يقول فى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسى فاذكرا لى الصبا وأيام أنسى

ولقد صرح أمير الشعراء فى اتباعه فى هذا الوصف للبحترى فقال : " ... وكان البحترى رحمه الله رفيقى فى هذا الترحال وسميرى فى الرحال ... فانه أبلغ من جلى الأثر وحيا الحجر ونشر الخبر ... " .

وهذا القول يصور لنا ما كان يجول فى نفس شوقى ، وكيف كان روح البحترى يطيف به ، وهو يطوف بقصر الحمراء كما يقول زكى مبارك فى الموازنة بين الشعراء .

وليس شوقى الوحيد فى معارضة البحترى ، فهناك الشاعر محمد الهراوى الذى نظم قصيدة سينية عن أبى الهول فيها معنى المعارضة لشاعرنا ويقول منها :

نبىء الناس يا أبا الهول أنا أمة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا أنا ابلتنا شعوب وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءا بيد الله كل كأس بكأس

وللهراوى أيضا قصيدة سينية أخرى وهى بلا شك من وحى البحترى وهى القصيدة التى وقف بها على دار الشيخ محمد عبده رحمه الله فى عين شمس .

وهناك شعراء آخرون كثيرون أثرت بهم مدرسة شاعرنا البحترى فى وصف المسالك مثل جرجى صيدح ، وغيره .

ولا تقتصر أستاذية البحترى عند هذا الحد ، فلقد صار استاذا للشعراء فى البعد عن التعقيد ، ومستكره الألفاظ ، ووحشى الكلام ، وغريب الاستعارات ، حيث اقتفى أثره فى ذلك أكثر الشعراء كأبى فراس الحمدانى ، كما جاراه أبو الطيب المتنبى فى بعض معانيه .

ولو بحثنا عن أسباب هذه المنزلة الرفيعة التى احتلها شاعرنا والاجادة

العظيمة فى الوصف لوجدنا أنها تكمن فى :

١ـ خياله الصافى وقدرته على تصوير الأشياء بدقة وبراعة .

٢ـ حسّه المرهف ، وسرعة تأثره .

٣ـ نشأته فى البادية فى منبع فلقد شب فى بيئة عابقة ببدائع الطبيعة ومظاهرها ، وترعرع فى ظل حيث أخذ العربية من معينها الصافى الخالص .

٤ـ انتقاله الى العراق حيث رأى الحضارة وشاهد العمران .

الخاتمـــــــة

هكذا رافقنا هذا الشاعر الفحل ، رافقناه في منبج ، وبطياس ، وحلب ، وفي ضارب طيء ، فرأيناه نهل من معين العربية الصافي الخالص ، الذي لا تشوبه شائبة ، فأثر ذلك كل التأثير في شعره ، وسمعنا شعره منذ صغره وقد ابتدأه بالمدح وما ذلك الا للفقر المدقع الذي ألم به لوفاة أبيه . ولكنه أن جرى الشعر على لسانه عذبا سائغا فصيحا بعد أن صقله أبو تمام ووجهه التوجيه الناجح فرأى شاعرنا أن موطنه ومقامه أعلى مما هو فيه ، فشد رحاله الى العراق الى عاصمة الخلافة حيث التقى بكثير من الرجالات ولكن همته كانت عالية لا تقتصر عند هذا الحد ، فأراد أن يكون له مكان بين الخلفاء والوزراء ، فتم له ما أراد بفضل ما رزق من شاعرية ، ورأيناه يعيش أعواما طويلة في العراق يلم بين الفينة والفينة ببلده الشام ولكنه لا يلبث أن يعود أدراجه الى العراق ، فهو شاعر الدولة والخليفة وخاصة المتوكل الذي أقام معه أعواما كثيرة حتى صار له من جراء ذلك المقام الأول عند الخليفة . فعاش في ترف ونعيم وعز وقهارمة ، وامتلك الضياع التي لا تحصر لها . ولكن هذا النعيم لم يدم فسرعان ما يخرج من العراق بعد اتهامه بالثنوية على أمل رجوع لم يتحقق . فأقام في بلدته منبج ثم هوى نجمه المضيء بعد أن ترك لنا هذا الانتاج الضخم .

ومرة ثانية رافقنا شاعرنا في شعره وشاعريته ، وأغراض الشعر التي طرقها فرأينا مقومات شعره ، وأسباب شاعريته ومقدارها وآراء النقاد والأدباء . وجلنا جولة سريعة في أغراضه الشعرية .

ثم وصلنا المرحلة الثالثة بل المرحلة الطويلة انها مرحلة " الوصف " ذلك الغرض الذي امتاز به شاعرنا ، ولقد اتسع صدر الشاعر فيه وضمناه في تجوالنا في ايوان كسرى فأرانا معالمه وبقاياه وما احتوى عليه . ثم انطلق بنا الى تلك القصور الشامخة التي تشبه ناطحات السحاب في هذا العصر ، وتردد بصحبته في ردهاتها الفسيحة ، وتجولنا بين حدائقها اليانعة وشربنا من بركها وأنهارها . ثم الطبيعة حيث الزهور والورود والأمطار والبروق والرعود ، ان البحتري في نهاية المطاف أحس بما ألهبنا من الاجهاد لطول المدة التي نعمنا فيها برؤية جمال الطبيعة ، حيث رآنا بحاجة الى ما ينقلنا فوجد الخيول خير ذلك فجلاها لنا وأرانا ألوانها وأنواعها وثنى بالابل النجيبة التي تقطع الفيافي القفار ، ولما كنا في الصحراء أرانا الذئاب وغيرها وقص علينا معركته مع الذئب ، واستطرد الحديث

الى ذكر الأسود وبالأخص ذلك الأسد الذى صرعه الفتح بن خاقان . وقد كانت الخيول سريعة حيث وصلت بنا العراق والشام فرسم لنا معالم حضارة وطبيعة هذه البلاد ، ثم طلب منا أن نرافقه الى شئ أشد هولا ورهبة من الصحارى وحيواناتها الضارية ، الى المعارك الطاحنة برية ، وبحرية فأرانا المعارك البحرية التى لم نرها عند غيره من الشعراء ، وعرض علينا المشاركة فى هذه المعارك فأعطانا السيوف البواتر الماضية ، وكان شاعرنا على موعد فى يوم من الأيام فعاد بنا الى العراق ثانية حيث أرانا المواكب التى تجرى عرضا وطولا فى البلاد ، وكان اليوم عيدا ، فرأينا بصحبة الشاعر خروج المتوكل لصلاة عيد الفطر ومارافقه من أبهة وعظمة ، كما وقفنا على الأطلال الدارسة الى غير ذلك من المتنوعات .

كان البحترى فى هذه الأثناء ينعم بأطياف محبوباته ، ووصف ما ألم به من تلك الأطياف حيث اشتهر بهذا النوع من الوصف . وان السؤال الذى يتردد بعد ذلك هو : هل استمر الشاعر فى قوة وعنفوان ؟ لا أعتقد ذلك فها هو المشيب ، يمنعه وهاهى السنوات تهده . فتبتعد عنه الحسناوات فيحاول أن يقنعهن ، أن هذا جلال ووقار ، ويضرب الأمثلة على ذلك ، ولكن هيهات .

وبعد أن رافقنا شاعرنا فى هذا التجوال الطويل فى الوصف رأينا خصائص هذا الوصف ، ومعانيه وأخيلته ، ثم منزلة هذا الشاعر والذى يعتبر استاذا لمن جاء بعده من الشعراء .

وأخيرا أرجو أن يكلل الله عملى هذا بالنجاح والتوفيق والرضا . انه سميع مجيب .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مراجع البحث ومصادره

١	أبو عبادة البحتري (الشوابخ)	د/ محمد صبري
٢	أخبار البحتري	أبو بكر الصولي
٣	الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي	محمود مصطفى
٤	الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين	/ د/ عبد المنعم خفاجي
		/ د/ حسن جاد
		/ د / عبد الحميد المسلوت
٥	أدباء العرب في الأعصر العباسية	بطرس البستاني
٦	أسس النقد الأدبي عند العرب	د/ البدوي
٧	إعجاز القرآن	الباقلاني
٨	أعلام النبلاء	الطباخ
٩	أغاني الطبيعة	د/ الحوفي
١٠	الأغاني	أبو الفرج الاصفهاني
١١	أمراء الشعر العربي في العصر العباسي	أنيس المقدسي
١٢	أمالي المرتضى	الشريف المرتضى
١٣	البحتري (النوابغ)	/ د/ البدوي
١٤	البحتري (أعلام الفكر العربي)	نديم مرعشلي
١٥	البحتري درس وتحليل	اسحاق كنعان
١٦	تاريخ الأمم والملوك	الطبري
١٧	تاريخ الدولة العباسية	الخضري
١٨	تاريخ بغداد	البغدادي
١٩	تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي	السباعي بيومي
٢٠	تاريخ الأدب العربي	الزيات
٢١	تاريخ الأدب العربي	حنا الفاخوري
٢٢	تاريخ الأدب العربي	عمر فروخ
٢٣	تاريخ الأدب العربي	بروكلمان
٢٤	تاريخ الأدب العربي	ابراهيم أبو الخشب
٢٥	تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني	/ د/ شوقي ضيف

٢٦- تاريخ آداب اللغة العربية	جرجى زيدان
٢٧- تاريخ الشعر العربى	نجيب البهبيتى
٢٨- تجريد الأغانى	ابن واصل الحموى
٢٩- حياة البحترى وفنه	/د/ البدوى
٣٠- حماسة البحترى	أبو عبادة البحترى
٣١- الحياة الأدبية فى العصر العباسى	/د/ عبد المنعم خفاجى
٣٢- خزانة الأدب	البغدادى
٣٣- ديوان البحترى	تحقيق حسن كامل الصيرفى
٣٤- ديوان المعانى	ابو هلال العسكرى
٣٥- الرؤوس	مارون عبود
٣٦- زهر الآداب	الحصرى
٣٧- شعر الطبيعة فى الأدب العربى	/د/ سيد نوفل
٣٨- شعر الطبيعة	السحرتى
٣٩- شعر الحرب فى أدب العرب	زكى المحاسنى
٤٠- الشعر والشعراء	ابن قتيبة
٤١- الشعراء وانشاد الشعر	على الجندى
٤٢- طبقات فحول الشعراء	ابن سلام الجمحى
٤٣- طبقات الشعراء	ابن المعتز
٤٣- طيف الوليد أو حياة البحترى	عبد السلام رستم
٤٤- عبث الوليد	ابو العلاء المعرى
٤٥- عبقرية البحترى	عبد العزيز سيد الأهل
٤٦- العصر العباسى	جورج غريب
٤٧- العقد الفريد	ابن عبد ربه
٤٨- العمدة فى صناعة الشعر ونقده	ابن رشيق
٤٩- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	/د/ شوقى ضيف
٥٠- فن الوصف	ايليا حاوى
٥١- الفهرست	ابن النديم
٥٢- الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
٥٣- المثل السائر	ابن الأثير

٥٤ـ مختار الأغانى	ابن منظـور
٥٥ ـ مـرج الذهب	المسـعودى
٥٦ـ المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها	/ د / عبد الله الطيب المجذوب
٥٧ـ المرأة فى شعر البحترى	دكتورة / نعمات أحمد فؤاد
٥٨ـ معالم الشعر وأعلامـه	/ د / محمد نبيه حجـاب
٥٩ـ معاهد التنصيص	العباســـى
٦٠ـ معجم البلدان	ياقوت الحموى
٦١ـ معجم الادباء	ياقوت الحموى
٦٢ـ من حديث الشعر والنثر	/ د / طه حسين
٦٣ـ الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى	الآمـــدى
٦٤ـ الموازنة بين الشـعراء	زكى مبـــارك
٦٥ـ الموشـح	المرزبانى
٦٦ـ نزهة الأبصـــار	عبد الله بن أحمد بن درهم
٦٧ـ النقد الادبى حول أبى تمام والبحترى	محمد على أبو حمدة
٦٨ـ النقد المنهجى عند العرب	/ د / محمد مندور
٦٩ـ نهاية الأرب	النويـــرى
٧٠ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه	الجرجانى
٧١ـ وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربى	مجموعة من المؤلفين
٧٢ـ الوصف (فنون الادب العربى)	وضع مجموعة من الأدباء
٧٣ـ وفيات الأعيان	ابن خلكان
٧٤ـ يتيمـة الدهـر	الثـعالبى
٧٥ـ دراسة سينية البحترى	/ د / عبد السلام سرحان

فهرس موضوعات البحث

الموضوع	الصفحة
الباب الأول : حالة العصر	
الفصل الأول :	١
١ـ الحياة السياسية فى العصر العباسى .	١
٢ـ الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى .	٥
٣ـ الحياة العقلية والأدبية فى العصر .	٨
الشعر وخصائصه فى العصر العباسى .	١٢
الفصل الثانى : حياة البحترى .	١٧
نسبه ونشأته .	١٧
رحلته الى حلب والتقاؤه بعلوة .	٢٠
اتصاله بأبى تمام .	٢١
وصية أبى تمام للبحترى .	٢٢
تأثر البحترى بأبى تمام .	٢٥
اعترافه له بالأستاذية .	٢٧
ارتحاله الى العراق واتصاله بالخلفاء ورجالات الدولة .	٢٩
خروجه من العراق ووفاته .	٣٣
عقيدته الدينية والسياسية .	٣٤
صفاته وأخلاقه .	٣٦
آثاره .	٤١
الفصل الثالث :	٤٣
شعر البحترى ومميزاته .	٤٣
شاعريته وآراء النقاد والأدباء فيها .	٤٧
نظرة سريعة فى أغراض الشعر التى طرقها .	٥٢
١ـ المدح .	٥٣
٢ـ الهجاء .	٥٤
٣ـ الفخر .	٥٦
٤ـ الغزل .	٥٨

الصفحة	الموضوع
٦٠	٥- الرثاء.
٦١	٦- العتاب والاعتذار.
٦٢	٧- الحكمة.
	الباب الثاني : الوصف في شعر البحتري.
٦٣	الفصل الأول:
٦٣	تطور الوصف في الشعر العربي الى عصر الشاعر.
٦٦	وصف ايوان كسرى.
٧٩	الفصل الثاني :
٧٩	١- وصف القصور العباسية :
٧٩	الجعفري وبركته.
٨٥	الكامل.
٨٨	المعشوق و المشوق.
٨٩	الصبيح والمليح.
٩١	الساج والبرج.
٩٥	الزور.
٩٣	الفرد.
٩٤	قصور الفتح.
٩٥	٢- الطبيعة (الربيع والرياض والسحب والبرق والمطر وغيرها).
١٠٦	٣- وصف المدن والأقاليم.
١٠٦	(أ) وصف الشام.
١١٠	(ب) وصف العراق.
١١٣	٤- وصف الحيوانات.
١١٣	وصف الذئب.
١١٧	= الأسد.
١٢٠	= الخيول.
١٢٩	= الناقة.
١٣١	٥- وصف المعارك والسيف.

الصفحة	الموضوع
١٣١	المعارك البحرية .
١٣٦	المعارك البرية .
١٤٠	السيف .
١٤١	٦ـ وصف الطيف والشيب .
١٤١	(أ) الطيف .
١٤٥	(ب) الشيب .
١٤٧	٧ـ وصف المواكب وغيرها .
١٤٧	موكب الخليفة المتوكل .
١٥٠	وصف دخول البحتري على الفتح .
١٥١	أوصاف متنوعة .
١٥٤	الفصل الثالث :
١٥٤	خصائص شعر الوصف عند البحتري وآراء النقاد فيه .
١٥٨	منزلة البحتري في شعر الوصف واستاذيته للشعراء فيه .
١٦١	الخاتمة .
١٦٣	مراجع البحث ومصادره .
١٦٦	فهرس الموضوعات .